سلمى الحفار الكزبري

جورج صاند

Twitter:@abdulllah1994

حب ونبوغ

الكتاب الثاني

٢٠١٧/٨/١٥

مؤسسة نوفل

سلمى الحفّار الكزبري

جورج صاند

حبّ ونبوغ

مؤسسة نوفل
بيروت - لبنان

Twitter:@abdulllah1994

عبدالله أبوبكر الأنصاري

2013

جورج صاند

حب ونبوغ

Twitter:@abdulllah1994

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف والناشر

الطبعة الأولى

١٩٧٩

© مؤسسة نوفل

شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة - تلفون : ٢٥٣٣٠٣ - ص.ب : ٢١٦١-١١ بيروت - لبنان

Twitter:@abdulllah1994

جورج صَاند : ١٨٠٤- ١٨٧٦
حبٌ وَنبوُغ

الاهداء :

إلى روح « جورج صاند » التي رثاها فيكتور هوغو فقال : « لم تفتقر هذه المرأة المجيدة إلى شيء إذ كانت قلباً كبيراً ، وفكراً عظيماً ، وروحاً نبيلة ، ولا بد من الإقرار بأن ما يميّز روائعها من غيرها ، وما يجعلها قوية التأثير شيئان : عذوبتها ودعوتها إلى الخير . كانت جورج صاند كاتبة نابغة ، وامرأة طيبة فأصابتها سهام المبغضين والحاقدين لأن من يبلغ مدارك التفوق يصبح عرضةً للكراهية ، ومن يستحق الإعجاب يصبح هدفاً للقدح والذم ... ولكن كراهية الناس وذمّهم له لا ينقصان من عظمته شيئاً بل يكرسانها ، ولا بد لمن يتوّج من أن يُرجم » ...

سلمى الحفار الكزبري .

Twitter:@abdulllah1994

Twitter:@abdulllah1994

المقـــدّمة

أضحت مغامرات جورج صاند العاطفية أسطورة ذائعة في كل مكان ، وأضحى ذكرها مرتبطاً باسم عظيمين من معاصريها : الشاعر « ألفريد دي موسي Alfred de Musset » والموسيقي الكــبير « فريدريك شوبان Frédéric Chopin » اللذين هاما بها وهامت بهما . وهذا ما جعل أكثر الناس يتخيلون امرأة متهتكة ، ثائرة ومتمردة ، كلما يأتون على ذكر هذه الأديبة الفرنسية التي اقتحمت عالم الرجال في القرن التاسع عشر وجارتهم في تحررها وعبقريتها . ولكن الواجب يحدوني إلى توضيح معالم هذه الشخصية الفذة لأنها كانت ، وما زالت في رأي الذين ترجموا حياتها ، ودرسوا آثارها ، علماً من أعلام الفكر ، ومجداً من أمجاده .

عندما أقدمتُ على كتابة سيرتها كنت أدرك المشقة التي تتضمنها هذه الدراسة لعدة أسباب منها وفرة المصادر التي

Twitter:@abdulllah1994

وجدتها ، وتضارب الآراء فيها ، وغزارة انتاجها الأدبي الذي تجاوز تسعين كتاباً عبر حياة غنية ومثيرة بلغت اثنتين وسبعين عاماً .

غدت جورج صاند مثالاً منفّراً للأديبة المتحررة لأنها لم تكن امرأة عادية كسائر النساء ، بل كانت امرأة نابغة ، وكثيراً ما يجاور الشذوذ كل نبوغ ، بينما هو شيء طبيعي في حياة العباقرة . صورت لنا في روايتها : « ليليا — Lélia » نزواتها العاطفية وقصة حبها الأول بجرأة وصراحة لم يعهدهما الرجال في أديبة قبلها، وكأن شخصيتها انحصرت في إطار « ليليا » المرأة المتهوّرة إلى أبد الأبدين. ولكن ينبغي ألا يغرب عن بالنا أن التطور ملازم للانسان يغيّره فكراً وعاطفة وسلوكاً باستمرار ، وان من الظلم بمكان أن نحكم عليه من خلال موقف اتخذه في وقت ما ، أو حادثة عاشها في فترة ما . وليست غايتي من هذه السيرة الدفاع عن جورج صاند أو مهاجمتها ، ولا الحكم عليها أو محاكمتها ، انما غايتي منها التعريف بحياتها ، بمشاعرها ، بأعمالها الأدبية وبموهبتها لأنها كانت بحق امرأة خارقة ، وكاتبة عظيمة تستحق أن تُكتب سيرتها بتجرّد ، وأن تكون في نضالها وعطائها قدوة لكل أديب وفنان .

Twitter:@abdulllah1994

تميزت جورج صاند باستقاء موضوعات رواياتها من الواقع ، ومن تجاربها الشخصية خاصةً . نشأت في الريف فصادقت أبناءه وأُعجبت ببساطتهم وأساطيرهم فخصتهم بالعديد من رواياتها الجيدة . كانت تقول : « لست متطفلة على حياة العمال والمزارعين ومعاناتهم لأنني ابنة الشعب قلباً وروحاً ودماً » . أول حب ملك عليها قلبها كان حبها لأمها المنكودة الحظ التي كانت ضحية ظلم حماتها البرجوازية المتكبرة فنشأت على الحذر من الأغنياء ، ولم تجد وسيلة للانتقام منهم سوى التمرد عليهم ، ونذر نفسها للدفاع عن حقوق الضعفاء والمطالبة بها . لقد استمدت من مأساتهم مادةً واقعية غنية جعلتها نواة انتاجها الأدبي فقدمت بفضل موهبتها الأصيلة آثاراً خالدة .

ان من يظن أن جورج صاند طالبت بتحرير المرأة بغية تجريدها من خصائصها الأنثوية ،ودعوتها للتخلي عن رسالتها المقدسة يرتكب خطأً جسيماً لأن جورج صاند كانت تعي دور المرأة النبيل في بناء المجتمع الأفضل . لقد كتبت تقول في كتابها : « انطباعات أدبية » : (يجب أن تتوافر للمرأة فرص التعلم المتاحة للرجل لأنها صنو له في الحياة ، ويجب أن يبقى قلبها ملاذاً للحب والتضحية والصبر والرحمة .

Twitter:@abdulllah1994

عليها تقع مسؤولية انقاذ العالم من الانسياق وراء الأهواء المنحطة ، وويل للعالم ، كل الويل ، إذا ما تخلت المرأة فيه عن هذا الدور العظيم !) .

كانت جورج صاند ديمقراطية بالفطرة ، وجمهورية عن عقيدة ، واشتراكية عن ايمان ليقينها بأن سعادة الشعوب وتقدمها لا يقومان إلا على العدالة الاجتماعية في إنصاف الكادحين ، ونصرة المظلومين . وقد دعت لمذاهبها وأفكارها في سائر آثارها ، ودافعت عنها دفاعاً شجاعاً تنضح منه نبرة الاخلاص ، والحرص على سلامة المجتمع حباً بالوطن والانسانية .

وكانت جورج صاند مؤمنة بالله ، تحمل في جنباتها إيماناً راسخاً بعظمته ، وترفض ممارسة الطقوس الدينية إذ كانت ترى فيها نوعاً من المحاباة لرجال الدين ، ونفاقاً اجتماعياً ، وازدواجيةً في العقيدة لا يقرها التفكير الناضج . لهذا كانت المعارك التي خاضتها في حياتها لمحاربة مجتمع متزمت ، ورازح تحت سيطرة المتنفذين في الحكم وفي الكنيسة معارك صاخبة استعذبت فيها المتاعب والتضحيات ، واستغرق خوضها عمراً طويلاً بكامله . ولقد نجحت هذه المناضلة العنيدة في تأدية رسالتها الأدبية والاجتماعية بفضل

Twitter:@abdulllah1994

دأبها على العمل وإخلاصها لمبادئها وفنها والمجتمع الإنساني . خصصت لها دائرة المعارف[1] الفرنسية فصلاً كبيراً أوجزت في آخره أثر أعمالها فقالت : « إننا نجد في رواياتها الريفية حيث جعلت من الفن رسالة حب وعطاء كما ورد في مقدمتها لروايتها « مستنقع الشيطان La Mare au Diable » تعبيراً صادقاً عن أفكارها الاشتراكية ونزعتها الانسانية رفعها إلى مقام العظماء . »

نجد في سيرة جورج صاند التي نشرها الأديب الفرنسي الكبير « أندريه موروا André Maurois » عام ١٩٥١ بعنوان : « ليليا أو حياة جورج صاند » تقييماً لحياة تلك الشخصية ومؤلفاتها ، ودحضاً لاتهامات خصومها وتجنيهم عليها . أورد أندريه موروا [2] في الكتاب المشار اليه حديثاً جرى بين «ألكسندر دوماس الابن – Alexandre Dumas - Fils » وبينها وهي في سن الشيخوخة جاء فيه :

– (قولي لي الآن يا صديقتي ما هو رأيك في « ليليا » ؟)

---

(١) دائرة المعارف الكبيرة – لاروس – الجزء ١٧ ص ١٠٧٦٢ طبعة عام ١٩٧٦ .

(٢) ليليا أو حياة جورج – اندريه موروا – ص : ٤٩٢ – ٤٩٣ .

Twitter:@abdulllah1994

فأجابته جورج بانفعال :

- (لا تحدثني عنها أرجوك ! حاولت قراءتها من جديد قبل فترة وجيزة ، ولكنني توقفت عند فصولها الأولى . ومع ذلك لم أعد أبالي كثيراً بما مضى لأنني كنت صادقة مع نفسي ، ومخلصة لها عندما كتبت تلك الرواية ...)

وإذا شئنا أن نلخص للقارىء قصص جورج صاند العاشقة ، ونكشف اللثام عن مشاعر جورج صاند المرأة والأم والكاتبة فلنقرأ رسالة بعثت بها إلى صديقة لها شابة عام ١٨٦٧ (سأقص عليك كيف تسلقت دروب الحياة وحدي ، وأصف لك وعورتها التي تكشفت لي ، يوماً بعد يوم ، وقد حسبتها ممهدة وسهلة ... ان الطيبة يا عزيزتي من أقوى الخصال التي فُطرت عليها ولكنها كانت السبب في تعاستي لأنها فاقت عندي الحد المعقول ، وهي فضيلة ينبغي أن تكون متزنة عند الانسان الفطن . كانت الطيبة تتدفق في كياني كالسيل العرم مما جعل في مقدور أي انسان أن يتملكني بمجرد ما يثير عطفي أو شفقتي . كنت أندفع وراء العاطفة كالعمياء بغية الإحسان فأجرّ الأذى لنفسي وللغير . وعندما أحاسب نفسي اليوم أرى أن أكثر ما استهواني في حياتي هو حب الصداقة والأمومة . أما عن الحب الآخر فقد رضيت بما

Twitter:@abdulllah1994

كنت ألقاه أمامي دون بحث مسبق ، ولا اختيار ، وهذا ما جعلني أتطلب من الحب فوق ما كان يعطيني ، وأمنحه غير ما كان ينتظر مني . كان بوسعي أن أعثر على أصدقاء أو أبناء في أولئك الذين أحببتهم وأحبوني ولكنني فقدت الحق في طلب صداقتهم بعـــد أول تجربة . كنت أفتقر إلى القوة الروحية لبلوغ ما كنت أصبو اليه حقاً ، ولا تنسي أن الرجال غير مستعدين لأن يكونوا مجرد أصدقاء للمرأة ، ولا سيما عندما يكونون شباباً وأقوياء ...)[١]

لا ريب في أن الرجوع عن الخطأ ، والشجاعة في في الاعتراف به للملأ من أعظم صفات جورج صاند . لقد ندمت على مغامراتها العاطفية ، وأقرّت بأنها تجاوزت حدود المعقول في شبابها ، فكتبت رسالة أخرى « لجوليت آدم » تقول فيها : (أرجو أن تدافعي عني إذا ما تحدث أحد أمامك عن خيانتي لألفرد دى موسيه ، وأن تردي على الاتهامات قائلة : « إذا ما فقدت جورج صاند الحق في أن نحكم عليها كامرأة فقد احتفظت بحقها في أن نحكم عليها كرجل . كانت مثال الاستقامة في الحب أكثر من أي انسان آخر لأنها لم تخن أحداً في حياتها ، ولم تقدم على

---

(١) مشاعري وآراؤنا قبل عام ١٨٧٠ – جوليت آدم ص ١٦٩ .

Twitter:@abdullah1994

مغامرتين في آن واحد . كانت جريمتها الوحيدة أنها خاضت معترك الحياة مع الفنانين ، وآثرت صحبتهم على كل من عداهم يوم كان المجتمع يوليهم مكان الصدارة ، وأنها فضلت التمثل بأخلاق الرجال على التحلي بأخلاق النساء ... »

كما انني حريصة كثيراً يا جوليت على البوح لك بأن المرأة التي تتنكر لفضائل جنسها تقع حتماً في هوة الانحطاط . احفظي جيداً ما أقول ، أنت التي تعيشين محاطة بالرجال مثلما عشت ، وأنت التي يخطب ودها الكثيرون ، ويعبدها خيارهم ، ولا تنسي أن صداقة الرجل العظيم للمرأة المتفوقة تجلب لها المتاعب ، وانه في العشق كسائر الرجال ، وغالباً ما يكون عشيقاً مثالياً للمرأة الغبية أو السوقية ! لقد خبرت الحب في مختلف ألوانه ، « ليتني لم أفعل » ! وإذا ما قُدر لي أن أعود إلى الوراء لأعيش حياتي مجدداً فلسوف أكون امرأة عفيفة !) (١) .

انها نصيحة ثمينة من امرأة خبرت الحب والحياة ، ودلـّهها العشق حتى بَلـَتْ به الشباب، وجرأة عظيمة تستحق الاشادة بها ، ولكن ما يستحق الاعجاب أكثر في شخصية جورج صاند هو صفاء الذهن الذي رافقها حتى آخر عمرها .

---

(١) مشاعري وآراؤنا قبل عام ١٨٧٠ – جولييت آدم ٢٢٠ .

Twitter:@abdulllah1994

نجد في مذكرتها الشخصية مقطعاً في النقد الذاتي لم يجارها فيه أحد من الذين كتبوا مذكرات شخصية في صراحته وعمقه وشموله : (عندما تصفحت مذكرة قديمة كنت قد دونت فيها انطباعات مشبوبة ، وعواطف رومنطقية متأججة ، وملاحظات من هذا النمط أصابني نوع من الذهول الشديد. أذكر أنني كنت أعوّل أهمية كبيرة على تلك المذكرة ، وأحفظها بحرص كما يحتفظ الطفل بكنز عثر عليه لأنني ظننت أنها تضمنت خلاصة الأشياء الجميلة التي فزت بها ... واليوم أرى أنني لم أكتب فيها سوى حماقات ، مع أنني كنت صادقة في مشاعري آنذاك ، وقانعة بروعتها ... أجل ! لم أعد أرى فيها سوى التشدق والتفخيم ، وسخف ما بعده سخف ... تُرى هل يستطيع أحد أن يصف نفسه على حقيقتها ، أو أن يختصرها بكلمات وجمل ، أو أن يعرفها حق المعرفة ؟ هل صحيح أن الواحد منا شيء مهم في هذا الوجود ؟ أرى أن كل انسان يتغير بين يوم وآخر ، ويصبح كائناً جديداً بين عام وآخر ، وكثيراً ما أنقّب اليوم في أعماق ذاتي عن تلك المرأة المضطربة ، المتمردة ، التي لم تكن راضية عن نفسها وعن الآخرين ، فلا أجد لها أثراً ! كنت أؤمن بخرافة العظمة يوم كان حب العظمة مرض العصر لأن جميع الذين عرفتهم كانوا راغبين في أن يصبحوا

Twitter:@abdulllah1994

شخصيات عظيمة ، ويوم اتضح لهم العكس أصيبوا بخيبة أمل كبيرة . لقد بذلت جهداً ، بل جهوداً ، للحفاظ على صفاء السريرة وهذا هو السر الذي يجعلني أرافق ترحال السنين بخطى وادعة ، وبرضى حقيقي ، متجنبةً كل ما يثير الاستغراب . صحتي اليوم أفضل مما كانت عليه في شبابي ، أمشي كثيراً وبرشاقة ، وأقوى على السهر بدون تعب ، كما أصحو بنشاط ودونما جهد ، بعد نوم جيد هنيء ... يسيطر عليّ هدوء مطلق ، وأستمتع بشيخوخة لذيذة لا يعكر صفوها ندم على ما فات ، ولا طموح للمجد ، ولا شهوة للمال ، ولا سخط على الأصدقاء أو استياء من أحد ، ولكن الشيء الوحيد الذي يحزنني هو أن الانسانية تسير نحو الأسوأ ، والمجتمعات تبدو غافلة عن التطور السريع . هل يستطيع أحد أن يتكهن بما ينطوي عليه هذا الانحدار ، وأن يدرك نوع اليقظة التي ستعقب هذا الخدر ؟ ...)[1]

كان لا بد لشخصية امرأة مثل جورج صاند ذاقت مرارة الخيبة في زواجها المبكر ، وأخفقت في حياتها العاطفية ومغامراتها المثيرة ، ووهبتها الطبيعة طاقة خارقة

---

(١) جورج صاند – مذكرات شخصية – ص ٢٢٩ – ٢٣٠ .

Twitter:@abdulllah1994

على العمل من أن تُنذر هذه الطاقة للفكر والفن ، وللصداقات التي عقدتها ، ولأسرتها ومجتمعها ووطنها . بحثت عن المطلق في جميع علاقاتها الغرامية والانسانية بدأب وعناد فأخفقت في بلوغه ، غير أنها لم تيأس ولم تتراجع اذ كان حبها للحياة وللانسانية ولوطنها أقوى من اليأس ومن التراجع . آثارها الأدبية سجلٌ كامل لمعاناتها ، ونضالها ، وأحداث عصرها ، وما زال جزء كبير منها مقروءاً وممتعاً حتى غاية اليوم . لقد أجمع المؤرخون والنقاد على أن روايتيها : « ليليا » التي نُشرت عام ١٨٣٣ ، و « كونسويلو – Consuelo » التي نُشرت عام ١٨٤٢ ، و« يوميّاتها الخاصة– Journal intime » و « رسائل مسافر – Lettres d'un voyageur » و « شتاء في ميورقة – Un hiver à Majorque » ومراسلاتها مع معاصريها التي صدرت بعد موتها في ستة أجزاء من روائع الأدب والفكر . أما القضايا التي عالجتها ودافعت عنها كقضية المساواة في الحقوق بين الجنسين ، ورفع وصاية الزوج عن ممتلكات زوجه في فرنسا ، والتوزيع العادل للثروات لرفع مستوى الطبقة العاملة ، وتأييد النظام الجمهوري ، والتمسك بمبدأ الانتخابات المباشرة فما زال أكثرها قضايا انسانية وسياسية واقتصادية واجتماعية مطروحة في عصرنا الحاضر .

Twitter:@abdulllah1994

أثارت مؤلفات جورج صاند ومواقفها موجة كبيرة من السخط والاستنكار في حياتها قبل أكثر من مئة عام، ولا سيما عندما تطرقت لمشكلات الجنس في رواياتها، ودعت إلى الثورة على تقاليد قومها البالية، والمجتمع البورجوازي العتيق، فكانت أول كاتبة في العالم تنحو نحو الرجال المصلحين، وتأخذ حقها غِلابا، وتطالب بتعديل القوانين لانقاذ النساء والرجال على حد سواء من الظلم والاستبداد في سبيل إرساء قواعد مكينة لعالم أفضل.

ان أملي لكبير في أن أكون قد أصبت الهدف الذي رميت اليه بتقديم هذا العمل، ووُفقت في إعطاء صورة واضحة وكاملة لأديبة كبيرة، طبّقت شهرتها الآفاق، وإمرأة عظيمة فاقت حسناتها على مساوئها، ودخلت التاريخ في سجل العباقرة، ولسوف يرى القارىء مثلي أن حياتها كانت أعظم رواية كتبتها، وأروع قصة حب ونضال وسخاء يمكن لكاتب أن يتخيلها.

سلمى الحفار الكزبري

* * *

Twitter:@abdulllah1994

ولادة سعيدة بين الورد والألحان

« أورو دوبان Aurore Dupin » التي اشتهرت باسمها المستعار « جورج صاند George Sand » أديبة نابغة من ألمع أدباء فرنسا في القرن التاسع عشر ، وشخصية فذة طبقت شهرتها الآفاق في أوروبا والعالم لجودة مؤلفاتها ، وثورتها على التخلف والظلم في مجتمع متمسك بتقاليد موروثة لم يكن يعير النساء ولا العمال أي اهتمام . لقد تركت أثراً عميقاً في تأريخ عصرها ، وحياة معاصريها ، واحتلت منزلة مرموقة بينهم بفضل عطائها الأدبي الغزير ، وكفاحها المستديم الجريء لنصرة الضعفاء والمظلومين ، والنهوض بالمجتمع والوطن ، وارساء قواعد المساواة والحرية فيه . جورج صاند شخصية جبارة ، وامرأة عظيمة عاصرت نخبة من الكتاب والموسيقيين فأحبوها ، وقدروها ، وتأثر عـــدد كبير منهم بهـــا .

كان الأديب « غوستاف فلـــوبير — Gustave Flaubert »

Twitter:@abdulllah1994

يدعوهـا : « أستاذتي العزيزة » ، والأديب : (هونوري دي بالزاك – Honoré de Balzac » قرّظ مؤلفاتها واستوحى منهـا روايته : « بياتريس – Béatrix » ، وكان يسمّيها : « الزميلة جورج صاند » والشاعر العبقري : « فيكتور هوغو – Victor Hugo » رثاها في مأتمها أبلغ رثاء قيل في امرأة ، واعترف فيه بنبوغها ، وخدماتها ، وخسارة الفكر والوطن بفقدها ؛ والروائيان الروسيان : «دوستويفسكي – Dostoïevsky » و « تورغينييف – Tourgvénief » صرحا بأنها كاتبة لا نظير لهـا في قوة الموهبة ، وجمال الأسلوب ، وتنوّع المواضيع التي عالجتها في رواياتها ، ورسائلها ، ومقالاتها الصحفية . أما الشاعر : « ألفرد دى موسيه Alfred de Musset » والموسيقار : « فريديريك شوبان Frédéric Chopin » فقد أحبتهما وأحباها ، وكانت لها مع كل منهما مغامرة عاطفية هزّت في حينها الأوساط الفكرية والاجتماعية ، وما زالت موضع اهتمام المؤرخين والباحثين حتى يومنا هذا . كما كانت لها مغامرات عاطفية مع غيرهما سوف نأتي على ذكرها في سياق هذه السيرة لأنها مرتبطة أشد ارتباط بحياة الأديبة ، وبانتاجها الذي يُعتبر سجلاً أميناً لتجاربها الإنسانية .

Twitter:@abdulllah1994

صدرت مجموعة أعمالها في أواخر القرن الماضي عن دار « ميشيل ليفي – Michel Lévy » للنشر في باريس بمئة وتسعة أجزاء وهي تحتوي على ستين رواية ، وعشرين مسرحية ، ومجموعات متعددة لمقالاتها السياسية ، والاجتماعية ، ورسائلها مع كبار معاصريها ، وأخيراً مذكراتها الشخصية : « قصة حياتي » التي تقع في عشرة أجزاء . ومنذ تاريخ وفاتها حتى يومنا هذا تناول حياتها وأعمالها عدد كبير من كتاب السيرة والمؤرخين والنقاد في مؤلفاتهم ، وبعض الجامعيين في أطروحاتهم ، وما زالت بعض رسائلها الشخصية محفوظة في المكتبة الوطنية الفرنسية ، وفي مكتبات بعض الأسر الخاصة .

انها مجد من أمجاد الأدب في فرنسا ، ما في ذلك ريب ، وقد أفرد لها الأديب الكبير المعاصر « أندري موروا – André Maurois » كتاباً ضخماً دبّج فيه سيرتها ، ونشره في باريس عام ١٩٥٢ بعنوان – « ليليا ، أو حياة جورج صاند – Lélia ou la vie de George Sand » جاء في مقدمته ما يلي :

(قد يتساءل بعض الناس عما دفعني إلى كتابة سيرة جورج صاند ، فأجيب بأن وراء اهتمامي بها عدة أسباب : أولها أنني عرفت هذه الأديبة الفذة وأحببتها وقدرتها لا عن طريق أعمالها فحسب ، ولكن بفضل أديبين كبيرين هما : « مارسيل بروست – Marcel Proust » و« إميل ألان – Emile Alain» ،

Twitter:@abdulllah1994

وثانياً لأن صوتها كان الصوت النسوي الوحيد الذي دوّى في القرن الماضي ، وثالثاً لأنها اهتمت بالريف ، وصوّرت طبيعته وحياة أبنائه وصفاً شاعرياً رائعاً يكاد يكون ملحمياً ، وأخيراً لأنها كتبت عن الموسيقى بمهارة تشبه مهارة : « ستندال – Stendhal » ، وبخبرة لا تقل عن خبرة : « فيكتو هوغو » ولكونها سبقت سائر كتاب عصرها في معالجة المسائل الجنسية في روايتها العظيمة ؛ « ليليا – Lélia ».

لقد انتحلت أورور دوبان أي « جورج صاند » اسم رجل ، وكانت ترتدي ألبسة الرجال ، في غالب الأوقات ، وتفضّلها على أزياء النساء . أما السلوك الذي انتهجته في حياتها الشخصية منذ يفاعتها فقد كان دليلاً على جرأتها ، وبرهاناً على شغفها بالحرية ، وحرصها على تحرير النساء في فرنسا وفي المجتمع الانساني في عصر كانت الحرية فيه منوطة بالرجال ، ومحرّمة على النساء . ان لها رأياً لا يعارضه أحد وهو أن الكرامة مساوية للحرية ، وأن كرامة الرجل مرتبطة بكرامة المرأة ، فكيف يجوّز الرجل لنفسه خنق حرية المرأة ، وابقاءها على جهلها ، واستغلال طاقاتها وممتلكاتها ، وهو يسعى للنهوض بالمجتمع ، ويدّعي العمل من أجل تقدّمه ؟

Twitter:@abdulllah1994

كانت سليلة أسرة جرمانيــة سويدية استوطنت فرنسا منذ القرن السابع عشر ، وعُرفت نساؤها بالجمال والذكاء والشغف بالفنون والآداب ، وكانت جدتها لأبيها تدعى : « أورور » أيضاً ، وقد اشتهرت بقوة الشخصية والدهاء ، وورثت عن زوجها ثروة كبيرة فابتاعت قصراً في بلدة « نوهان – Nohant » الواقعة في منطقة « لوبيري Le Berry ومزرعة تحيط به ، وعكفت فيه على تربية ابنها الوحيد « موريس دوبان – Maurice Dupin » والد جورج صاند .

يبدو أن الجدة كانت شديدة الولع بابنها وقاسية في تربيته فما أن بلغ سن الرشد حتى التحق بالجيش هرباً من سيطرتها . تقول جورج صاند في كتابها « قصة حياتي » : (عشق أبي في باريس فتاة لعوباً دون مستواه الاجتماعي ، وكانت راقصة ثانوية في أحد المسارح ، وأُماً لبنت صغيرة من علاقة غير شرعية يوم هام بها . وعندما فاتح أمه بعزمه على الاقتران بها ثارت عليه بعنف بدلاً من أن تقنعه بالعدول عن الأمر بأسلوب هادىء حكيم ، فدفعه سوء تصرفها إلى الزواج من أمي « صوفي فيكتوار ديلابورد – Sophie-Victoire Delaborde ابنة مربي للطيور ، التي بادلته حباً بحب)[١] .

---

(١) « قصة حياتي » – جورج صاند – الجزء الأول ص ٤٣٣ .

Twitter:@abdulllah1994

وفي الأول من تموز عام ١٨٠٤ وُلدت جورج صاند في باريس ليلة كانت أمها ترتدي ثوباً وردياً وترقص على أنغام كمان كان يعزف عليه أبوها. لقد انتابت صوفي آلام المخاض قبل نهاية السهرة ووضعتها بسهولة، وكانت خالتها «لوسي Lucie» أول من بشر موريس بولادتها قائلة: «لقد أصبحت أباً لبنت وُلدت في جوّ يعبق بالورد وتصدح فيه الموسيقى، وهذا دليل على أنها ستلقى السعادة!» اسماها أبوها «أورور» براً بأمّه، وتعبيراً عن حبه الكبير لها، وطمعاً بأن ترضى عن زواجه ذات يوم، وتبارك الحفيدة الحلوة التي تحمل اسمها. ولكن القطيعة بينه وبين أمه دامت أربع سنوات حاول موريس خلالها أن يسترضيها بمختلف الوسائل كالمراسلة، وإيفاد الاصدقاء لاستعطافها، غير ان جميع تلك المحاولات باءت بالفشل. لقد آلمته القطيعة كثيراً فلجأ إلى طريقة المباغتة يوم بلغت الصغيرة ثلاثة أعوام: اصطحبها إلى نوهان برفقة صديق قديم وأرسلها معه إلى حجر أمه، بينما ظل واقفاً أمام باب القصر. كانت مفاجأة أمه بحفيدتها سارّة للغاية، ودُهشت لما رأت تلك الطفلة الحلوة أمامها فأجلستها على ركبتيها وقبلتها بحنان، ثم أخذت تتفحص معالم الوجه البريء. لقد رأت في عينيّ الطفلة السوداوين المخمليتين جمال عيون الأسرة، وملامح

Twitter:@abdulllah1994

وجه وحيدها الوسيم فاجتاحها الحنين اليه وقالت الصديق ، والدمع يسيل على خديها :

– يا للطفلة المسكينة ! لا أجد لها ذنباً في كل ما جرى . ألا تخبرني من أتى بها إلى هنا معك ؟

فتهللت أسارير الصديق وقال :

– ابنك السيد موريس ، يا سيدتي ، وهو منتظـــر في الحديقة .

وفي غضون دقائق التأم الشمل ، وصفت القلوب ، وزالت رواسب السخط من قلب الأم التي رُدّت إليها الروح بعودة وحيدها اليها . لقد بكى الاثنان وهما يتعانقان فطلب منها موريس أن تعترف بزواجه وتباركه لكي يستطيع تسجيله دينياً بعد ما كان زواجاً مدنياً فقط ، فنزلت عند رغبته ، وقبلت أن تستقبل زوجه . بعد أقل من أسبوع وفد موريس على أمه في نوهان مع صوفي فيكتوار وأمها ... الصغيرة فأقاموا عندها نهائياً ، ولكن الصلات بين الحماة الأرستقراطية والكنة المتواضعة البسيطة لم تكن طيبة في يوم من الأيام .

Twitter:@abdulllah1994

طفولتها ويفاعتها

قضت أورور دوبان السنوات الأولى من طفولتها مع أمها وأبيها في باريس حيث كانا يقطنان في بيت متواضع يشبه الملاجىء ، لا دفء فيه ولا نور فوجدت نفسها في شبه نعيم يوم انتقلت مع أبويها إلى قصر جدتها في نوهان حيث الطبيعة الجميلة ، والحدائق الغناء ، والرفاهية التامة. ولكنها شبت موزعة القلب بين أمها الطيبة وجدتها الصارمة إذ تفتحت مداركها على النزاع بين المرأتين : أمها اللطيفة الحنون ، المعتزة بنفسها على الرغم من منبتها المتواضع ، وجدتها المتعجرفة ، المتمسكة بالتقاليد البورجوازية . كانت الجدة راغبة في جعل حفيدتها فتاة أرستقراطية بكل ما في هذه الكلمة من اعتبارات اجتماعية ، ولكن أورور كانت ميالة إلى البساطة في تصرفاتها وسلوكها ، وإلى التحرر من القيود جميعاً سواء في البيت أو في المجتمع . وقد احتدم

Twitter:@abdulllah1994

النزاع بين جدتها وأمها بعد أن مات أبوها عام ١٨٠٨ على أثر سقوطه عن ظهر حصانه، فتيتّمت الصغيرة في سن مبكرة، وبقيت مع أمها تحت سيطرة الجدة، وفي رعايتها. وقبل موت أبيها بقليل مات أخوها الوليد في نوهان أيضاً فانصب اهتمام جدتها وأمها عليها، لاسيما وأن بوادر النباهة كانت قد ظهرت عليها بشكل ملحوظ.

اقتبست أورور عادات جديدة بسبب نشوئها في الريف ومخالطتها أبناءه، وتطبعت بطباع لازمتها طوال حياتها. استمتعت بحرية كبيرة في طفولتها، وعاشرت أبناء الفلاحين فشُغفت بقصصهم وتقاليدهم الشعبية مما جعلها شديدة الولع بنمط حياتهم، وحفزها إلى تصويرها في رواياتها من بعد، والدفاع عن حقوقهم بحماسة، ووصف الريف ومشاهد الطبيعة الساحرة. وكلما كانت تزداد ادراكاً للأمور كانت تزداد حباً لجدتها، واحتراماً لشخصيتها إذ وفرت لها العيش الرغيد، وعلمتها الثقة بالنفس، ودربتها على الطموح، كما نفخت فيها حب الزعامة منذ أن بلغت عامها السادس. كانت جدتها تدعوها: موريس الصغير» وتقول للناس انها ترى في وجهها، وكلامها، وحركاتها ابنها الذي فقدته وكأنه قد بُعث في شخصيتها الصغيرة. ولا ريب في أن هذا الاهتمام الكبير

Twitter:@abdulllah1994

بها ، وما كان يرافقه من تمجيد وتشجيع قد طاب للصغيرة الذكية ، غير أنه لم يُنقص من حبها لأمها ، بل على العكس تماماً ، زادها تعلقاً بها ، وحدباً عليها لأنها أدركت ، بما وُهبت من حسّ عميق ، وملاحظة قوية ، أن أمها ، تلك الأرملة الشابة ، كانت مهزومة أمام جدتها ، ومظلومة.
كان من أبرز صفات تلك الطفلة الناضجة مناصرتها لأمها ، ولكل الضعفاء ، وجرأتها في الدفاع عنهم ، وانتهاجها سلوكاً غير مألوف عند الفتيات الصغيرات ، في البيت وفي المجتمع الريفي ، خليقاً بالصبية. ويقول أندريه موروا ان الظروف التي واكبت نشأة جورج صاند في طفولتها جعلتها كثيرة التحسّر على نفسها لكونها كانت فتاة ، وهذا ما دفعها إلى التمثّل بالرجال وتقليدهم في سلوكها حتى نهاية حياتها !

يوم بلغت أورور عامها الثاني عشر تدهورت العلاقة بين أمها وجدتها في إثر خلافات متعددة كان منها تعارض وجهات نظر المرأتين في توجيه الفتاة الصغيرة ، وفي تعليمها ، وانتهاج الأم مسلكاً اجتماعياً ودينياً لم يرق للجدة الحماة ، التي كانت ترفض استقبال أهل كنتها ، وابنتها من زواجها الأول (كارولين) التي قضت مع أورور السنوات الأولى من طفولتها في باريس. ولما كان الافتراق

Twitter:@abdulllah1994

أفضل حل للمشكلة آثرت الأم مغادرة نوهان بمفردها ، وتنازلت عن ابنتها مؤقتاً ، على الرغم من شدة ولعها بها ، مضحيّةً بعاطفتها من أجل سعادة الصغيرة ، لأن بقاءها في كنف جدتّها يؤمّن لها أفضل فرص التعلم والرخاء ، إلى جانب إرث ذي شأن في المستقبل ، في حين أن الاحتفاظ بها سيحرمها من جميع تلك النعم ، ويضطرها للعيش في منزل متواضع في باريس ، وفي حال من العسر المادي.

بكت أورور يوم رحيل أمها إلى باريس بكاءً مرّاً ، وعانت تمزقاً عاطفياً ترك أثراً بليغاً في نفسها ، غير أنها حظيت بحرية كاملة في حياتها مع الجدة ، واستمتعت بحياة صحية ومسلية في المزرعة الكبيرة ، ونالت حظاً وافراً من التعليم الرصين على يد أساتذة أكفاء ، فأدهشتهم بسرعة التقاط العلوم والفنون ، وبقوّة حافظتها ، وغزارة خيالها ، وتفوقها في العزف على البيانو ، وتعلّم اللغة اللاتينية . وبعد فترة وجيزة استقطبت اعجاب جدتّها ، وسكان المقاطعة بنبوغها المبكر ، وسرعة خاطرها ، وقوّة بدنية جعلتها تغلب الصبية في الألعاب الرياضية . وعندما كان الشوق إلى أمها يفيض بها ويؤرقها كانت جدتّها تصحبها إلى باريس لرؤيتها في زيارات قصيرة لم تكن تشفي غليل الفتاة ، بل كانت تسبب لها نوبات بكاء حادة ، ومجادلات عنيفة

Twitter:@abdulllah1994

معها . والغريب أن الأم هي التي كانت تتدخل لتلطيف الجوّ بين الجدة والحفيدة بأسلوب كان يرضي حماتها وابنتها معاً. وكانت أورور تعود إلى نوهان بعد كل زيارة لأمها وهي تهدهد حلماً جميلاً بالعيش معها ، بعد أن تصبح شابة ، وبمساعدتها في المتجر الذي كانت تنوي فتحه في باريس .

اجتاحت نفس الفتاة موجة من التديّن في حداثتها ظهرت فجأة وهي في الثالثة عشرة من العمر ، وقد شهد جميع الذين عرفوها على حقيقتها من الذين اتصلوا بها في حياتها ، والذين كتبوا عنها ، بأنها كانت قوية الايمان بالله، وناقمة على جدتها التي حرمتها من الدروس الدينية في طفولتها . كانت تلك الصغيرة المعذبة في بحثٍ دائب عن دين تعتنقه ، وقدرة تؤمن بوجودها ، عزّ في محيطها من يرشدها اليها ، فاخترعت إلهاً عبدته في يفاعتها دعته : « كورامبي Corambé » . لقد تخيلته آية في الطيبة ، والحدب ، والرقة ، فأقامت له هيكلاً من الأعشاب والأصداف بنته في مكان خفيّ في المزرعة ، وكانت تلتقط العصافير ، والخنافس ، والحشرات الحيّة وتضعها في الهيكل ، لا لكي تضحّي بها على المذبح، ولكن لتطلق حريتها من جديد ، نزولاً عند أوامره التي

Twitter:@abdulllah1994

كانت تتخيلها ! وهذه ظاهرة مهمة تدل على ولع الفتاة بالحرية ، ورقة قلبها ، وانسانيتها ، وحاجتها ، كأكثر الأطفـــال ، إلى الايمان بقـــدرة عظيمة ورحيمة تطمئن اليها ، وتغذي خيالها بالأمل ، وروحها بالمشاعر النبيلة . استمدت أورور من ذلك الإله الذي اخترعته قوة كبيرة ، والجرأة في مناقشة جدتها بمواضيع عائلية وانسانية قلما كانت تطرقها بنات الثالثة عشرة في عصرها . أخذت تطالبها بايضاحات عن أبويها وعن قصة زواجهما ، وتستنطقها عن الأسباب التي دعتها لاطلاق أحكام جائرة على أمها لأنها كانت ترى أنها ضحية المجتمع ، وأنها أنبل من جميع النبلاء ، وإن كانت من أسرة فقيرة ، ووسط وضيع ! أما الجدة التي أخفقت في اقناعها بأن أمها امرأة غير صالحة لتربيتها فقد ضاقت ذرعاً بتطاولها وتمردها وقررت إدخالها في دير للراهبات في باريس لضبط سلوكها ، وتصحيح أفكارها ، ومتابعة دراستها فيه مع فتيات مهذبـــات . استقبلت أورور قرار جدتها بفرح كبير لرغبتها في الابتعاد عنها وأملها بلقاء أمها والاستمتاع بصحبتها مرة في كل شهر، على الأقل .

كان للاقامة في دير « السيدات البريطانيات » في باريس بضع سنوات أثرها البعيد في الحد من ثورة الفتاة ، وفي

Twitter:@abdulllah1994

تكوين شخصيتها ، فبعد ان كانت تشبه الصبية في تصرفاتها، ومشيتها ، وحديثها ، أضحت فتاة رقيقة ، مهذبة الألفاظ. كما أن قربها من أمها أضفى عليها راحة نفسية انعكست على وجهها الذي أخذت ملامح الجمال والاشراق والهدوء تبدو فيه واضحة ، وتزداد عاماً اثر عام . أما معاشرتها لفتيات من الطبقة البورجوازية فقد كشفت لها سخف تفكيرهن، وتعاظماً غير مستحب مما رسخ في ذهنها الاعتقاد بان الطبقة التي ينتمين اليها ، والتي يصفها الناس بالرقي ، تشكل مجتمعاً ظالماً بتحامله على الطبقتين الوسطى والعاملة . لقد تأذت لاضطرار امها إلى العمل الشاق في المقاهي والمسارح الثانوية لتأمين لقمة العيش والكساء المتواضع ، وعزّ عليها أن تبتعد عنها في أكثر الأحيان ، وحتى في ايام الفرص ، وهذا ما زادها تعلقاً بها، وتقديراً لكفاحها المستمر . ولكن توقها الى من يغدق عليها الحنان وهي في سن المراهقة جعلها تتعلق عاطفياً براهبة كانت تشملها برعاية خاصة لعلمها بأنها كانت تعاني قلقاً نفسانياً ، وفراغاً عاطفياً . كانت أورور فتاة جذابة فأحبتها الراهبات والأساتذة ورفيقات المدرسة ، اتصفت بالكرم ، واحترام الآخرين ، وبانكار الذات من أجل اسعادهم ، وكانت لولب النشاط المدرسي والترفيهي ، الى جانب تفوقها في جميع مواد الدراسة . أتقنت اللغة الانكليزية بسرعة ، واقتبست في ذلك

Twitter:@abdulllah1994

المحيط عادات الانكليز في التحدث بتؤدة ، والأكل بهدوء، ووجدت فيه السعادة فأصبح في نظرها واحة رائعة بالقياس إلى المجتمع الخارجي الذي يدعونه ارستقراطياً . ظهرت بوادر نبوغها في الكتابة وهي في الرابعة عشرة من العمر اذ ألّفت مسرحيات صغيرة مثّلتها مع زميلاتها، وكتبت يومياتها فصورت نفسها فتاة مثيرة للشغب ومتعبة لكثرة ما كانت تتحرك ، وتسأل ، وتحب اللهو ، وخلصت إلى القول بان الاطفال والأحداث التعساء يكونون في الغالب اشقياء في المدارس ، وما ذلك الا لسدّ نقص كبير في حياتهم العاطفية، هو ما يدعوهم إلى الافراط في التحرك ، والمشاغبة!

وهناك ظاهرة غريبة أقلقت جدتها ومدرساتها وهي شعورها بميل مفاجىء إلى نذر نفسها للدير كسائر راهباته . اجتاحت اورور تلك الموجة الجارفة من التديّن والزهد في الخامسة عشرة من عمرها ، فاعترفت لكاهن الدير بما كان يخامرها من أفكار تتنافى مع سلوكها وطباعها ، وكتبت تقول في مذكراتها : (لولا معارضة الكاهن « دي بريمورد — De Prémord » القوية لرغبتي ، وموقفه الحازم ازاء توسلاتي للانضمام إلى سلك الراهبات حيث لا يعلم بعذابي الا الله ، ولا ألقى ثواباً إلا في حبه ، لكنت اليوم ، وأنا في الخمسين من العمر ، إما

Twitter:@abdullah1994

امرأة معتوهة ، أو راهبةً في أحد الأديرة !)[1] وبعد أن نهاها ذلك الكاهن عن التفكير في التصوّف ، وأقنعها بالنجاة بنفسها مما أسماه : « خِضماً من الأوهام تسلطت على عقلها وحواسها ، وكادت تذيبها جسماً وروحاً » ثابت اورور إلى رشدها ، وعادت إلى حياتها الطبيعية المرحة مع اترابها . كان لا بد لها من نذر فكرها وقلبها إلى عشق جديد لأنها روح متأججة لا تستطيع أن تحيا بدون حب ، لهذا شغفت بالموسيقى والشعر . تعلمت العزف على « الهارب » وتفوقت فيه بسرعة ، وأُغرمت بقراءة الشعر ثم انصرفت الى كتابة القصائد . ويوم شعرت بانها سعيدة حقاً في مدرستها تلقت من جدّتها رسالة مستعجلة جاء فيها : (لقد بلغتِ يا أورور السادسة عشرة من العمر ، وينبغي ان أزوّجك قبل موتي لأنه أصبح وشيكاً !)[2] فكان لا بد لها من الرجوع إلى نوهان ، البلدة التي نمّت شاعريتها ، والى المرأة التي غرست فيها حب التفوق ، فعادت الى جدّتها شابةً مثقفة ، حلوة ورشيقة ، مولعة بالحرية ، كبيرة الثقة بنفسها ، مثل امها ، ومستعدة الى مجابهة الحياة ومشكلاتها بشجاعة وبطولة ، لهذا نستطيع أن نقول إن شخصيتها

---

(١) « قصة حياتي » – جورج صاند – الجزء الثالث ، ص ١٨٨ .
(٢) « قصة حياتي » – جورج صاند – الجزء الثالث ، ص : ٢٥٢ .

Twitter:@abdulllah1994

تبلورت منذ أن اجتازت مرحلة اليفاعة،وانها اقبلت على الدنيا ومفاجآتها وهي عازمة على اقتحام الشدائد ، والانتصار ، وتحقيق طموحها في معركة الحياة .

Twitter:@abdulllah1994

زواج غير متكافئ

تحسنت الصلات بين أورور وجدتها منذ رجوعها الى نوهان في ربيع عام ١٨٢٠ . كانت جدتها راغبة في تزويجها بسرعة حتى لا تبقى تحت وصاية أمها بعد موتها ، باعتبار ان امها امرأة « جاهلة » ولكن تحقيق تلك الرغبة لم يكن امراً يسيراً لأن العائق الكبير في العثور على زوج لائق بالفتاة كان سمعة امها السيئة ، ووضاعة منبتها . فعلى الرغم من أن أورور دوبان كانت على جانب كبير من الجمال والجاذبية ،وموهوبة في العزف على البيانو و« الهارب » ومن أسرة وجيهة وغنية لم يتقدم الى خطبتها سوى قائد في الجيش تجاوز الخمسين من العمر ، ورجل من اسرة معروفة يحمل لقب « بارون »ولكنه كان أرملاً وفقيرا ... هذان الخاطبان لم يرضيا طموح الجدة فصرفت النظر عن موضوع زواج حفيدتها مؤقتاً ، مما أثلج صدر الفتاة ، وبدد مخاوفها ، لأن مجرد التفكير باكراهها على الزواج كان يقلقها ، بل ويرعبها .

Twitter:@abdulllah1994

بعد زوال ذلك الكابوس أتيح لأورور أن تقضي أشهراً سعيدة في نوهان سواء في القصر بالقرب من الجدة ، او في الحقول مع اترابها . تابعت دراسة الموسيقى ، وتعلمت اللغة الايطالية وادارة شؤون المزرعة على ايدي اساتذة مهرة ، كما نعمت بصحبة اصدقائها الريفيين ، رفاق الطفولة ، وتعلمت ركوب الخيل وبرعت به فأصبح هوايتها المفضلة. شاءت جدتها ان تعلمها التمريض فكلفت شاباً يدعى « ستيفان» بتدريبها عليه ، وكان من ابناء المنطقة الذين يدرسون الطب في باريس ، ويقضون اجازات الصيف في الريف مع ذويهم . شاب مثقف جميل ، وفتاة حلوة في عمر الورود التقيا في الصيف ، ولازم كل منهما الآخر تقريباً ، فكيف لا يتحابان ؟ أغرم ستيفان بأورور ، وهامت به، ولكن أهله منعوه من خطبتها لترجّلها ، أي لأنها كانت ترتدي أزياء الرجال ، وتركب الخيل ، وتمارس الصيد ، ولأن امها امرأة طائشة . وما أن علمت بان أهله عارضوا مشروع زواج استهواها ، وان الشاب أطاعهم حتى قطعت صلتها به مشفقةً على المترمتين أمثاله ، وأخذت تستهزىء بهم وبتقاليدهم واعرافهم البالية . ازدادت تمرداً على التقاليد والأعراف بعد تلك الحادثة ، وتجلت ثورتها على التخلف والتزمت بعد ذلك في جميع مؤلفاتها تقريباً ، وفي سائر مواقفها في

Twitter:@abdulllah1994

الحياة العامة والخاصة . ان شخصية هذه الكاتبة الثائرة التي ضربت بالتقاليد الموروثة عرض الحائط قد تكوّنت واتسمت بالتحدى والجرأة منذ أن واجهت مجتمعاً جائراً ، متمسكاً باهداب اعراف بالية ، تعتبر الفتيات والنساء مخلوقات حلوة ومسلية كالدمى ، وظيفتها الزينة ، والخدمة ، والطاعة العمياء . ومع الأيام أصبح همّ الكاتبة العمل المتواصل من اجل تحقيق المساواة بين الرجال والنساء ، فكانت تقتحم المسالك الوعرة ، بل تبحث عنها للتعبير عن وجودها ، وتحدي المجتمع ، وهي واثقة من عدالة القضية الانسانية الكبرى ، ألا وهي قضية المساواة بين طبقات المجتمع ، وبين النساء والرجال . لهذا قيل عن جورج صاند انها سبقت كُتّاب عصرها في طرق مواضيع الجنس، ومعالجة مشكلات المجتمع بجرأة وصراحة ، ولهذا ايضا حاربها المجتمع المترمت في حياتها ، وقدّرتها الأجيال اللاحقة . وعندما يتحدث النقاد اليوم عن هذه المرأة الرائدة ، والكاتبة النابغة انما يتحدثون عنها بتقدير واعجاب ، وباحترام ايضا لأنها كانت مخلصة لمبادئها ، تفعل ما تقول ، وتطبّق على ذاتها ما تدعو اليه ، غير عابئة باللوم والتهجم ، رادعها الوحيد ضميرها ، وقناعتها بأنها على حق ، وبأن اصلاح المفاهيم البالية ، والاوضاع الشاذة واجب مقدس.

Twitter:@abdulllah1994

ولا ريب في أن جاذبيتها الشخصية كانت توقع في حبها جميع الذين عرفوها ابتداءً برفاق الطفولة واليفاعة وانتهاء بالمدرسين الذين اشرفوا على ثقافتها، والرجال الذين اتصلوا بها في سائر مراحل حياتها . فالرجل الذي أشرف على تنمية ثقافتها بعد خروجها من الدير ، والذي دربها على ادارة المزرعة قد أُغرم بها مع انه كان في الستين من العمر، ومعتمداً من جدتها لادارة اعمالها . احبها « ديشارتر — Deschartres » كما يحب الأب ابنته الفاتنة ، وامسى كاتم اسرارها ، ومعلمها ، وصديقها الكبير منذ رجوعها إلى نوهان . كان يرى في إهاب تلك الشابة الرائعة ذكاءً خارقاً ، وطموحاً غير مألوف عند الفتيات ، ومواهب متعددة لو وُزّعت على عشر نساء لكانت كل واحدة منهن موهوبة يُشار اليها بالبنان ! كانت في نظره الشمس الباهرة التي اشرقت على نوهان ، وقصرها ، وقلبه ، فنوّرت وعطرت وأدفأت بعد حقبة طويلة من ليل داجن بارد ! وقد بادلته اورور حباً بحب ، واعتبرته عميداً لأسرتها ، وأفضل عضو فيها، ومثالاً رائعاً للانسان المخلص الذي يستميت في خدمة رؤسائه، ويعطي بدون حساب حباً بالاخلاص ، والخدمة ، والعطاء . سهرت معه ليالي بطولها إلى جانب سرير الجدة المحتضرة ، واضطرت لمواساته ، وكفكفت دموعه ساعة اسلمت جدتها

Twitter:@abdulllah1994

الروح يوم عيد الميلاد عام ١٨٢١ . قالت لها جدتها قبل أن تفيض روحها بساعات قلائل : « ستفقدين بموتي يا بنيّتي أفضل صديقة » فلم تدرك ساعتئذ ما عنته الجدة ، ولكن « ديشارتر » أدرك وازداد أسى على سيدته الراحلة ووارثتها الشابة لأن أورور فقدت بموت جدتها حصناً منيعاً كان يصدّ عنها هجمات الطامعين والأشرار .

كانت أم أورور أول من وصل إلى قصر نوهان بعد موت الجدة . أتت من باريس بعد أن بلغها الخبر لتعزي ابنتها وهي سعيدة بزوال المرأة القاسية التي أقصتها عنها ، وحرمتها من العيش الهنيء . ولكن فرحتها لم تطل بل تبددت في لحظات ساعة اجتمع الاقرباء وفتحوا وصية « السيدة دوبان » التي نصتّ على تعيين نسيبها « الكونت دي فيللانوف — Comte de Villaneuve » وصياً على حفيدتها ، فثارت ثورة الأم المنبوذة ، وهدّدت ابنتها ، ووعدت بالانتقام مؤكدةً أنها الوصية الشرعية عليها . بوسعنا أن نتصور حرج أورور ، بنت السابعة عشرة ، التي راق لها أن تقضي بضعة اعوام في رعاية الكونت دي فيللانوف ، قريبها الظريف ، وبصحبة زوجه اللطيفة وابنته التي كانت صبية حلوة ومرحة مثلها . وبعد مشاحنات مزعجة عادت الأم إلى باريس

Twitter:@abdulllah1994

إذ أخفقت جميع محاولاتها في استعطاف ابنتها ، واغرائها في عصيان الوصية ، والبقاء معها . وانتقلت أورور إلى بيت تلك الاسرة حيث قضت أشهراً هادئة ، نعمت فيها بالاستقرار ، والحرية والهناء ، غير أن الأم لم تقبل بالتخلي عن ابنتها لأنها استوعبت انه ينطوي على خسارتين فادحتين : ابنتها اولاً ، ثم الثروة التي ورثتها، فلجأت إلى العنف لانتزاع ابنتها وحق الوصاية عليها ... فوجيء الكونت دي فيللانوف بزيارتها وبصراخها النابي ، واتهاماتها الفاجرة، فلم يجد بداً من تخيير أورور نفسها ، فاختارت اللحاق بأمها خوفاً منها ، ومن غضبها ، لا أكثر ولا أقل . وذات صباح ودّعت اورور الوصي عليها الذي تنازل عن وصايته تحاشياً للفضيحة ، وتبعت امها إلى باريس وهي في أشدّ الحيرة ، والحزن ، والتشاؤم . كان تشاؤمها في محلّه لأنها اصبحت أسيرة لتلك الأم الطائشة ، ولنزواتها الشاذة ، ومطامعها اللامحدودة بالسيطرة عليها وعلى ثروتها . عامان كاملان انقضيا عليها في باريس عبدة لأمها ، وفي صراع يائس للنجاة من ذلك الجحيم الذي أثقل كاهلها ، وكرّهها بالحياة والناس ، فنحل جسمها ، وشحب لونها ، وأضحت شبحاً بائساً يُنذر بالموت. عندئذ تنبّهت الأم الى خطورة حالها فاصطحبتها إلى الريف لقضاء فترة استجمام عند اسرة متواضعة من اصدقائها

Twitter:@abdulllah1994

القـــدامى . رحبت اسرة « دو بليسي – Du Plessis »
المؤلفة من زوجين وخمسة أولاد بأورور كثيراً فانتعشت
بسرعة في الجو الريفيّ الهادىء ، وأصبحت صديقة الجميع
ومحبوبتهم . لقد رُدّت اليها الروح في تلك البيئة الهادئة
فاستعادت صحتها ومرحها في غضون اسبوعين ، وأخذت
ترقب المستقبل بنظرة واقعية . ادركت أن اقامتها مع « ال
بليسي » لن تدوم طويلاً ، وان الزواج اصبح امراً ضرورياً
اذ لم يعد لها أمل في غيره ، لا سيما وان مجرد التفكير بالرجوع
إلى باريس كان يغمرها بالكآبة كلما خطر في بالها . التقت
يومئذ بـ « كـــازيمير دودوفان – Casimir Dudevant » في
أحد المقاهي بينما كانت تتناول المرطبات مـــع مضيفيها ،
فأعجبها لباسه العسكري النظيف ، وحديثه اللبق مع السيد
« دوبليسي » وزوجه واولاده ، كما أُعجب هو بها منذ اول
لقاء . وعندما علم انها ضيفة عليهم أخذ يزورهم يوميـــاً
فتآلف الشابان ، واضحيا صديقين حميمين في فترة وجيزة.
ويوم فاتحها بعزمه على الزواج طالباً موافقتها على طلبه
استجابت بدون تردد لأنها أُعجبت بشخصيته المستقلة، وراقها
أن يطلب يدها منها مباشرة قبل مشاورة أهله وأهلها اذ وجدت
في اسلوبه هذا ما ارضى اعتدادها بنفسها ، وحبها للحرية .
كان كازيمير دودوڤان ولداً غير شرعي للبارون دودوڤان

Twitter:@abdulllah1994

احد وجهاء فرنسا الأغنياء ، غير انه اعترف به دون ان يعترف بأمه زوجاً له اذ كانت خادمة في بيت ابويه ، وبما أن اعتراف ابيه به كان يخوّله حق وراثة الثروة واللقب اعتقدت اورور بانه لم يكن طامعاً بثروتها . وكان لا بد لها من أن تستشير امها فوافقت على زواجها في بادىء الامر ولكن سرعان ما غيّرت رأيها بعد اعلان الخطبة . لقد اتخذت موقفاً سلبياً لا لأن الشاب لم يكن جميلاً فحسب ، بل لأنها وجدته مغامراً ذكياً اقبل على خطبة ابنتها طمعاً بمالها ، لا حباً بها ... اما اورور فقد اتخذت موقفاً حازماً من امها ، وافهمتها بصراحة بان عهد الخضوع لأوامرها قد انقضى ، لا سيما وانها اتمّت عامها الثامن عشر ! وفي العاشر من ايلول عام ١٨٢٢ احتفل العروسان بزواجهما ببساطة ثم توجها إلى نوهان للاقامة فيها بعد ان قررا دفع مرتب شهري للأم الغاضبة . استقبلهما في القصر السيد « فرنسوا ديشارتر — François Deschartres » وكيل أعمال الاسرة بفرح عارم ، واحاطهما برعايته حتى بلغ سن التقاعد . والجدير بالذكر أن اورور اقنعت زوجها بدفع تعويضٍ كبير له ، وبصرف النظر عن التدقيق في حسابات السنوات الماضية ، لأن كازيمير كان قد فاتحها بشكوكه في أمانة ديشارتر ، وعزمه على مقاضاته ...

Twitter:@abdulllah1994

حياتها الزوجية والعاطفية

« الزواج شيء جميل في عيون العشاق ، وضروري في رأي القديسين ، انه الهدف الأسمى للحب ، وعندما يزول الحب او لا يكون أصلاً ، يتحول رباط الزوجية إلى تضحية أو الى يأس ... » بهذه العبارات وصفت جورج صاند الزواج في كتابها «قصة حياتي» وفيه قالت أيضاً : « لم تكن لي أم تدلعني في طفولتي ، ولا أخت تكفكف دموعي في حياتي ... ظننت ان زوجي قادر على اسعادي ، واغداق كل العطف الذي كنت متعطشة اليه ، واذا به رجل أناني ، لا يفكر الا بنفسه وهواياته ... كنت فتاة غريرة ، أحب الحياة ، وأبحث عن السعادة في الزواج ، وكان كازيمير يتثاءب اذا ما حدثته عن قراءاتي ، ويتململ اذا ما اسمعته عزفي على البيانو او الهارب ، لأن المطالعة في رأيه سخف ، والموسيقى ضوضاء ! » (١) .

(١) قصة حياتي – جورج صاند – الجزء الرابع – ص : ١٣ و ١٤ .

Twitter:@abdulllah1994

لا يصعب على الباحث عن سيرة جورج صاند تتبع مراحل حياتها ، وتطور شخصيتها ، والأحداث التي عاشتها لأنها دوّنت لنا كل كبيرة وصغيرة سواء في سيرتها الذاتية، أو في مراسلاتها التي نشرها ابنها بعد وفاتها ، أو في كتابها « شتاء في مايورقه » الذي تضمن تفاصيل عشرتها للموسيقي الكبير « شوبان – Chopin » ، يضاف إلى ما تقدم كتاب « أندري موروا» عنها وهو من أنفس كتب السيرة وأكملها لطلاوة اسلوبه ، واستناده إلى وثائق مخطوطة أنفق موروا بضع سنوات في البحث عنها وتبويبها . نستخلص من كل ما تقدم ذكره انها قضت العام الأول من حياتها الزوجية في نوهان وهي تتوهم أنها سعيدة،وتعلل نفسها بالآمال، فحملت ووضعت ابنها البكر الذي أطلقت عليه اسم « موريس » إحياءً لذكرى أبيها ، ومن ثم أدركت ان بينها وبين كازيمير هوة كبيرة كانت تكبر عاماً اثرعام جعلت حياتهما الزوجية رباطاً مضنياً، ومأساة لكلا الطرفين . رضيت أورور بكازيمير في بادىء الأمر ظناً منها انه الرفيق الأمثل ، والرجل الناضج القـــادر على ادارة ممتلكاتها بتجرد ومهارة ، فاحتملت بصبر طباعه الخشنة ، ومزاحه الفظ ، وانشغاله عنها بالصيد واللهو المقذع مع رفاقه القدامى والعاملات في البيت وفي المزرعة ، ولكنها ثارت عليه ، بعد ان صحت من حلمها

Twitter:@abdulllah1994

الجميل على واقع مفجع من جميع النواحي . كان انفراده في ادارة الأعمال ، ويقينه بأنه أصبح السيد المطلق للأملاك مثيراً لكرامتها ، وكان تحكّمه بمزاجها ، وفرض رغباته عليها دون مراعاة لمشاعرها مثيراً لغضبها ، وكان لهوه الرخيص ، ونهمه اللامحدود ، وعلاقته مع خادمة ابنها مثيراً لاشمئزازها ، ولكن أكثر ما أحزنها ودفعها إلى الخروج على التقاليد ، ومحاربة السنن المألوفة في المجتمع الفرنسي ظلم المرأة المكرس بالقوانين التي تجيز للزوج التصرف بمال زوجه على هواه . حتى أشجار المزرعة وحديقة القصر لم تخل من عبثه اذ اقتلع بعضها ، دون استشارتها ، وقلّم بعضها الآخر ، فأحست بانه اقتلع احلام طفولتها ، وقلّم ضلوعها ! فساءت صحتها ، وانهارت اعصابها نتيجة التألم لما كان يجري حولها ، والمكابرة ، ولجأت مع طفلها الجميل إلى الدير الذي تربّت فيه حيث قضت بضعة أسابيع املاً بالعثور على حلٍّ لمشكلاتها ، ولكنها رجعت الى نوهان بخيبة أمل كبيرة ، لا تقبض إلا على الريح . فلا راهبات الدير ساعدنها على حل معضلتها ، ولا أمها كانت متفرغة لمواساتها، لهذا كتبت الى إحدى رفيقات المدرسة تقول : « ليس الزواج ممتعاً الا قبل الزواج يا صديقتي » ، وهي قانعة بأنها وحدها القادرة على أخذ الثأر لنفسها من زوجها ،

Twitter:@abdulllah1994

ومجتمعها ، وقوانين بلادها الجائرة . أخذت أورور ثأرها من زوجها بالامتناع عن معاشرته ، لا كرها فيه لكن كرها لأسلوبه في ممارسة الحب معها بخشونة وهمجية ، كما قالت في مذكراتها ، وأخذت ثأرها من المجتمع بالخروج على أعرافه التي كانت تهين النساء ، وتحدّ من انطلاق مواهبهن باسم اللياقات والتقاليد المتوارثة التي فرضها الرجال، وكرّستها الكنيسة . وفي نهاية المطاف أقامت دعوى على زوجها في المحاكم بغية الانفصال عنه واسترداد حريتها وحرية التصرف بمالها بعد انقضاء ثلاثة عشر عاماً على زواجها فربحتها !

عندما تفتحت مداركها بدأت جورج صاند تبحث عن « الروح الشقيقة » فلم يكن العثور عليها أمراً عسيراً لأن جميع الذين تعرفوا اليها اذ ذاك هاموا بها ، غير انها لم تحب أحداً قبل لقائها بشاب يدعى « أوريليان دو سيز — Aurelien de Séze » في مدينة « بوردو » . التقت به وبخطيبته عند اصدقاء في تلك المدينة فهجر الخطيبة اذ وقع أسير عينيها الساحريتين ، وجاذبيتها القوية ، وأعجب أشد الاعجاب بذكائها ، وثقافتها ، وطموحها . وصفت لنا جورج صاند قصة حبها الأول الغريبة في كتاب دعته: « رواية أورور دودوفان وأوريليان دوسيز » وصفاً صريحاً، مسهباً، وعمدت

Twitter:@abdulllah1994

الى جعل تلك الصلة الغرامية بينها وبين اوريليان صلة روحية فحسب إذ فرضت عليه الاكتفاء بصحبة بريئة ، ومراسلات عاطفية استمرت ثلاثة اعوام من غير ان يتمّ خلالها أي وصال بينهما . ويبدو انها وجدت في الحرمان لذة كبيرة ، لم يكن الهدف منه تعذيب الحبيب انما كان هدفه تجربة الحب العذري ، والاستمتاع به كوسيلة تساعدها على نسيان مأساتها ، بل وحتى وجودها . والأغرب من كل هذا انها أطلعت زوجها على تفاصيل علاقتها بذلك الشاب ، وأقنعته بأنه صديق عزيز لا أكثر ولا أقل ، تسعدها صحبته من حين إلى آخر ، وتسعدها أكثر رسائله التي أضحت زاداً فكرياً وروحياً لا يمكن الاستغناء عنه . وقد اطمأن كازيمير إلى ذلك الوضع ، فكان يقرأ رسائل الحبيبين ، ويحمل رسائل زوجه إلى اوريليان ابان رحلاته إلى « بوردو » . وفي عام ١٨٢٧ انطفأت شعلة ذلك الحب الافلاطوني لتتأجج شعلة اول حب عنيف في حياتها بمثول تلميذ الطب الذي علمها التمريض في نوهان بعد خروجها من المدرسة ، وأغرم بها : « ستيفان دى غرانسان — Stéphane de Grandsagne » . صحيح أن أهله رفضوا قبولها كنة لهم ، ولكن الشاب الذي تخرج من كلية الطب بتفوق ، واحتل مكانة علمية كبيرة في باريس ، لم ينس المرأة التي خفق

Twitter:@abdulllah1994

قلبه لها قبل أعوام ، فقد رجع إلى مقاطعة « البيري » لقضاء عطلة قصيرة فيها وزيارة أورور . كان زوجها غائباً يومذاك فأدرك الشابان في لحظات انهما في شوق عارم للحديث معاً، والتنزه معاً ، والاستسلام للهوى القديم الكامن في قلبيهما. قضيا بضعة أيام لا يفترقان فيها ليل نهار ، وعندما رجع كازيمير إلى نوهان ، رجع ستيفان أيضاً إلى باريس ، فتمارضت أورور ، وتوجهت بمفردها إلى باريس لكي تتعالج ، لا باشراف الأطباء ، إنما على يدي عشيقهاستيفان! أما العودة إلى نوهان بعد شهر قضاه الحبيبان السعيدان بعيداً عن هموم الحياة اليومية فقد كانت بداية تصدع العلاقة الزوجية لأن اورور اتخذت غرفة نوم خاصة بها ، مدّعية ان عوارض حملها الجديد تفرض عليها الوحدة ، ولا سيما في الليل . أحس كازيمير انها افلتت من يده ، وان وراء زياراتها المتكررة لباريس سراً كان يقصيها عنه شهراً بعد شهر ، ولكنه آثر القبول بالأمر الواقع ، والحفاظ على صداقتها التي تضمن له عيشاً رغداً في قصرها، وتبقيه السيد المطلق في نوهان ! ويوم وضعت بنتاً في ١٣ ايلول عام ١٨٢٨ اختارت لها اسم « صولانج ـ Solange » كان قد مضى على لقائها الاول بستيفان تسعة اشهر وبضعة ايام مما دعا المقربين منها إلى الظن بان المولودة هي بنت

Twitter:@abdulllah1994

العشيق الجديد ، لا بنت كازيمير . ليس عسيراً على أحد ان يتخيل ما قاساه كازيمير دودوفان في حياته الزوجية من نزوات زوجه وشذوذها وتمردها . كان رجلاً طيباً للغاية، مولعاً بولديه ، ولا ريب في أن ضعف شخصيته ، وكسله الفطري ، وحبه للعيش المترف كانت العوامل التي جعلته يخضع لأورور ذات الشخصية المدمرة ، والارادة الحديدية! التباين الكبير بين الشخصيتين جعل التعايش بينهما مستحيلاً ، وحول حياتهما المشتركة الى بؤس وجحيم ، فلا كازيمير كان الرجل الذي يستطيع فرض محبته واحترامه على أورور ،ولا أورور كانت المرأة التي بوسعها الاقتناع به كشريك عمر ، والانسجام معه . كانت امرأة جبارة ، مندفعة وراء اهوائها وقد زاد إخفاقها في الزواج من حدة ثورتها على المجتمع والانظمة التي تستهين بالمرأة ، وتلحق بها الظلم اجتماعياً واقتصادياً . شيء آخر تجدر الاشارة اليه وهو انها حاولت أن تسدّ الثغرات بينها وبين كازيمير فاقترحت عليه أن يعقد معها ميثاقاً مؤلفاً من عدة بنود لحثّه على المطالعة ، وترغيبه في اجراء مناقشات حولها ، واعتماد الصراحة التامة في العلاقة الزوجية أملاً في تقارب الامزجة ، والتفاهم على تسيير دفة الحياة العائلية وادارة الممتلكات . كما تضمن الميثاق ان يتعهد كلا الزوجين بتجنب الغضب ، والكف

Twitter:@abdulllah1994

عن استعمال الالفاظ المؤذية في الحوار سواء أكان يدور حول الماضي أم يستعرض الحاضر والمستقبل . وقد تجاوب كازيمير مع اورور ، وقَبِل الالتزام ببنود الميثاق المذكور لأنه كان يشعر بالندم على سوء معاملتها واهمالها ، ويأسف لتخلفه عنها ثقافياً وفنياً ... كانت رغبته مخلصة في التقرب منها لذا عمل بجد على رأب الهوة القائمة بينه وبينها ولكنه ادرك عمقها في أعقاب تلك التجربة القاسية فاصيب بخيبة امل كبيرة ، واستبد به اليأس ،ولم يجد ما ينسيه مأساته سوى الخمرة ، والقمار ، والمجون ...

اما أورور فقد وجدت في الكتابة العزاء والسلوى فأخذت تدون خواطرها ومذكراتها ، وتضاعف الاتصال بسكان المنطقة المجاورة لنوهان فاتسعت حلقة اصدقائها ، وكثر عدد المعجبين بها والمعادين على حد سواء ، وهي بعد في الثالثة والعشرين من العمر ... عندما نشرت مذكراتها الاولى وخواطرها يومذاك ، واجهت رديّ فعل متناقضين ، فبينما حبذها النقاد ووجدوا فيها عمقاً في التفكير ، وسلاسة في الاسلوب ، وافكاراً جديدة جريئة تستحق الاطراء ، قابلها القراء المحافظون بالمعارضة والاشمئزاز ، وحكموا على صاحبتها بالشذوذ والخروج على التقاليد المألوفة والاستهتار .

Twitter:@abdulllah1994

كانت ترى ان الخيانة الزوجية ليست خطيئة مميتة ، وان اجدر شيء بالتفكير هو البحث عن الصلات التي ينبغي ان توجد بين روح الانسان كفرد مستقل عن الجماعة،والروح الكلّية التي هي الله .

ويوم بلغ ابنها موريس عامه السادس احضرت له معلماً ليقيم في نوهان مع الاسرة ويتولى تدريسه ، ويشرف على تربيته ، وهذا ما رفع عن كاهلها واجباً لم يكن في وسعها القيام به . لقد اضفى وجود المعلم الشاب في قصر نوهان جوّاً مؤنساً خفّف من حدة التوتر في الاسرة ، وما لبث المعلم ان وقع في حب سيدة القصر الاديبة الشابة اذ سحرته بشخصيتها الفذة ، وجاذبيتها التي لا تقاوم ، ولكن اورور وضعته في مكانه بلباقة بعد ان صارحته قائلة ان افضل رابطة ينبغي ان تقوم بينها وبينه هي المودة فقط ، والتعاون المخلص على تربية الطفل ضمن حدود الاحترام المتبادل . من المؤكد ان وجود المعلم في نوهان حرّر اورور من اعباء كثيرة ، ومكنها من تكريس اوقات طويلة للكتابة والقراءة ، واللقاءات السياسية مع وجهاء المنطقة ، وركوب الخيل ، والقيام برحلات إلى باريس للاتصال بدور النشر وكتّاب العصر . فكلما كانت تشعر بالسأم في الريف ، او بالارهاق من الكتابة

Twitter:@abdullah1994

كانت تذهب إلى باريس للتزوّد بافكار جديدة ، وبمعطيات العاصمة الفنية . كانت تقيم في شقة صغيرة يملكها أخوها من ابيها « هيبولت » ، وتراسل زوجها باستمرار لتطلعه على نشاطاتها، وكثيراً ما كانت تطلب منه أن يحوّل لها بعض المال لسدّ نفقاتها الضرورية ، فعلى الرغم من انها ورثت مالاً كثيراً كانت غنية بالاسم فقط اذ لم تكن تملك حرية التصرف بشيء من مالها الا بإذن منه .

وفي صيف عام ١٨٣٠ التقت اورور بشاب صغير في منزل محافـــظ بلدة « لا شاتر — La Châtre » الواقعة بالقرب من نوهـــان . كان « جول ساندو Jules Sandeau » في التاسعة عشرة من العمر ، حادّ الذكاء ، قوي الشخصية، وكانت «تفوح منه رائحة باريس» على حدّ تعبيرها لأنه كان يدرس فيها الحقوق . اعترفت في يومياتها بأنها قاومت ذلك الحب طوال ثلاثة اسابيع قبل ان تستسلم للحبيب الذي أغرم بجمالها الغجري ، وافكارها الثورية الملائمة لأفكاره وآرائه . وهكذا هبت عاصفة الحب بين أورور وجول في نوهان، وذاعت أخبارها في المناطق المجاورة في الوقت الذي اجتاح التيار الرومنطيقي الأوساط الفكرية في باريس . لقد كان توق الأديبة العاشقة لأجواء الفكر والفن في العاصمة بالغاً ، فكتبت

Twitter:@abdulllah1994

في مذكرتها تقول إنها كانت مستعدة للسير مقدار عشرة اميال على الأقدام لمجرد رؤية « بالزاك » عن كثب ، وانها تقدّر « هوغو » وتقدسه ، انما تتهيّب الدنوّ من هؤلاء العمالقة . وهذا ما يدلّ على اهتمامها بالأدب ورجاله في اول نشأتها ، والتوق الى التقرب منهم ، ولكن أنى لها أن تعرف يومذاك أنها ستصبح صنواً لهؤلاء العمالقة ، وصديقة حميمة للعديدين منهم ! فالرسائل التي كانت تبعث بها لأصدقائها ولزوجها في تلك الفترة تعتبر تحفة أدبية عمد إلى جمعها ونشرها ابنها موريس بعد وفاتها بستة أعوام بعنوان : « مراسلات جورج صاند» ومن ثمّ جمع مراسلاتها الباقية العديدة وأعدها للنشر فطُبعت في ستة أجزاء ، صدر آخرها عام ١٨٩٤ . في اواخر عام ١٨٣٠ حطمت الكاتبة الجريئة جميع القيود فكانت في سلوكها الحرّ ، وتحدّيها للمجتمع اول ممثل للثورة الفكرية في فرنسا آنذاك ، واول امرأة في فرنسا طبقت النظريات الفلسفية والاجتماعية الحديثة التي أطاحت بأسوار العصر الكلاسيكي . لم يعد الفرد في رأي الرومنطيقيين ومطلقي الثورة الفكرية في فرنسا يومئذ مسؤولاً عن طائفة اجتماعية ودينية ، وجزأً لا يتجزّأ منها، حسب مفاهيم القرن السابع عشر ، بل أصبح الأصل والغاية في حدّ ذاته ، وموضوعاً أساسياً للتأملات الجمالية . وهذا

Twitter:@abdulllah1994

ما استهوى الشباب في فرنسا قبل منتصف القرن التاسع عشر، وحدا بجورج صاند ان تقول معبّرة عن افكارها في احدى رسائلها : (الاشاعات في بلدة « لا شاتر » تسير على قدم وساق ، فالذين يحبونني يقولون انني أعشق « جول ساندو » ، أما الذين لا يحبونني فيقولون انني أعشق كلاً من « ساندو » و « فلوري – Fleury » في حين ان الذين يكرهونني يقولون ان لي أربعة عشاق في آن معاً ، ولكنهم لا يخيفونني ، ألا ترى معي يا صديقي ان هذا ليس بكثير على امرأة متأججة المشاعر والأهواء مثلي ؟ لكم أُشفق عليهم ، هؤلاء الأغبياء الثرثارون ! أسعدت مساء ، وأصبحت على خير[١] . » ولقد صوّر المؤرخ الكبير « برتراند راسل Russel Bertrand » نشوء الرومنطيقية في فرنسا أجمل تصوير في كتابه : « تاريخ الفلسفة الغربية – History of Western Philosophy » فقال : (إن النمور أجمل من الخراف ، ولكن العصر الكلاسيكي سجنها في الأقفاص ، اما الرومنطيقيون فقد حطموا قضبان الأقفاص وأخذوا يستمتعون برؤية وثبة النمر الرائعة التي سحق فيها الخراف جميعاً !) .

---

(١) ليليا أو حياة جورج صاند – أندري موروا – ص : – ١١٧ – .

Twitter:@abdullah1994

ما كادت اورور دودوفان تنعم بحريتها الجديدة حتى واجهت صدمة نفسية لم تكن بالحسبان أدّت إلى اصرارها على الانفصال عن زوجها ، وطلب الطلاق منه ، وأثارت حولها ضجة كبيرة . من الأفضل أن نقرأ وصفها لما حدث في رسالة بعثت بها الى صديق عزيز عليها : « جول بوكوار ان– Jules Boucoiran » في ٣ / ١٢ / ١٨٣٠ ، جاء فيها :

(انك أعلم الناس بخفايا حياتي الزوجية وأدراهم باني احتملها. لقد أدهشك اصراري على رفع رأسي غداة كل مرة كانوا يحاولون تحطيمه ... ولكن لكل شيء حدوده ... لقد وجدت في مكتبة زوجي ، وبطريق المصادفة ، مغلفاً كبيراً قرأت فيه ما يلي : « لا يُفتح إلاّ بعد وفاتي » . فكيف لا يثير فضولي ما دام موجهاً الي بالذات ، واسمي مكتوباً عليه باحرف عريضة؟ لم يكن في استطاعتي انتظار يوم ترمّلي ، لاسيما وان زوجي شاب يتمتع بصحة جيدة ، وانني المعنية وحدي بتلك الاوراق الخطيرة ، لذا عزمت على قراءة وصيته باعصاب باردة. ويا لها من وصية، يا الهي ! شتائم! لا شيء فيها غير الشتائم وغير اللعنات ! لقد جمع فيها رصيد نقمته علي ، وغيظه مني ، وجميع مشاعر الاحتقار والكراهية لطباعي ، وما أسماه « فسقي » ، وقدم لي هذه الهدية كآخر تعبير عن عطفه وحنانه ! ظننت انني احلم في بادىء الامر ، ثم ايقظتني هذه القراءة من الشرود

Twitter:@abdulllah1994

فقلت لنفسي ان الحياة مع رجل لا يحمل لي اي اعتبار ، ولا يثق بي ، شيء محال ، واتخذت قراراً حاسماً لن يثنيني شيء عن تنفيذه بعد الآن .)

وفي اليوم ذاته اعلمت اورور زوجها بانها راحلة إلى باريس بدون ولديها ، ومستعدة للعودة إلى نوهان من وقت إلى آخر لتفقدهما ، شرط ان يدفع لها مرتباً شهرياً أو سنوياً تتدبر به أمرها . وقد قبل كازيمير (الذي عقدت لسانه المفاجأة) بالشرط اذ ادرك أنها جادة باصرارها على الانفصال عنه وبعزمها على الرحيل ، فهي ابنة موريس دوبان : أي شبيهته بعنادها ، وارادتها الصلبة ! وهكذا انتهت العلاقة بين هذه المرأة وبين زوجها فغادرت نوهان في الرابع من كانون الثاني عام ١٨٣١ مكسورة القلب ، مطعونة في كرامتها ، وفارغة الجيب الا من بعض المال الذي تكرم به عليها زوج خشن الطباع ، غليظ المعشر ، استولى على ثروتها بمجرد قرانه بها ، وأمسى السيد المطلق الذي يتحكم بكل شيء حسب هواه ، ويتصدق عليها هي صاحبة الثروة ، وأم ولديه ، بمرتب ضئيل لتسد حاجاتها الضرورية به . وفي الطريق إلى باريس استعرضت الكاتبة الثائرة شريط حياتها الزوجية المحزنة فتأثرت لما تذكرت بكاء ولديها موريس

Twitter:@abdulllah1994

وصولانج وهما يودعانها ، واجهشت بالبكاء عندما ايقنت انها كانت تفضل العيش معهما ومع زوج تحبه ويحبها كسائر النساء البسيطات ، وتؤثر الانشغال بالطهي والخياطة وخدمة المزرعة على الحرية التي انتزعتها بقلب ممزق ، والثورة التي قامت بها وحدها على القوانين الجائرة ، والمجتمع لمتخلف المستبد .

---

(١) مراسلات – جورج صاند – الجزء الأول – ص ١٣٠ و ١٣١ .

Twitter:@abdulllah1994

ولادة الكاتبة "جورج صاند" في باريس

وصلت « أورور دوبان » إلى عاصمة الفكر والنور وهي تحمل في جعبتها أول رواية كتبتها فأقامت في شقة أخيها « هيبوليت » الواقعة في : (٣١ ، شارع السين) ولازمت الفراش مدة يومين اذ كانت تعاني نوعاً من الانهيار العصبي ، وزكاماً شديداً اصابها نتيجة البرد الذي لفحها في الطريق إلى باريس . لملمت قواها في اليوم الثالث ونفضت عنها آثار السأم والمرض وهي لا تني تردد لنفسها هذه العبارات : « يجب أن أنهض وأن أشفى ! ما أعذب الشعور بالحرية وبجمال الحياة ! ينبغي ان ينسيني الهموم والأحزان ، ومزعجات الأهل والدين والوشايات ! » (١) ونهضت أورور من الفراش فالتقت بصاحبها « جول صاندو » مجدداً ، وفي غضون أسبوع أمست صديقة رفاقه الشباب ، وانسجمت مع

---

(١) قصة حياتي – جورج صاند – الجزء الرابع – ص : ١٠٢ .

Twitter:@abdulllah1994

جوّ باريس المفعم بالصخب والتوتّر حيث يولد كل جديد ومثير فكرياً وفنياً وسياسياً بدون انقطاع . لقد جرفها تيار الخلق والابداع بسرعة فتألقت مواهبها وأصبحت حاضرة في كل مكان: في المسارح،وفي دور النشر وفي ندوات الكتاب.

كان محظوراً على النساء يومئذ الجلوس في قاعات المسارح الباريسية بجوار الرجال ، وقد خُصصت لهن أماكن إما في البلكون أو في اللوج ؛ وكانت الممثلة الكبيرة « ماري دورفال – Marie Dorval » تقدم مسرحية « أنطوني – Antony » من تـأليف « ألكساندر دوماس – Alexandre Dumas » فانتحلت « أورور » زيّ الرجال لتتمكن من الجلوس معهم في قاعة المسرح ، وظهرت لأول مرة في باريس وهي ترتدي بنطلوناً رمادياً ، وسترة رجالية بذات اللون ، وقميصاً أبيض وربطة عنق كبيرة ، وقبعة وجزمة فحسبها الناس لأول وهلة طالباً جامعياً أنيقاً ولكن سرعان ما اكتشفوا هويتها فاشتهرت منذ ذلك اليوم بالظهور في المجتمع بهذا الزي الذي لم تسبقها امرأة إلى ارتدائه ... كانت متشوقة لولوج المجتمع الباريسي من بابه العريض ، وقد وجدت في لباس الرجال فائدتين اولاهما توفير ثمن الأزياء النسوية ، والثاني توافر فرص التحرر والانطلاق .

Twitter:@abdulllah1994

اتصلت بأمها وببعض زميلات الدراسة وبمعلماتها وحتى بالراهبات اللواتي تتلمذت عليهن فصدمها فتورهن ازاء سلوكها، ووجدت أن بوناً شاسعاً أصبح يفصلها عنهن جميعاً ، فكتبت تقول في كتابها « قصة حياتي » : « لكم أؤثر التنزّه وحدي في صحراء الرجال ، ورأسي مرفوع ، تملؤه الاحلام ، والأحزان، والالوان والاشكال، والاشعاعات ،وحتي الاشباح، ومعدتي خاوية في أكثر الاحيان.» عندما عرضت كتابهاالأول على ناقد كبير يدعى : « دي كيراتري — De Kératry » نصحها بالعودة إلى بيتها وانجاب الاطفال فاجابته تقول : (والافضل لك أن تنصرف عن الكتابة يا سيدي ، وان تحتفظ بهذه النصيحة لنفسك !) لانها كانت تعلم انه نشر رواية فاشلة قبل بضعة شهور ... ومن ثم اجتمعت بالناشر والناقد: هـــنري دي لاتوش — Henri de Latouche » الذي كان معلماً للكاتب الكبير « بالزاك » ، وقرأت عليه مخطوطة روايتها الاولى التي اختارت لها عنوان « ايمي — Aimée » فنصحها باعادة كتابتها ، ولم يُخفِ عنها انه وجد فيها نفحات أدبية تنبىء بموهبة كبيرة . لقد أعجبه أسلوبها فعرض عليها ان تكتب بعض المقالات لجريدته الجديدة : لو فيغارو — Le Figaro » التي اتسمت منــذ تأسيسها بمعارضة الحكم ، وبالنقد اللاذع للحكام . كان « هنري دي

Twitter:@abdulllah1994

لا توش » جمهورياً ثائراً فتدربت الكاتبة الناشئة على يديه خلال بضعة اسابيع قبل أن تتقن فن تحرير المقالة القصيرة الساخرة . ومما يذكر في هذا المجال ان اول مقالة سياسية نشرتها جورج صاند في جريدة « لوفيغارو » في الخامس من شهر آذار عام ١٨٣١ أثارت ضجة كبيرة في الأوساط الأدبية ، وان المعارضين للحكومة استحسنوها كثيراً ، ولكن مدير البوليس اعتبرها طعناً به مباشراً ، فأصدر أمراً بحجز أعداد الجريدة ، وبتوقيفها عن الصدور . ابتهجت جورج كثيراً بالدويّ الذي احدثته مقالتها ، وباتت ترقب ملاحقتها شخصياً ، فكتبت رسالة إلى صديق لها في بلدة « لاشاتر » اعربت له فيها عن تمنيها بأن تُدان لأن في ادانتها تكريساً لشهرتها ، ولأن الشهرة باب الحظ ، ومفتاح الثروة! ولكم كانت محتاجة إلى المال يومئذ لأن المرتب الذي طلبته من زوجها لم يكن كافياً لإطعامها وسدّ نفقاتها الضرورية ، ولأنها اصبحت مضطرة لاستئجار شقة خاصة بها لكثرة تردد أخيها هيبوليت على باريس. انتظرت صدور الأمر بتوقيفها بدون جدوى غير ان أمنيتها بذيوع شهرتها قد تحققت ، فازدادت يقيناً بانها خُلقت لتصبح كاتبة كبيرة ، ولتتخذ الكتابة

---

(١) قصة حياتي – جورج صاند – الجزء الرابع – ص : ١٠٢ .

Twitter:@abdulllah1994

صناعة ، وتلمع في ميدانها الرحب . لقد توضح هدفها في الحياة منذ ذلك اليوم فكتبت تقول : (انني أكتب بسرعة وسهولة ، وأستطيع ان اجلس على طاولة الكتابة الساعات الطوال دون ان أشعر بالتعب . يكفي أن امسك بالقلم لكي تنشط أفكاري المكدسة في دماغي ، وهذا ما يجعلني ميالة لكي أنذر حياتي لصنعة الأدب التي أهواها . ولا شك عندي في ان الادب نوع من أنواع العشق،لا يمكن للانسان النجاة منه إذا ما استحوذ عليه!)[1] ومنذ ذلك التاريخ أخذت توقع كتاباتها بالاسم المستعار الذي اختارته لنفسها : « جورج صاند » مبتدعة اسم « جورج » ومضيفة اليه كنية « صاند » التي انتحلتها من كنية عشيقها الاول « صاندو » . ولا بد من الاشارة إلى ان وراء هذا الاختيار سببين وجيهين كان الأول استياء أمها وحتى حماتها « أم كازيمير » منها لأنها احترفت الكتابة ، والثاني لانها وجدت في انتحال اسم رجل انتصاراً أكيداً في عالم الفكر والأدب الذي كان يستهين بنبوغ النساء . يضاف إلى ما تقدم انها وجدت في التوقيع باسم رجل تخلصاً ، ولو وهمياً ، من عبودية المرأة لانها كانت تنفر من استكانة النساء لعبوديتهن ، أشد النفور ،

---

(١) مراسلات – جورج صاند – الجزء الرابع – ص : ١٦٥ .

Twitter:@abdulllah1994

وتتمنى الهروب من الانتماء الى جنسهن ... والأغرب من هذا كله انها كانت تُلغي صيغة المؤنث في الرسائل التي كانت توجهها إلى معاصريها ، وكأنها رجل يخاطب أنداداً له ....

قضت جورج صاند عام ١٨٣١ بين باريس ونوهان وهي مستغرقة في كتابة روايتها الاولى « انديانا — Indiana » . كانت تحن إلى مسقط رأسها واولادها فتقضي معهم بضعة اسابيع بين حين وآخر ، وتخاطب زوجها وتراسله كأنه صديق عادي ، ومن ثم تعود إلى باريس حيث استأجرت شقة جميلة في الحي اللاتيني (— ٢٥ — رصيف سان ميشيل— (25, Quai Saint Michel) واخذت تستقبل فيها شخصيات مرموقة امثال « بالزاك » و « لا توش » و « ماري دورفال » و « غوستاف بلانش » ناقد « مجلة العالمين — La Révue des deux Mondes » ومديرها « بولوز — Buloz » والناقــد «سانت بوف — Sainte Beuve » والشاعر « ألفرد دى موسيه ». وعندما نشرت روايتها الأولى « أنديانا — Indiana » في ربيع عام ١٨٣٣ تناولتها الصحف والمجلات الباريسية بالنقد والتحليل ، وأطراها كبار كتاب العصر . كتب عنها«بالزاك» يقول : (ان هذا الكتاب انعكاس للحقيقة ، وللعصر الذي نعيشه ، ولمأساة الانسان ، ولم اطلع بعد على أثر كُتب بمثل

Twitter:@abdullah1994

هذه البساطة ، وهذه العذوبة . الأحداث تتابـــع فيه بلا تكلف كما تجرى في الحياة اليومية حيث تتشابك الأمور ، وتتوالى الملابسات والمآسي الشبيهة بتلك التي صورها لنا شكسبير . انه كتاب ناجح بفضل اسلوبه ومضمونه) . وشهد لها الناقد « غوستاف بلانش » بالتفوق على الأديبة « مدام دى ستال — Mme de Staël » وتنبأ لها بعطاء أدبي ممتـــاز ، كما انه قام بزيارتها وطلب منها الإسهام في تحرير « مجلة العالمين » فتعاقدت مع مديرها « بولوز » على كتابة مقال أسبوعي مطول لقاء أربعة الآف فرنك فرنسي سنوياً ، وقد دفع لها ناشر « أنديانا » سلفة مقدارها ألف وخمسمئة فرنك لقاء تسليمه رواية جديدة كانت تعدّها بعنوان : « فالنتين — Valentine » وهكذا وجدت جورج صاند نفسها كاتبة مشهورة ، وامرأة ميسورة مادياً بين ليلة وضحاها .

Twitter:@abdulllah1994

"أندِيَانَـا" و"ڤالنتـين" و"ليـليَا"

لم يكن الرواج الذي لاقته باكورة روايات جورج صاند مديناً لصداقاتها مع كبار معاصريها ، انما كان خليقاً بموهبتها الأصيلة ، وثقافتها المتينة ، وبراعتها في الوصف والتحليل.

قدمتها بنفسها للقراء فقالت : (إذا شئت أن تفسر مضمون « أنديانا » تجد أن بطلة هذه الرواية نموذج للمرأة ، ذلك المخلوق الضعيف الذي تتمثل فيه جميع الأهواء ولكنها تظل مختزنة في أعماق نفسه وسجينة لأن القوانين حظّرت عليه البوح بها ، وحكمت بخنقها ... «أنديانا» هي الحب الجامح الذي يصطدم بجميع العقبات التي وضعتها في طريقه المدنية ....)

كانت تقصد بـ « المدنية » الأعراف السائدة في بلادها التي تفرض على المرأة السكوت ، ولا تعيرها أي اهتمام ، ولكن جورج صاند كانت شابة ثائرة ترفض الاستكانة

(١) أنديانا – جورج صاند – ص : ٧ .

Twitter:@abdulllah1994

بـسكوت ، ولا ترتضي الهوان لا لنفسها ولا لغيرها من
نساء ، بل تعتقد ان واجبها يدعوها للتحدث بلسانهن ،
الدفاع عن حقهن في الحياة الحرة الكريمة . يضاف الى هذا
تراكم الصدمات في حياتها منذ طفولتها ، وعنفوان فطري
كان يدفعها إلى المجاهرة برأيها فوجدت في كتابة الروايات
تنفيساً عن كربها ، وسبيلاً لبلوغ الهدف الذي كانت ترنو
ليه. وجد النقاد في « أنديانا » تصويراً صادقاً لحياة الكاتبة
ومشاعرها ، مع ان البحث فيها عن هوية كازيمير مثلاً أو
جول صاندو بين شخصياتها لا يجدى فتيلاً ، ذلك ان براعة
مؤلفة تكمن في تصوير تجاربها وفي تقديم شخصيات واقعية
بعيدة الشبه بالمقربين اليها . لقد رمت إلى اكثر من التصوير
ذ عالجت واقعاً اجتماعياً ظالماً فجعلت من معارضة المرأة
داعية الجريئة لنظام غاشم عتيق ، ومن الفارق بين المرأة
التي تبحث عن عاطفة مطلقة ، وبين الرجل الذي يبحث عن
إرضاء شهواته ، ويعيش في غرور مطبق ، الموضوع الأساسي
لروايتها . وقد ختمتها بارجاع أنديانا إلى مراتع طفولتها في
الريف بعد إعلان ثورتها والدفاع عن شرعية تمردها : إلى
أحضان الطبيعة ، إلى شاطيء الأمان بصحبة ابن عمٍّ لها
أتى من انكلترا بشكل مفاجيء ومصطنع في آخر الرواية ...

Twitter:@abdulllah1994

أما «فالنتين» ، بطلة الرواية الثانية ، فقد أخفقت هي أيضاً في اقترانها برجل خامل ، وأحبّت ابن مزارع يدعى «بينيديكت Benedict » . تمتاز هذه الرواية بوصف منطقة «البيري Le Berry » حيث قضت المؤلفة اربعة وعشرين عاماً من حياتها وصفاً شاعرياً ساحراً ، وبالتغلب على الاغتراب النفسي والفكري بالعودة إلى الجذور . وقد استحسنها القراء اذ وجدوا فيها شاعرية شفافة ولمحت روح النثر بدون استئذان، ولكنهم انقسموا في الرأي فكانوا بين محبذٍ لموضوعهاالاجتماعي الداعي إلى انصهار طبقات المجتمع ، ورافضٍ له بدافع الأثرة للحفاظ على مكاسب النظام الطبقي .

انقطعت جورج صاند عن الكتابة في المجلة بعد نشر « فالنتين » لانصرافها كلياً إلى التأليف ، فكانت تعمل في ساعات الليل ، وتقول انها تضغط على زر خفيّ في رأسها فتتدفق الأفكار ، وتلتحم الموضوعات ، وان اوقات العمل في البيت بالقرب من الموقدة والبيانو هي أسعد أوقات عمرها. لقد تذمّرت يومئذ من صديقها صاندو فأقصته عنها وأهملته دفاعاً عن حريتها ، ولكنها لم تهمل اصدقاءها الفنانين والكتاب، وتوثقت صلتها بالممثلة ماري دورفال فكان لها أثر بعيد في حياتها وإنتاجها . وصفتها في كتابها « قضايا الفن والأدب»

Twitter:@abdulllah1994

تقول : (اذا شاء أحد معرفة سبب سيطرتها عليّ ينبغي أن يعرف كم نحن مختلفان في التكوين .... لقد منحها الله القدرة على التعبير اما أنا فلا أدري كيف أصف فتور حماستي للكلام ... أظن ان نوعاً من الشلل في الدماغ يمنعني من التعبير عن أفكاري ومشاعري في الحياة اليومية ، خلافاً لما يحدث معي عندما أمسك بالقلم ، إنها امرأة خارقة سبرت أغوار كل شيء دون ان تتعلم شيئاً ... هل تعلمون ماذا أتخيّل عندما أراها على خشبة المسرح بخصرها الملتوي الأهيف ومشيتها اللامبالية ، ونظرتها الحزينة النافذة ؟ يبدو لي انني أرى نفسي !) معروف ان الأديب الشاعر « ألفرد دى فيني Alfred de Vigny » كان مغرمـاً بمـاري دورفال ، وملازماً لها ، فلم ترق له صداقة جورج صاند لخليلته ، ولكنه أعطانا لوحة للأديبة الثائرة اذ وصفها في كتابة « يوميات شاعر» بقوله: (انها تبدو في الخامسة والعشرين من العمر، وتشبه في مظهرها شخصية «جوديث– Judith » المشهورة في المتحف. شعرٌ أسود مجعّد ومنسدل على قبة سترتها انسدال شعور الملائكة في لوحات « رافائيل » . عينان سوداوان كبيرتان كعيون الصوفيين والايطاليين الجميلة . وجهها قاس وقليل الحركة ، وفمها ليس جذاباً . انها تشبه الرجل في هيئتها وحديثها ، ونبرة صوتها ، والجسارة في كلامها !) .

Twitter:@abdulllah1994

وأما روايتها « ليليا » التي كتبتها عام ١٨٣٣ ، وهي في التاسعة والعشرين من العمر فانها من أفضل رواياتها . قرأت فصولها على سانت بوف الذي كان في أوج عظمته كناقد وموجّه، فأعجب بها لعدة اسباب أهمها ان الكاتبة رفعت جميع الأقنعة عن وجهها وشخصيتها لتقدم أثراً رائعاً وصادقاً ، باسلوب جزل ، وعفوية آسرة . لقد صورت فيها خيبات أملها في الحب ، وباحت بعجزهـا عن بلوغ اللذة ممارسته فأنكرت وجود الحب المتكامل روحياً وجسدياً بسبب برودها الغريزي الذي يشبه برود الرخام . ان « ليليا » هي جورج صاند على حقيقتها ، ولا سيما في طبعتها الأولى لأن المؤلفة ندمت على تعرية نفسها فيما بعد فأجرت تعديلات على قصتها المأساة . اسم بطل الرواية « ستينيو — Sténio » وهو شاعر شُغف بها ، وأخفق في محاولاته المتتالية للسيطرة على حواسها ، فحكم عليها بالنقص في التكوين ، وجرّدها من الأنوثة ، ولم يعد يرى فيها سوى ظلٍ لامرأة يعشقها ، وحلمٍ يغري بالتحقيق ، وفكرة لم تنضج بعد ! ونقرأ في الرواية أحاديث شجيّة جرت بين ليليا ونجيّها ، أو المؤتمن على اسرارها « ترينمور — Trenmor » الذي كان ينصحها بالعدول عن إلقاء « انفاسها المثلجة » على حبيبها ... كانت ليليا في صراع مستديم مع نفسها : وعاشت فريسة آلام مبرحة نتيجة توقها

Twitter:@abdulllah1994

إلى تذوّق الحب مع الحبيب حتى الثمالة ، وعجزها عن تحقيق تلك الرغبة ، ولقد دفعها عجزها لأن تقول له ذات يوم : (لكم يسرني قربك يا « ستينيو » ولكم احب ملاطفتك ، والعناية بك ، والنظر اليك كما لو كنت ابناً لي ...) في هذه العبارة الاخيرة يكمن سر جورج صاند في علاقاتها الغرامية بدون شك لأن موضوع « الامومة العاشقة » هو ما سيطر على روايتها المثيرة «ليليا» ، وهو ما كان يشكل العقدة الاساسية في حياتها العاطفية . هذا لا يعني انها كانت تريد ان تغدق على عشاقها عاطفة الامومة دون غيرها ولكن اخفاقها في نيل مثل ما كانت تعطي في الحب هو ما حفزها الى البحث عن تعويض آخر فيه فوجدته في إحاطة الذين احبتهم بكثير من الحدب والحنو للاحتفاظ بهم وللشعور بلذة العطاء . وعلى هذا نقول إن إخفاقها في المشاركة كان وراء شقائها ، والواقع الذي جعلها ترتضي التضحية وإنكار الذات في سبيل إسعاد الذين أحبتهم. واذا تابعنا اعترافاتها الصريحة الجريئة في مذكراتها وروايتها الاولى نقف على لبّ الحقيقة ، ونرى ان جورج صاند عزت قصورها عن مشاركة الحبيب في احاسيسه إلى استغراقها الدراسات الجدية ، والى العمل المتواصل في الكتابة ، فحسبت ان طبيعة عملها الفكري أدّت إلى إضعاف شهوتها وهي في ريعان الصبا ... يؤيد هذا التحليل « اندريه موروا » في ترجمته

Twitter:@abdulllah1994

لحياتها اذ يقول : (كان دون جوان ينتقل في مغامراته من امرأة إلى اخرى بحثاً عن السعادة ، ولكنه لم يحصل عليها ، وكانت « ليليا » أي جورج صاند ، تذهب من رجل إلى آخر بحثاً عن اللذة ، ولكنها لم تحصل عليها ، وما روايتها « ليليا » سوى الدليل على ان الضياء أشع في ذهن المؤلفة وهي تجاور الثلاثين من عمرها فجعلها تحلل ذاتها بذلك الوضوح في الرؤية ، وتلك الصراحة !) .

في العاشر من شهر آذار عام ١٨٣٣ تسلمت جورج صاند رسالة من الناقد الكبير « سانت بوف » جاء فيها : (**لا أريد يا سيدتي أن أتأخر في الإعراب لك عن رأيي في « ليليا » التي زادت من اعجابي الكبير بك ، ورسّخت في نفسي مشاعر الصداقة لك . ان جمهور القراء الذي يتطلب رواية اعتيادية لقراءتها لن يتحمّس لها كثيراً ، ولكنه سيصنفك عالياً في عداد الذين يرون في الرواية تعبيراً حياً للأفكار الانسانية الأزلية . ان ما يدهشني فوق كل شيء كونك امرأة دون الثلاثين سبرت أغوار اللجج ، وبرعت في علم النفس ومعرفة الطبيعة الانسانية فعبرت عنها برشاقة ، وجزالـــة**

---

(١) ليليا أو حياة جورج صاند – أندريه موروا – ص : ١٦٨ .

Twitter:@abdulllah1994

ورصانة . سيري يا سيدي فأنت مخلوق نادر وقويّ ..!)[1] .

ولا بدّ هنا من تسجيل رأي الشاعر الرومنطيقي الكبير « ألفرد دى موسيه Alfred de Musset » في رواية ليليا . التقت به المؤلفة لأول مرة في عشاء كبير أقامته ادارة « مجلة العالمين » قبل ان تنشر « ليليا » بقليل فأعجب بها كثيراً ووصفها في احدى رسائله قائلاً انها تشبه الأندلسيات ببشرتها السمراء وعينيها الغامضتين الساحرتين ، وانها تمثل عبقرية الرجل في إهاب المرأة . توطدت أواصر الصداقة بينهما بسرعة ولكن جورج كانت متحفظة مع ذلك الشاب الوسيم المتهتك ، الذي يشبه « بايرون » بمظهره المتأنق ، ومغامراته العاطفية الماجنة. تفاهما في بدء علاقتهما على التعامل كزميلين صديقين فقبل دى موسيه جذلاً ، واصبح يتردد عليها فتستقبله بفرح وارتياح ، وتجد في نبوغه وشاعريته الفذة ، والحديث معه والمزاح متعة كبيرة . وعندما اطلعته على بعض ملازم « ليليا » كتب اليها رسالة رائعة جاء فيها : (ان في صفحات روايتك جمالاً ينفذ إلى القلب بسرعة، قولي لي يا جورج مَنْ أملى عليك تلك الصفحات المحرقة التي يبحث فيها الحب ، بيد مرتعشة ،

---

(١) رسائل عامة – سانت بوف – جمعها جان بونرو
الجزء (١) ص ٣٤٧ .

Twitter:@abdullah1994

عن شبح أحلامه المعبودة ؟ هلا اختبرت بقلبك ذلك الالم؟ بل هلا أوجعتك مشاعره الغامضة ، وتلك الملذات المحفوفة بالشقاء ، المليئةبالمفارقات ؟ قولي هل حلمت بها يا جورج ؛ أو أنك تذكرتها بعد اختبارها ؟ [1] .

ثم صرح لها بولعه فيها وبأنه يرضى منها بحب معنوي ، وصحبةٍ فكرية يحلم بالاستمتاع بها معها في رحلة طويلة عبر القارة الأوربية .ترددت جورج صاند في قبول الدعوة إلى السفر معه لعدة اسباب ، من اهمها كون ألفريد دى موسيه شاعراً شاباً لمع نجمه بسرعة في الوسط الأدبي فاستغل شهرته وجماله لتحقيق مآربه ، واشتهر بلسانه السليط وتهكم لاذع قلّ ان نجا منه أحد من زملائه...كما خشيت التقرب الزائد منه اذ سمعته يروي علاقاته مع النساء ويحكم عليهن جميعاً بالجهل ، والوضاعة ، والغباء في الحب .كان كبرياؤها يأبى عليها معاشرة رجل متعجرف يصرّح بانه يحب جميع النساء، ويحتقرهن جميعاً ، فصرّحت له يوماً بأنها عاجزة عن إقامة علاقة عاطفية مع أي رجل ان لم يكن الحب الصحيح رائدها ، وانها لا تسمح لنفسها بالتودّد إلى رجلين في آن واحد ، ولا

(١) رسائل جورج صاند وألفريد دى موسيه ، تحقيق – فيليكس ديكوري – ص ٩ و ١٠ ، بروكسيل ١٩٠٤ – منشورات « دومان » .

Twitter:@abdullah1994

تسمح لأحد ان يستولي على مشاعرها لدرجة تمنعها من التفرغ للكتابة ! أصغى اليها دى موسيه بكثير من الانتباه ، وخرج من عندها يومذاك مأخوذاً بها ، ومصمماً على إيقاعها في في حبه ... في الثالث والعشرين من شهــر تموز عام ١٨٣٣ حمل البريد اليها رسالة منه أذهلتها ، وأثّرت فيها أعمق التأثير : (عزيزتي جورج ، ما سأقوله لك فيه من الحماقة، ومما يثير السخرية الشيء الكثير ... سوف تهزأين بي ، وتظنين أنني أبتكر الجمل الطريفة كذباً وخداعاً فتطردينني . اني أحبك ! عشقتك منذ الساعة التي عرفتك فيها ، وحسبت أن الاكتفاء بصداقتك سيشفيني ، غير ان الثمن الذي ادفعه لقاء الأوقات التي أقضيها بصحبتك كبير جداً . ربما تقولين لنفسك الآن « هاك رجلاً آخر سيزعجني » كما تقولين عادة... كما انني أعرف رأيك فيّ ، ولا أبتغي شيئاً من وراء هذا البوح الذي سيفقدني صديقة .. الحقيقة انني أتألم ، وأفتقر إلى القوة للاحتمال ...) [1] صمتت جورج ولم تجبه ، فكتب اليها ثانية يقول : **(... أحبي يا جورج الذين يعرفون كيف يحبون ... أنا لا أعرف سوى المكابدة ... وداعاً يا جورج ، أحبك كالطفل الذي يعاني عشقاً فوق طاقته ...)** [2] .

---

(١) و (٢) « رسائل جورج صاند وألفريد دي موسيه – ص : ١٢ – ١٤ .

Twitter:@abdulllah1994

تُـرى هل علم موسيه انه اصاب نقطة ضعفها بقوله: « أحبك كمـــا يحب الطفـــل؟» حملت الرسالة بيديها المرتعشتين ونهضت تسير في الغرفة وهي تضمـّها إلى صدرها، وتقول لنفسها: « ما هذا الذي قاله يا الهي! هل يدرك مدى تأثري به؟ » وبعد ايام التقيا فبكى بين يديها كالاطفال بكاءً رقّت له فاستسلمت.

Twitter:@abdulllah1994

عاشقا البندقية : جورج صاند وألفريد دي موسيه

كانت جورج صاند متحفظة في علاقتها مع الشاعر الفريد دي موسيه وقد اكد « اندري موروا » خوفها من التورط معه لفرط تهتكه لأنها لم تكن تلك المرأة المتهتكة ، الفاسقة ، التي تبحث عن الرجال لاغوائهم ، على الرغم مما كُتب عنهـــا ، وحيك من اساطير حولها في عصرها ، وبعد موتها . كانت امرأة خارقة ، وُهبت النبوغ وقوة الشخصية ، وعاشت وحدها في « صحراء الرجال » على حد قولها وقد اخفقت في الزواج ، واخفقت في الحب مرتين قبل ان تلتقي بالفريد دى موسيه . فعندما أنهت علاقتها مع « جول صاندو» وصفت خيبة أملها لكاتم اسرارها « سانت بوف » وأخبرته بانها حسمت القصة مع « جول » حسماً جذرياً كما يفعل الرجال لاستيائها من خموله وكسله ، وإخفاقها في حثه على العمل والكتابة . لقد رعته فكرياً وصحياً ولكنهااستغنت عنه بعدما أصبح عالة عليها ، ورفيقاً ثقيل الظل يحدّ من حريتها.

Twitter:@abdulllah1994

داهمها عشق « ألفريد دى موسيه » في الوقت الملائم فتمنّعت قليلاً ولكن الإغراء كان أعنف من المقاومة . وفي نزهة عاطفيـــة رائعة قـــام بها العاشقان في ضاحية « فونتينبلو — Fontainebleau » بالقرب من باريس اقترح عليها الشاعر السفر معه إلى ايطاليا للتعرف إلى ينابيع الفن ، والغرف من مناهل الإبداع فراقت لها فكرة السفر مع الحبيب الجديد اذ كانت في حاجة إلى الراحة والابتعاد عن الناس ، وفي شوق إلى الحب الذي كان يضطرم أواره في قلبها الظامىء. ذهبت إلى نوهان لرؤية ولديها قبل الرحيل ، ونقلت ابنها موريس الى مدرسة في باريس ، كما انها لم تتحرّج من إعلام زوجها « كازيمير » بعزمها على السفر مع صديق شاعر ، والغريب انه شجعها على القيام بالرحلة مؤكداً انها ستنتفع بها ثقافياً وصحياً ... ولكن الأغرب من ذلك هو إقدامها على زيارة أم الحبيب « السيدة دى موسيه » فقد طلبت مقابلتها واخبرتها بأنهما اختارا ايطاليا ؛ ومدينة البندقية بالذات للاقامة فيها معاً بضعة اسابيع اذ كثيراً ما تغنى ابنها « ألفرد » بمعالمها دون معرفتها عن كثب ، وكثيراً ما حلمت بزيارتها للتعرف إلى آثارها وطبيعتها الساحرة ! ولم تنس جورج ان تعد السيدة موسيه بإحاطة ابنها بالحنان ؛ والسهر على راحته كما تفعل الامهات لرعاية ابنائهن ؛ فحصلت على موافقتها ومباركتها !!!

Twitter:@abdulllah1994

منذ الساعة التي أبحر فيها العاشقان من مرسيليا في أواخر عام ١٨٣٣ حتى تاريخ وصولهما إلى مدينة البندقية ، بعد التوقف في كل من جينوا وفلورانس ، كان التنافر يغلب الوفاق ! ثقة جورج صاند بنفسها ، وحبّ السيطرة الذي كان جزءاً من طبيعتها ، وإصرارها على الانفراد في غرفتها ساعات طويلة كل يوم تقريباً للتفرغ إلى الكتابة ، عوامل متعددة أثارت غضب الشاعر الرومنطيقي الضعيف بالقياس اليها، وأطاحت بأحلامه العذبة ! عندما أصابه الدوار في البحر بالغت بالتعاظم عليه ، هي القوية التي كانت تتجوّل في السفينة تأكل وتشرب وتدخن ، في حين كان طريح الفراش يعاني من مزعجات الدوار ... تذكّر أيامه الأولى معها في باريس يوم كانت تضحك كالأطفال ، وتبتكر وسائل التسلية ، وتعامله معاملة الند للندّ ، فعجب لهذا التغيّر ، وتألم لانهيار آماله جميعاً . قال « غوتي » إن بداية كل شيء جميلة ، وهذا كلام صحيح ينطبق أكثر ما ينطبق على الحب ، فالحب رخص العود، هشّ، معرض للنكسات ما لم تُكرّس له العناية التامة من كلا الطرفين باستمرار. وقد قال أندري موروا في سياق حديثه عن صاند ودى موسيه إن المرأة التي تكون سيدة نفسها مثل جورج ، وسيدة المواقف في الحياة اليومية تشغل بال عاشقيها وتفقدهم الصبر

Twitter:@abdulllah1994

وتثير سخطهم . فقد ساء الشاعر المتغطرس تحكّم صاحبته به ، وجرح كرامته استهتارها واستهزاؤها يوماً بعد يوم ، فما ان وصلا إلى فندق « دانييلي » في البندقية ، واستقرا في غرفتين مجاورتين ، حتى بدأ يغيظها بصراحة جارحة كقوله لها مثلاً : إنها امرأة باردة ، بدون احساس ، وعاجزة عن إرضاء الرجال ، وإنها تعامله كأنه فتى أرعن وقاصر . سكتت جورج في بادىء الأمر ولكنها ما لبثت ان أعلنت سخطها عليه وعزمها على قطع الصلة به يوم دخل إلى غرفتها وقال لها : (استميحك عذراً يا جورج لأنني أخطأت ساعة ظننت أنني أحبك ! ..)

فكّرت بالرحيل بسرعة ولكنها عدلت عنه اذ لم يكن يليق بها التخلي عن هذا الطفل (حسب زعمها) وحيداً في بلد غريب ، وبدون مال ! فغضّت الطرف عن تحركاته الليلية، وأوصدت باب غرفتها دونه ، ولم تكن تكلمه الا نادراً . هذا لا يمنع انها كانت تراقبه وتعلم من مشيته لدى رجوعه مع طلوع الفجر إلى غرفته انه كان يقضي الليالي في حانات البندقية ويبالغ بالإسراف على نفسه، ولكنها تذرّعت بالصبر اذ لم يعد لها أي سلطان عليه . كابدت جورج صاند مرارة الخيبة والانتظار في تلك الايام النكداء وظلت تذكرها طوال حياتها ، فأنى لها أن تنسى غربتها

Twitter:@abdulllah1994

ووحدتها في ليالي البندقية الزاهرة حيث كان الحبيب يعربد على هواه ، وكانت هي تعجز عن الاستغراق في النوم يؤرّقها الهجر ، وسائر الاصوات الليلية في مدينة يهدهد جدران بيوتها تلاطم الأمواج ، وأصوات مجاديف الزوارق ، وغناء المتنزهين ، والسكارى ؟

كانت على اتصال مستمر بزوجها واولادها واصدقائها في باريس ، وأرسلت لمجلة العالمين بضع مقالات عن فن النهضة في ايطاليا ، كما وعدت ناشرها « بولوز » بارسال فصول روايتها الجديدة تباعاً في الربيع . وقد وجدت العزاء ذات يوم في رسالة تسلمتها منه يعلمها فيها بان الناقد الكبير « غوستاف بلانش » ردّ في الصحف على المنافقين الذين هاجموا روايتها « ليليا » قائلاً : **(سوف تجد النساء في « ليليا » التعبير الصادق عن مشاعرهن وأمانيهن وآلامهن . سوف تدهشهن جرأة الكاتبة في بوحها ، وربما تحمرّ وجوه بعضهن خجلاً لكونها كشفت أسرارهن ، ولكنهن سيتأثرن حتى الدموع عندما يواجهن واقعهن العاجز ويفكرن بذكرياتهن الموجعة . سوف يجدن في هذه الرواية مديحاً لهن ، ودعوة إنسانية حارّة لانصافهن وتحريرهن من العبودية والظلم)** [1] .

---

(١) ليليا أو حياة جورج صاند – أندري موروا – ص ١٨٩ .

Twitter:@abdulllah1994

تقول جورج صاند في مذكراتها إنها تشاءمت من هذه الرحلة منذ ان بلغت البندقية مع موسيه ليلاً إذ خُيّل اليها ان القارب الذي أقلّهما الى الفندق نعش أسود ... ربما كان سبب تشاؤمها حدس أو هاتف خفيّ انبثق من الوعي الباطن ، فالمهم أن رحلتهما كانت مأساة حقيقية لكليهما من الناحية العاطفية ، وانها كانت ، في الوقت ذاته، ينبوعاً ثرّاً غرفا منه خبرة كبيرة وإلهاما ظهرت آثاره في أعمالهما الأدبية الممتازة . يكفي ان نذكر الرسائل الرائعة التي تبادلاها بعد تلك الرحلة الغريبة ، ومسرحية ألفريد دى موسيه « لا مزاح في الحب » وقصائده الجميلة المستوحاة من حبه لجورج صاند،إلى جانب صفحات خالدة من كتابه « اعترافات فتى العصر » ومن كتابها « رسائل مسافر » . ولا بد من الاشارة إلى ان القطيعة التي حدثت بينهما في ايطاليا لم تكن خاتمة العلاقة بين هذين الأديبين المشهورين كما سنرى في سياق هذه السيرة . أما الحادثة التي أدت إلى انفصالهما وقتئذ فقد جرت في أوائل السنة ، يوم صحت جورج صاند من نومها مع بزوغ الفجر على أنينه وصراخه .نهضت مذعورة وفتحت الباب المؤدي إلى غرفته لتشاهد وتسمع ما أخافها كثيراً : كان ألفرد دامي الوجه ، ممزق الثياب ،

Twitter:@abdulllah1994

حنقاً يصبح كالمجنون الخارج من معركة وحشية ، ويتلفظ بكلام بذيء فأدركت جورج انه خارج لتوّه من شجار عنيف جرى في إحدى الحانات بينه وبين المعربدين او المقامرين والسكارى أمثاله ! استدعت في الحال الدكتور بييـــترو باجيللو — Pietro Pagello » ، الطبيب الذي أشرف على معالجتها من قبـــل ، فضمّد جروحه ، وحقنه بالمهدئات كي ينام . ويوماً بعد يوم توطدت أواصر الصداقة بين جورج والدكتور باجيللو اذ كثيراً ما كان يضطر يسهر معها على المريض لشدة ما ساءت حالته الصحية والنفسية. كان يهذي في صحوه ، ويهذي في نومه المتقطع ، كما كانت تنتابه نوبات عصبية حادة ، أشبه ما تكون بعوارض الجنون. وقد عُرف عن دى موسيه الازدواج في الشخصية اذ وصفته ممثلـــة « لويز ألان ديسبيرو — Louise Allan-Despéreaux » التي اصبحت خليلته بعد جورج صاند بستة عشر عامـــاً فقالت : (إنـــه مخلوق عذب ، خيـــالي وعاطفي ، ولكنه سرعـــان ما يتحوّل إلى معتوه يحطّم كل شيء ويعـــذب خلانه ، ويدّعي انه يرى اشباحاً . إنه إنسانان متناقضان في واحد !) كما انه وصف نفسه ونوبات الهذيان التي كانت تصيبه في كتابه « الليالي » ، وعلى هذا نرى ان جورج لم تكن تبالغ بما كتبته في مذكراتها ، وما روته في رسائلها.

Twitter:@abdulllah1994

برّت جورج صاند بوعدها لأم الشاعر دى موسيه فأحاطته بعناية بالغة مدة مرضه في البندقية ، ومن ثم في فترة النقاهة ، ووجدت في الطبيب الايطالي خير رفيق ومواسٍ في تلك الفترة المحزنة من حياتها بعد أن انهار أملهـــا في بلوغ الكمـــال في الحب . وكان ملحوظاً لديها ولدى « باجيللو » ارتياب الشاعر بعلاقتهما ، مع انه كان شديد الحرص على وجودهما معه في الغرفة ،وسريع النزق اذا ما اتفق وغابا عنه في ساعات النهار ، حيث كان « باجيللو » يهتم بمرضاه ، وجورج تخرج لتأمين الدواء والطعام ، أو تنفرد في غرفتها للكتابة . أحسّ بأنه أذنب مع الحبيبة ، وأهانها ، وأنها أفلتت منه ، وخشي ان تكون قد مالت لذلك الايطالي الهادىء ، البدين . حاول استيضاح الأمر منها ذات مرة فأبت الخوض في الموضوع قائلة له ان الذي كان بينهما قد انتهى ، وانه لا يحق له التدخل في شؤونها الخاصة غير انها حريصة على سلامته ، ومسؤولة عن شفائه.

ويوم أصبح قادراً على السفر شيّعته إلى البلدة التي استقل منها القطار إلى باريس ، وقبلته بحنان وعادت إلى البندقية لترتاح بعد كل ذلك العناء ، وتكمل روايتها الجديدة !

وقد بقيت في البندقية خمسة أشهر في عزلة تامة عن الناس والمشكلات ، تكتب ، وتتنزه ، وتراسل زوجها وأولادها

Twitter:@abdulllah1994

وبعض الكتاب الأصدقاء ، ولا تستقبل إلا صديقها الجديد الدكتور باجيللو . أما ألفرد دى موسيه فما ان وصل الى باريس حتى اشتعلت في صدره نار الغيرة ، وما الغيرة سوى ثورة الكبرياء ، وحب الفضول الجامح في مثل حاله... عبثاً حاول جذبها إلى شاطئه ، واسترضاءها من جديد في رسائله المتلاحقة ! كانت تعتقد ان علاقتهما « دُفنت في ضريح مهيب يتصدر حديقة الحب » ومع ذلك أجابت على بعض رسائله برقّة مؤكدة ان ما يتوهّم بأنه حب يحمله اليها ليس سوى صداقة عميقة ، وان الذنب فيما جرى بينهما هو ذنب طبيعتيهما المتناقضتين ، ومزاجيهما العنيفين ، وان عايه العناية بصحته ، والعزوف عن الانغماس بالملذات ، ظاناً انها الدواء الناجع لشفائه من السأم والكآبة ...

ان من يسبر أغوار شخصية جورج صاند يرى بوضوح انها امرأة غير عادية ، ذات وجوه متعددة ، لا تعرف أنصاف الحلـــول ولا ترتضيها ، عنيفة في عاطفتها وفي كبريائها ، وذات قلب كبير يفيض بالحنان والرحمة والكرم. وان من يتبصر بانحرافاتها العاطفية يرى فيها شذوذاً يستهجنه، غير انه في الواقع تعبير طبيعي لعبقريتها . ولا يهمنا الخوض في مغامراتها العاطفية في هذه السيرة ، والحكم على سلوكها من خلال تلك المعاناة العاطفية التي أشقتها أكثر مما أسعدتها،

Twitter:@abdulllah1994

بقدر ما يهمنا التعرف على شخصية الأديبة الفذة التي طبّقت شهرتها الآفاق. وبما ان أعمالها الفكرية جميعاً كانت وثيقة الاتصال بأحداث حياتها في سائر مراحلها ، ومستمدةً من تجاربها فلا بد إذن من تبيان تلك الأحداث ، ومحاولة تحليلها . فعندمـــا عزمت عـــلى الرجوع إلى باريس فكرت في دعوة الدكتور بييـــترو باجيللو لاصطحابهـــا للتعبير عن وفائهـــا لحسن صنيعه اليها والى دي موسيه ، ولإتاحة الفرصة اليه كي يتعرف على باريس والوسط الطبي فيها ، فدعته باصرار . استجاب الطبيب المعجب بالأديبة لدعوتها مسروراً،وكتب الى أبيه رسالة يطمئنه فيها عن عزمه على الرجوع إلى الوطن والزواج بعد إنهاء كل علاقة مع « السيدة صاند » كما كان يدعوها الايطاليون . وقـــد برّ باجيللو بوعده بعد ان قضى ثلاثة أشهر في فرنسا ضيفاً عليهامعززاً مكرماً في باريس ونوهان ، فتزوّج في البندقية، ورُزق العديد من الأولاد ، ثم مات عن واحدٍ وتسعين عاماً وهو يذكر صداقته للأديبة الفرنسية العظيمة ، ومودّتها له ، وفضلها عليه بفخر واعتزاز، ويحمد الله في سره الذي جعله ينعم بصحبتها لفترة قصيرة ، وجنّبه الاحتراق بشعلة حبها الخطيرة . . .

Twitter:@abdulllah1994

صداقات جديدة ودعوى التفريق

كانت جورج صاند تلقي بأيديها في التهلكة وهي تحسب ان في الهجوم على النار الراحة والسعادة ... انحرفت عن الطريق في شرخ الشباب وتعمّدت تحدي المجتمع والقيم وهي واثقة ان في الانحراف والتحدي الصواب، كل الصواب... نشرت في تلك الآونة مجموعة رسائل في كتاب بعنوان: «رسائل مسافر» خاطبت فيها نفسها عبر مخاطبة كائن مجهول بغية الدفاع عن سلوكها ، وتبرير مغامراتها العاطفية فكتبت تقول في احداها : **(... أنت تعلم ما اذا كانت تتفاعل في ذاتي رغبات خسيسة ، أو ميول للرذيلة . أنت تعلم جيداً أن كبريائي ينزهني عن كل صغارة، وان قلبي بريء من كل إثم ، وانه يردعني عن المعاصي ، وعن الإقدام على أي عمل أخجل منه ! كان حرياً بهذا الكبرياء أن يدفعني نحو قدر بطولي رائع لو لم أكن امرأة وُلِدَت في الأغلال ... أردت أن أتمثل بالرجال فعاداني الرجال والنساء ،**

Twitter:@abdulllah1994

وتحطمتُ كما يتحطم طفل هزيل من وقع لكلمات آثمة ...)[1].

نجد في هذا المقطع من « رسائل مسافر » وصفاً لا مغالاة فيه لغضب المجتمع وتهجمه عليها بعد رجوعها من البندقية إلى وطنها . لقد ساءها كثيراً ان يلوّث الخصوم سمعتها ، وأن تتضاءل في أعين بعض الاشخاص أمثال الناقد « سانت بوف » والناشر « بولوز » والموسيقار «فرانس ليست» وولديها موريس وصولانج اللذين كانا : (ثروتها الحقيقة) على حدّ تعبيرها . رأت ان البعد عن نوهان في تلك الفترة العصيبة من حياتها أفضل فقضت الصيف في باريس حيث سلمت لناشر أعمالها روايتها الجديدة : « جاك – Jaques » وتلقت رسالة من ألفرد دى موسيه لم تكن تتوقعها . كانت رسالة العاشق المقهور وثيقة براءة لها ، وشهادة دفاع عنها أدخلت على قلبها الطمأنينة فقرأتها على أصدقائها الخلّص ، وحفظتها بين اوراقها الخاصة وعن ظهر قلبها اذ تضمنت هذه العبارات : (لا عليكِ يا جورج لأنني سأكتب قصتنا وأنصفك ! سوف أبني لك هيكلاً بعظامي لأنك صنعت من طفل غرّير رجلاً ، فكوني

---

(١) رسائل مسافر – جورج صاند – ص : ١١٢ .

Twitter:@abdulllah1994

فخورة يا صديقتي الكبيرة ويا سيدتي الباسلة[1] !) فكيف لا يهزها مثل هذا الكلام النابع من وجدان الشاعر ، ويحرك عواطفها الراكدة ؟ التقيا بضع مرات ، وتبادلا رسائل متعددة في بحث يائس عن « المطلق » دون جدوى ، فذهب « دى موسيه » إلى سويسرا للاستجمام ، ورجعت جورج إلى نوهان لتبحث عن نفسها المبعثرة في إطار الطبيعة ، وفي صحبة ولديها موريس وصولانج . أما الشاعر فقد زاده تمنّعها رغبةً في صفحها وكسب رضاها ، مع انها صارحته في إحدى رسائلها تقول : (... لم يعد حبي لك الا شفقة ، اما حبك لي فالافضل ان تحاول الشفاء منه ، كما يقول صديقنا سانت بوف) . وليتها سمعت نصيحة ذالك الصديق لها بالتخلي عن تحقيق حلمهـــا المستحيل بالعثور على الحب الكامل لأنه كان وهماً كبيراً ليس غير ، عاكسته الطبيعة ذاتها ، وكأنها لا تسمح لأحد في تحقيقه على الأرض . اما « دى موسيه » فقد وفى بوعده لها ونشر قصتهما عام ١٨٣٦ في روايته المشهورة : « اعترافات فتى العصر » التي انتحل فيها اسم « اوكتاف – Octave » لنفسه ، واطلق على الحبيبة اسم « بريجيت – Brigitte » ، وعندما قرأت جورج الفصول التي وصفها فيها وصفاً

---

(١) رسائل جورج صاند وألفرد دي موسيه – تحقيق فيليكس ديكوري – ص : ٣٩ .

Twitter:@abdulllah1994

رائعاً، مفعماً بالحب والتقدير، واطلعت على اعترافه بخطئه، وبأنه استخف بما كان مقدساً في علاقته بها، بكت بكاءً حارّاً من شدة تأثرها، وفاض قلبها بالحنين اليه. نقل ألفريد دى موسيه في روايته بعضاً من أحاديثها ونجواها، وقولها له ذات ليلة: (نعم يا حبيبي عندما تعذبني هكذا تغدو في نظري كالطفل المريض، وتزيدني رغبة في مداواتك لكي أعثر على الرجل الذي أحببته فيك مجدداً ... أرجو من اله الامهات و العشاق ان يساعدني على إنجاز هذه المهمة الشاقة[1] !) ولقد ختم روايته بالتوسل إلى الحبيبة لتغفر له، واعداً بالصفح عنها، فكتبت إليه جورج بضعة أسطر جاء فيها انها احبته بكل جوارحها، وانها عفت عن كل ما حدث، غير انها لم تعد ترغب في لقائه ... وعندما التقيا في أحد المسارح بعد بضعة أعوام وجدها الشاعر العاشق جميلة وشابة، وعكف على كتابة قصيدته الرائعة «ذكـــــرى — Souvenir» مع انها لم تسلّم عليه، بـــل مرّت من أمامه فتجاهلته وكأنها تمرّ أمام إنسان غريب ... لعل أهم مـــا نستخلصه من هـــذه العلاقة الغريبة بـــين شاعر العصر الرومنطيقي وبين أديبته الكبيرة كونها فجرت في كليهما

---

(١) رسائل جورج صاند وألفرد دي موسيه، تحقيق ف. ديكوري — ص: ١٨٠.

Twitter:@abdulllah1994

ينابيع الالهام ، وبلورت لنا المشاعر الرومنطيقية المبنية على التسامي في الصبابة ، والمثالية في العشق عبر أعمالهما الأدبية . وبما ان الشيء بالشيء يذكر يجدر بنا ان نشير إلى جواب جورج صاند الذي استدرّ من عيون الشاعر دى موسيه دموعاً حرّى وذلك يوم تلقى منها رسالة شكر تتضمن خصلات من شعرها الأسود الطويل كعربون مودة ووفاء! ولا يختلف اثنان بأن هذا الأسلوب الرومنطيقي قد تمثل في حبهما أفضل تمثيل !

تُرى هل وجدت جورج نفسها المبعثرة بين أحضان الطبيعة في نوهان ؟ لقد زادتها التأملات في ليالي الريف الساحرة حزناً وكآبة ، فلجأت إلى الله تناشده الايمان والرحمة، وطلبت من « بولوز » أن يرسل لها كتابين : القرآن الكريم وأفلاطون لمطالعتهما ، وبعد استغراق طويل فيهما اعترفت تقول : (ان الله لا يحبني ، ولا يهتم بي لأنه يتركني واهنة، وجاهلة ، وتعسة في الارض) [1] فماذا تفعل ؟ اين تنفق تلك الطاقة من القوة والوجد التي تختزنها في قلبها وعقلها وأعصابها ، والتي تكاد تخنقها ؟ أفي التضحية وإنكار الذات حسب رأي سانت بوف في رسائله اليها آنذاك ؟ ولكن ولديها

---

(١) « قصة حياتي – جورج صاند – الجزء الرابع – ص : ٣٠٥ .

Twitter:@abdulllah1994

قد شبّا، وأصبحا يقضيان سني الدراسة في معاهد باريس فلم يعود في حاجة لها ولتضحيتها ... أم في مصالحة زوجها، ومعاشرته كما تعاشر الزوج زوجها نزولاً عند نصح أحد اصدقائها لها؟ ما أفظع ان تصبح الزوج خليلة زوجها لغاية في نفسها! وقد **عبّرت عن رأيها بصراحة فكتبت تقول: (العلاقات الجنسية بلا حب شيء بشع ومقزّز، والمرأة التي تبحث عن زوجها ثانيةً بقصد الاستيلاء على إرادته كالعاهر التي تهب جسدها لرجل في سبيل لقمة تأكلها، وكالمحظية التي تفعل الشيء ذاته بغية التمتع بالمال والمجوهرات)** [١].

كانت تعتقد بأن المرأة لا يمكن ان تكون متاعاً مادياً لذا أضافت تقول: (إننا جسم وروح متحدان، واذا كان للجسم وظائف لا صلة للروح بها كاستهلاك الطعام وهضمه فإن اتحاد شخصين في الحب بعيد الشبه بتلك الوظائف، ومجرد التفكير به مرفوض ومثير!) [٢] فقررت إقصاء زوجها عن حياتها والتفاهم معه على خطة جديدة لتصبح سيدة نفسها حرة في بيتها، ولكي تضع حداً لمهزلة الحياة المشتركة القائمة على الزيف والنفاق. وبعد مداولة طويلة وقّعا اتفاقاً حبياً تحتفظ جورج صاند بموجبه بنوهان وبابنتهما

---

(١) و (٢) قصة حياتي – جورج صاند – الجزء الرابع – ص: ٢٩١ – ٢٩٢.

Twitter:@abdulllah1994

صولانج ، ويحتفظ كازيمير بأملاك أخرى ، دخلها السنوي ممتاز ، وبإبنهما موريس إعتباراً من شهر نوفمبر عام ١٨٣٥. ولكن كازيمير ندم بعد التوقيع وتراجع مما دفعها لاستشارة أشهر محامي في مدينة « بورج – Bourges » لأنهـــا كانت تعوّل أهمية كبيرة على رأي ولديهـــا فيها ، وتخشى ان يوهمهما أبوهما بانه « ضحية » أمهما الظالمة ... وذهبت إلى « ميشيل دي بورج » ذلك الجمهوري العنيف الذي اشتهر بالبلاغة في مرافعاته ، وبمعارضته الشرسة للملكية والنظام الاجتماعي فسُحرت بحديثه ، وتأثرت بآرائه حتى ان اللقاء الاول بينهما استمر ست ساعات متواصلة ! ناقش « ميشيل دي بورج » روايتها « ليليا » وأبدى إعجابه الكبير بها ، وناقشته أفكاره الثورية ، وعلى الرغم من انها وجدت بوناً شاسعاً بين عقيدتها السياسية المبنية على العدالة والتسامح وبين اجتهاده القائم على ان السلطة غاية ، والمقصلة وسيلة ، فقد رجعت إلى نوهان مأخوذة بشخصيته ، ومتأثرة بقدرته على الاقناع .

كان لميشيل دي بورج أثر كبير في حياة جورج صاند فستحوذ على مشاعرها شيئاً فشيئاً لأنه كان أقوى منها شخصيةً ، وإرادة ، وحجة ، وهذا ما كان ينقص الذين

Twitter:@abdulllah1994

أحبتهم وأحبوها من قبل . لأول مرة في حياتها واجهت رجلاً حقيقياً شوّقها إلى معرفته عن كثب ، وأوحى اليها الرسالة السادسة التي تُعتبر أجمل ما كتبت في « رسائل مسافر » . قالت فيها تصف حوارهما الأول،وانطباعها عن تلك الشخصية الصاعقة : **(حب البشر يصنع « راهبات الاحسان » أما حب المجد فانه شيء آخر لأنه يصنع الأقدار ، فلا تناقشني بهذا الموضوع أيها المخادع العظيم ! أنت تغالط نفسك عندما تسلك الطريق الذي تسوقك اليه غريزة القوة مدعياً أن الشعور بالواجب يدفعك اليه ، فأنا أعلم أنك لست من هؤلاء الذين يرعون الواجبات ، بل من الذين يفرضونها ... أنت لا تحب البشر لأنك لست مساوياً لهم ، أنت مَلِك عليهم لأنك نادر واستثنائي ! كلا يا صديقي ، أنت لست حبيباً جديداً أتخذه لأنك الرجل الذي أحببته منذ ولادتي ، والذي كنت أبحث عنه من خلال الأشباح التي همت بها ...)** [1] .

عبثاً حاول الحبيب الفيلسوف استمالتها كي تتبنّى أفكاره الثورية القائمة على الإرهاب الفكري لإصلاح المجتمع . كانت جورج متمسكةً بمبادئها ، ترى في تطبيق المساواة،

(١) « رسائل مسافر » – جورج صاند – ص ١٥٢ .

Twitter:@abdulllah1994

وتوزيع الثروة ضرورة ملحــة لتحقيق مزيد مــن السعادة للشعب ، ولكنها كانت ترفض اللجوء إلى غرس بذور الحقد بين الطبقات لأنه يمزق الكيان الاجتماعي ولا يحصد منه العمال والفقراء الا الهمجية والشقاء . لقد دفعها كُرْهُـها لتفاهة الطبقة الحاكمة ، و « للكونتيسات العجائز » الى تأييد الجمهوريين منذ حداثتها ، وكانت صداقتها للطبقة الشعبية ناجمة عن شعور انساني نبيل ،وعن مخالطة الريفيين في طفولتها ، وعن حبها العميق لأمها المنحدرة من تلك الطبقة البسيطة . وقد ظلت مصرة على آرائها ، جريئة في الدفاع عنها سواء في الاجتماعات السياسية في باريس ، أو في الندوات التي كانت تعقدها في نوهان ، تدعو دائماً للاعتدال ، وتشجب العنف . ولم يمنعها التمسك بعقيدتها الاشتراكية من الاعتراف لصديقها الفيلسوف بفضله في تنوير أفكارها ، وبلورة فكرتها عن العدالة ...ذكرنا ان جورج صاند هامت بحب ميشيل دي بورج في ربيع عام ١٨٣٥ ، وانها كانت على خلاف معه في الآراء السياسية والاجتماعية ، ولكن الخلاف العاطفي الذي نشب بينهما لم نأت بعد على ذكره . ظهر هذا الرجل العملاق في حياتها فجأة فأحبها كما أحبته غير انه لجأ إلى القسوة لإخضاعها ، ولما كانت حادّة الطبع ، وتجتاز أزمة نفسية شديدة بغية الانفصال عن زوجها ،

Twitter:@abdulllah1994

كانت تضيق ذرعاً بملاحظات الحبيب ، وتصرفاته « النابية » في رأيها فتتشاجر معه بعنف ، ويهجرها إلى حين فتحزن وتأرق وتغرق في بحر من الافكار المتناقضة. عام وأكثر قضياه في الصراع المستديم ، فلا هي كانت مستعدة للتنازل عن كبريائها ، ولا هو كان راضياً بالتنازل عن صلابته ، ومع ذلك بقيت مشغوفةً به ، يؤلمها فتورة ، ويسعدها رضاه .

في تلك الفترة من حياتها الصاخبة حصلت جورج صاند على قرار من محكمة مدينة « لا شاتر » يقضي بالتفريق بينها وبين زوجها بعد إجراءات قانونية استغرقت ما يقرب من عام . فغادر كازيمير قصر نوهان إلى باريس واستقلت هي في نوهان حيث انتجت رواية جديدة عنوانها : « موبرا — Mauprat » وبذلت جهوداً كبيرة في المنطقة لاستدرار عطف الرأي العام . الغريب في الأمر أن أخاها من أبيها « هيبوليت » اتخذ موقفاً معادياً لها ، وأخذ يحرّض زوجها ليطلب تحويل الدعوى إلى محكمة الاستئناف في مدينة « بورج » ، فتقدم كازيمير بهذا الطلب مرفقاً برسالة خطية تضمنت إدعاءاته المدينة لزوجته كإهمالها واجبات الزوجية والأمومة، ومعاشرة رجال آخرين بشكل علني ، ورحلتها إلى ايطاليا مع الشاعر دى موسيه ، الخ ... الخ ... فانتقلت إلى « بورج » بسرعة حيث سجلت في

Twitter:@abdulllah1994

المحكمة شكاواها من زوج متهتك ، عربيد ، شجعها على مغادرة بيت الزوجية أكثر من مرة بدليل وثائق خطية كانت تحتفظ بها . لقد حملت معها رسائله والاتفاق الذي كان قد وقعه معها وقبِل فيه بالانفصال عنها شرط ان يحتفظ ببعض أملاكها ، وبمرتب سنوي مدى الحياة؛ وهنالك في بورج تولى الدفاع عنها صديقها ميشيل ، المحامي البليغ ، في جلسة تاريخية عقدتها محكمة الاستئناف في شهر حزيران عام ١٨٣٦ . لقد جعل من موكلته ضحية الاقتران بزوج فاجر وبخيل ، أكرهها على ترك بيت الزوجية ، واستولى على ثروتها بشكل فاضح،في مرافعة رائعة أثّرت في الجمهور وفي أعضاء المحكمة أبلغ تأثير . كانت جورج صاند تصغي اليه بكل حواسها ، وتتغذى بكل كلمة وعبارة، كما انها كانت يومئذٍ رائعة في ثوب أبيض بسيط (وقلما كانت ترتدي ثياب النساء) وضعت فوقه ، على منكبيها ، معطفاً أبيض أيضاً ! ولكن المحكمة أجّلت إصدار الحكم إلى جلسة لاحقة لخلافٍ وقع بين القضاة ، وهذا ما دفع أخاها « هيبوليت » لاقناع زوجها كازيمير بقبول شروط الاتفاقية السابقة التي تنص على التخلّي عن « نوهان » والاكتفاء بالأملاك التي رغبت جورج في تركها تحت تصرفه لكي يعيش مرفّها ، وابقاء الولدين معها كي تتولّى تربيتهما

Twitter:@abdulllah1994

وتشرف على تعليمهما . والجدير بالذكر ان كازيمير لم يتردد هذه المرة بل قبل بشروط الاتفاقية المذكورة ، ونفّذ بنودها جميعاً معترفاً بهزيمته ، وبأن الدعوى ، اذا ما استمرت، ستكون خاسرة بالنسبة اليه ، بل ربما تجرده من حقوق مادية كان حريصاً عليها أشد الحرص .

Twitter:@abdulllah1994

الحريّة صنعتي

« الحرية صنعتي » شعار اتخذته جورج صاند لنفسها، وطبقته في جميع مراحل حياتها ، قبل زواجها ، وفي أثنائه، وبعد الانفصال عن زوجها ، ودافعت عنه في كتابها «قصة حياتي » الذي استغرق العمل فيه ، بشكل متقطع ، ستة أعوام . أرادت الحرية لوطنها ، وللكادحين في مجتمعه ، ولنسائه ، وثابرت على توعية الناس للمطالبة بها سواء في مقالاتها ، أو رسائلها ، أو عبر مذكراتها ورواياتها . لم تكن الحرية في نظرها الإعتداء على حق أحد ، انما كانت التمتع بحق مشروع للمرأة والرجل ، ولم تكن الحرية في رأيها فوضى وغوغائية ، إنما كانت التزاماً بقانون الطبيعة ، وضماناً للكرامة الانسانية ، وسلاحاً عادلاً ينبغي ان يُشهر على الجور ، والتزمّت ، والتخلف ، والاستغلال . وقد شهد المؤرخون والباحثون بأنها كانت تحترم حرية سائر الناس ، سواء أكانوا أقرباء ، أم أصدقاء ، أم غرباء ، وبأنها

Twitter:@abdulllah1994

كانت تتميز بالتسامح والتواضع ، والشجاعة والكرم .

خاضت دعوى التفريق بحزم فربحتها وخرجت منها متعبة لتنصرف إلى عملها وولديها اللذين كانا شديدي التعلّق بها . تلقت يومئذ دعوة من صديقيها الفنان الكبير « فرانس ليست » وصديقته « الكونتيسة داغول » لقضاء فصل الصيف معهما في سويسرا فلبتها دون تردد لاحتياجها وأولادها إلى الراحة والاستجمام ، وتوجهت في مطلع آب عام ١٨٣٦ إلى جنيف مع موريس وصولانج ووصيفتها حيث قضوا ثلاثة أشهر من أهنأ أيام حياتهم . وصفت لنا ذلك الصيف السعيد في الرسالة العاشرة من كتابها « رسائل مسافر » (١) وصفاً حيّاً ، جذاباً ، يشدّ انتباه القارىء ، ويشحذ خياله ، فيجعله يستمتع بالمساجلات الأدبية والسهرات الموسيقية والنزهات السحرية عبر الجبال الخضراء والبحيرات العابقة بأبهى تجليات الفكر والفن والجمال الطبيعي ، وكأنه حضرها ، وشارك فيها ! التفّ حولهم عدد من الكتاب والفنانين السويسريين وأكرموهم ، ورافقوهم في رحلاتهم الترفيهية ، وقد وصف الأديب السويسري « أدولف بيكتيت – Adolphe Pictet » (الذي

(١) « رسائل مسافر » – جورج صاند – ص : ٣٠٩ .

Twitter:@abdulllah1994

رافق الرهط الشهير إلى مصيف « شامونيكس – Chamonix ») كيف حلوا في الفندق الجبلي ، وكيف كانوا يتسامرون في الليل أمام الموقدة، وماذا كانوا يلبسون ويفعلون ، كل هذا في قصة مثيرة نشرها بعنوان « قصة خرافية » . وقد علمنا بفضل هذه القصة الواقعية ان جورج صاند كتبت في سجل الفندق ما يلي :

اسم السياح : أسرة « بيفوئيلس – Piffoëls » (وقد انتحلت هذا الاسم من بعد في العديد من رسائلها الهزلية).

مكان اقامتهم : الطبيعة .

بلد القدوم : دار الله .

وجهة المغادرة : السماء .

مكان الولادة : أوروبا .

الصفات المميزة : متسكعون ...

ويبدو ان « ليست » ألّف قطعته الموسيقية الجميلة « روندو – خيالي Rondo Fantastique » بحضورها وأهداها اليها ، فردّت له الهدية بإهدائه قصة « المهرّب » مما أثار غيرة حبيبته الكونتيسة مع انها كانت أجمل منها بكثير ، وسلطانة متربعة على قلب « ليست » . تجاهلت جورج الموضوع تماماً وودّعت أصدقاءها في تشرين الأول

Twitter:@abdulllah1994

على أمل لقائهم في باريس وفي نوهان وكأنها لم تشعر بشيء.

من نوهان ، حيث تركت الحاشية ، توجهت إلى باريس لتُدخل موريس وصولانج في مدرستيهما ولتتابع نشاطها الأدبي . أقامت في « فندق فرنسا » حيث كان « ليست » « والكونتيسة » يقيمان ، وعرّفتهما بكتاب العصر ، كما عرفاها في خريف ١٨٣٦ بفريديريك شوبان الذي كانت شهرته قد تجاوزت حدود بولونيا وفرنسا ، وكان أصغر منها بست سنوات . وقد تعرفت هي ايضاً آنذاك بوجوه مرموقة جديـــدة كالكاتب المصلح « القس لاموني L'Abbé Lammenais » الذي أسس جريدة « العالم – Le Monde » فأثرت فيها شخصيته كثيراً ، ودفعتها إلى التطوع للكتابة في جريدته حيث نشرت فيها « رسائل إلى مارسي Lettres à Marcie » دعت الكاتبة في تلك الرسائل إلى ازدراء المال ، وزواج العقل ، والبحث عن التسامي بإسلوبٍ فلسفي وقالت : (الحقيقة هي حب الكمال ، والكمال هو محاولة الفكر الأزلية لإخضاع المادة) فاخذت الألسن السليطة تنسج قصصاً وهمية حول علاقتهـــا بالقس العالِم ولكنها لم تعر خصومها أي اهتمام بل كتبت ايضاً تقول : (القس « لاموني » لا يستطيع أن يمشي وحده لنشر رسالته الاخلاقية والسياسية ، فاكبر قائد لا يستطيع ان

Twitter:@abdulllah1994

يفعل شيئاً بدون جنود ، شرط ان يكونوا مطيعين ومؤمنين)
ويوم نشرت في جريدته رسالة دافعت فيها عن المساواة الجنسية في الحب أثاروا حفيظته عليها ، وحذروه من إسرائها في الدعوة إلى تحرير المرأة ، ومهاجمة الرجل الذي كان في رأيها يخنق ذكاء الزوجة للسيطرة عليها ، فانقطع القس فجأةً عن حضور ندواتها ، ومنع نشر تتمة رسائلها ...
وقد وجهت اليه رسالة ودية تعتذر فيها عن متابعة الكتابة في جريدته ما دام لا يسمح لها بمعالجة قضايا الطلاق والزواج، وقوانين الأحوال الشخصية، ويؤثر عليها الروايات الرومنطيقية!
والحق ان « القس لاموني » لم يكن الرجل الاجتماعي الذي يستسيغ الندوات الباريسية ، وانه وجد حرجاً كبيراً في الاجتماع عندها بالموسيقار « ليست » ، والكونتيسة «كارلوتا مارلياني – Carlotta Marliani » زوجـة قنصل اسبانيا في باريس ، والفيلسوف « بيـير لورو – Pierre Leroux » شريك « جان رينود – Jean Raynauld » في اعـداد « دائرة المعارف الجديدة » وصاحب النظرية التي تقول بان الله موجود في كل شيء ، في العالم المادي كما في عالم الروح ، لذا ينبغي على الانسانية ان تقدس الصلات الجسدية وتسموا بها لا أن تقاومها ! ولا بد من القول ان « بيير لورو » أثّر كثيراً على جورج صاند، وأن أثر افكاره ومذهبه الفلسفي

Twitter:@abdulllah1994

ظهر في أعمالها الأدبية يومئذ . لقد أُعجبت بآرائه وأيدت قوله بان الزواج الناجح يحفظ للمرأة كرامتها وحقوقها ويضمن التوازن في الأسرة على أساس الاحترام المتبادل والمساواة بين الشريكين ، وبهذا وحده يردعها عن الخيانة والمجون. اتفقا في التفكير فغالت جورج صاند بالإعجاب به ، واعتبرته « سقراط » جديداً ... أخذت تدعو الناس الى قراءة كتبه بحماسة ، ولم يكن موقفها منه مستغرباً لأنها كانت متطرفة في كل شيء ، وفي الحب خاصةً ، اذا ما أحبت أحداً عبدتــه ورفعتــه إلى منزلة الآلهة ! كان تركيبها الفيزيولوجي شيئاً استثنائياً في شهادة معاصريها إذ تميزت بقدرة على العمل فائقة ، وقدرة على العطاء تبلغ درجة التفاني، وحيوية مذهلة، وحاجة ملحّة لانفاقها . ويبدو أنها كثيراً ما كانت تلجأ إلى طبيبها لكي يفصدها ! ولا بأس هنا من نقل مقاطع قصيرة من « يومياتها الخاصة » حيث قالت في معرض وصفها لذاتها ونقدها لها ، وقد انتحلت شخصية « بيفوئيل » ، وأخذت تخاطبها مؤنبةً : « لستَ يا بيفوئيل سوى انسان أحمق لأنك تقول لمن تحب انه أعظم مخلوق وأفضل رجل ... وليست هذه العبارات اللغة التي يريد الرجل أن يسمعها . انه يحتقر التفاني لاعتقاده بانه أهل له بل من حقوقه المكتسبة، فعليك أن تتقن علم الحياة،

Twitter:@abdulllah1994

وتحسن التعرف إلى قلوب الناس . أياك ان تتمثل بامرأة قوية الروح ، شجاعة ، سليمة النيّة ، ونزيهة لأن الجمهور سيواجهها بالتصفير ، ويسمّيها « ليليا العاجزة » انها والله لعاجزة عن المذلّة، عاجزة عن التملّق ، عاجزة عن الدناءة ، وعاجزة عن الخوف من الرجال ! [1]) .

سجلت جورج خواطرها في مذكرتها الخاصة في صيف ١٨٣٧ وأقرت بانها كانت متسرعة في اندفاعها وراء أهوائها، وآرائها الثورية ، بل متهوّرة ، وانها لم تحصد من كل ما فعلت سوى العذاب ، وشعور عميق بالوحدة ، حتى عندما توجد مع الناس . ولكن تُرى هل أفادها النقد الذاتي وصرفها عن التسرع والتهوّر ؟ الواقع انها كانت تدرك أخطاءها وتعجز عن تجنب الوقوع فيها مجدداً ، فطبع الانسان وطبيعته شيئان متأصلان فيه ، وإن من شبّ على شيء شاب عليه ، كما يقول المثل . كانت جورج صاند كاتبة اجتماعية ، تحب الناس ، وتكره العزلة ، وقادرة على استضافة الأصدقاء في نوهان خلال أسابيع وأشهر ، وعلى الإنتاج في الوقت ذاته. لقد دعت الفنان « ليست » والكونتيسة « داغول » إلى قصرها الريفي في ذلك الصيف حيث قضيا

---

(١) يوميات خاصة – جورج صاند – ص ٦٠.

Twitter:@abdullah1994

شهراً رائعاً بايامه الهانئة ، وأمسياته ولياليه الساحرة . كان كل واحد يمارس حريته في النهار : « ليست» يعزف ويؤلف على البيانو ، والكونتيسة تتزين وتستجم وتتنزه ، وجورج تنجز روايتها الجديدة « سيمون – Simon » دون ان تهمل تدوين صفحات جديدة في يومياتها . أما الليالي فكان يُدعى اليها ممثلون من باريس وكتاب ليسهموا في احيائها وتنويع برامجها ، فمن قراءات شعرية إلى تمثيليات كلاسيكية، إلى معزوفات موسيقية تسيل من أنامل « ليست » العبقري، وتهتز لها طرباً الأشجار والطيور وحتّى الجدران ! وعندما غادر « ليست » وصحبة نوهان محفوفين بالتكريم كانت جورج قد استعادت الثقة بالحياة ، وتضاعفت همتها لمتابعة الكفاح . كتبت في غضون شهرين رواية أخرى تعدّ من أفضل قصصها عنوانها : « مصمّمو الفسيفساء – Les Maitres Mosaïstes » واتخذت مدينة البندقية اطاراً لحوادثها ، ثم حملتها إلى باريس لتعود أمها المريضة وتسلمها لدار النشر . وعندما اشتد المرض على أمها أقامت في بيتها وتفانت في خدمتها ليلاً ونهاراً إلى ان فارقت الحياة بين يديها ، فحزنت عليها كثيراً ، ورثتها في رسالة قالت فيها : **(لقد ماتت أمي المسكينة بهدوء ملائكي ، وبدون نزع كما يموت الأطفال الرضّع .**

Twitter:@abdulllah1994

كانت امرأة باسلة وذكية ، وكانت فنانة موهوبة وقليلة الحظ . لقد خسرتها وافتقدت بموتها أماً طيبة ، رؤوماً ، سببت لي كثيراً من المتاعب وأنا في مستهل العمر ، ولكنها تداركت الأخطاء بعدئذ واكتشفت حقيقة ما انطوي عليه فأنصفتني . لقد رحلت أمي أيها الصديق دون أن تفكر بالموت ، رحلت لتستريح تحت باقات الزهر حيث ترفرف الفراشات ، وتغرّد الطيور . ولا أخفي عنك انني أشعر براحة الضمير لأنني قمت بواجباتي نحوها حتى النهاية . أما البهجة التي تنبعث من قبرها فقد أذهلتني لدرجة جعلتني أتساءل عن سبب دموعي التي كانت تنهمر بغزارة ساعة وقفت لأحييها آخر تحية ! (١) .

بعد عودتها إلى نوهان واجهت جورج صاند مشكلة لم تكن تتوقعها إذ علمت بان زوجها البارون كازيمير دودوفان خطف ابنتها صولانج ... ذهبت اليه على الفور بصحبة رجال الشرطة وأخذت منه الفتاة الصغيرة بالقوة ، وقد أدهشها حين استقبلها ببشاشة ، وهدوء أعصاب ، وكأنه لم يقدم على أية مخالفة للاتفاقية المعقودة بينها وبينه... ولحظة أمسكت بيد صولانج وهمّت بمغادرة بيته أعلمها

---

(١) « مراسلات » – جورج صاند – ص : ٨٦ .

Twitter:@abdulllah1994

بأنه سيخطف ابنهما موريس عندما يحلو له ان يفعل . فلم تقل شيئاً ، ولم تأبه لتهديده لأن ابنها كان سعيداً معها. مولعاً بها وقادراً على محاكمة الأمور بعقل شاب ناضج مع أنه لم يتخط سنّ الخامسة عشرة. كانت تتنبأ له بالنبوغ في الفن ، وتبتهج باهتمامه بالرسم، وبإقباله على العلم ، وعلى الدروس التي كانت تتفرغ كل يوم لتدريبه عليها في قواعد اللغة ، وتأريخ الفنون بتشوق وحماسة .

Twitter:@abdulllah1994

تجديد الصداقة مع بلزاك

نستطيع ان نقول بكل جزم إن أغلبية الأدباء والنقاد والشعراء الذين عاصروا جورج صاند كانوا متفقين على احترامها ، وإنها كانت على اتصال مستمر بهم بالمراسلة ، ان لم يكن باللقاءات الشخصية . وكان من أوثقهم إتصالاً بها أستاذ الرواية الواقعية في فرنسا « هونوري دي بالزاك » مؤلف : « الملهــاة الانسانية – La Comédie Humaine » وعدد كبير من أعظم الروايات الفرنسية التي ذاعت شهرتها في القرن التاسع عشر وما زالت تستقطب اهتمام القراء حتى يومنا الحاضر . وبالزاك مدين للمرأة في ظهور عبقريته منذ مطلع شبابه ، ومدين للمرأة أيضا في تحقيق سعادته بعد ان اشتهر واغتنى في كهولته ، فقد أحب أرملة جميلــة، مثقفة وغنيــة تُدعى « السيدة ايفلين هانسكا – Mme Eveline Hanska » مدة تجــاوزت عشر سنوات كان يبعث اليها خلالها برسائل تتناول أهم مشكلات العصر ،

Twitter:@abdulllah1994

وتصف اتصالاته بمعاصريه، وآراءه باعمال زملائه الكتاب، وقد نُشرت جميعها في كتاب عنوانه : « رسائل إلى الغريبة — Lettres à l'étrangère » وكثيراً ما كان يتحدث فيها عن جورج صاند وعن مؤلفاتها باعجاب.

كان قد حصل فتور بينه وبين من كان يسمّيها «الزميلة العزيزة جورج صاند» بدافع مناصرته لعشيق جورج الأول «جول صاندو» بعد ان قطعت علاقتها به، ولكن الأيام اثبتت لبالزاك صحة رأي جورج فيه، فندم على مجافاتها، وافتقد بالبعد عنها صديقة قديرة، صحبتها ممتعة، ومنزلتها في القلوب رفيعة.. يبدو ان صديقته الحبيبة «السيدة هانسكا» كانت وراء تحميسه على التقرب اليها من جديد. أما جورج صاند فقد كانت هي ايضاً حريصة على صداقة بالزاك، أحد كبار عباقرة عصرها، وهذا ما جعلها تُسرّ كثيراً يوم تلقت منه الرسالة التالية في ٢٤ / ٢ / ١٨٣٨:

(لكم أوّد ان احجّ إلى نوهان قبل رجوعي إلى باريس لأرى الأسد في عرينه، والعندليب في عشّه...) فسارعت الى دعوته لقضاء أسبوع معها فلبى الدعوة وجرت بينهما أحاديث ومناقشات ممتعة ومثمرة، نقلها بالزاك في رسائله للحبيبة، ووصف فيها جورج صاند يقول: (بلغت قصر نوهان في السابعة

Twitter:@abdulllah1994

مساءً فوجدت الزميلة جورج جالسة أمام الموقد تدخن سيجاراً كبيراً . لاحظت بعض السمنة في جسمها ولكنني لم أر في شعرها شعرة بيضاء على الرغم من المصائب التي حلّت بها ، أما بشرتها فلم تزل سمراء جذابة ، وعيناها ما زالتا تلمعان ، وما زالتا أجمل وأقوى ما في محيّاها . انها فتى لا امرأة . ومع ذلك فهي فنانة ، وعظيمة ، وكريمة ، ومخلصة وعفيفة . تحدثت اليها طوال ثلاثة أيام بقلب مفتوح ، وبعيداً عن الحرج الذي يستشعره الرجل في حضرة المرأة لأنني كنت أتحدث مع « زميل » . انها أم ممتازة ، يعشقها ولداها، اما الحماقات التي ارتكبتها فليست سوى ألقاب مجد في نظر ذوي النفوس الكبيرة والجميلة . لقد خُدعت أكثر من مرة لأنها من زمرة الأقوياء والطيبين الذين يقعون في الفخ بسرعة على ساحة الحقائق ...

احفظي يا صديقتي هذا السر : لقد أعطتني جورج صاند موضوع روايتي الجديدة « العلاقات المصطنعة » اذ زودتني بتفاصيل قصة الفنان « ليست » مع السيدة « داغول » لأن صلتها بهما لا تسمح لها بكتابتها ... وسوف تبقى جورج بائسة في حياتها العاطفية لأنه من النادر جداً ان تلتقي بالرجل الملائم لها ، اللائق بعبقريتها ، الذي يمكن أن يرضيها ...

Twitter:@abdulllah1994

وأعتقد اني وُفقت في إقناعها بضرورة تشجيع الزواج. وأظن انني حسناً فعلت)[1].

يعتقد أندري موروا ان بالزاك بالغ في تجريد جورج صاند من كل أثر للأنوثة في رسالته إلى حبيبته «هانسكا Hanska كي لا يثير غيرتها، وان هذين الزميلين العظيمين لم يتفقا على شيء في مناقشاتهما حول الزواج والحرية، والصلات بين الجنسين: (... فبينما كانت جورج صاند تلميذة مخلصة لـ « روسو Rousseau » تؤمن بالحرية والتقدم، كان بالزاك، على خلاف روسو، يؤمن بالخطيئة الأصلية وبان تغيير الطبيعة ليس ممكناً. وبينما كانت صاند مع الجمهوريين، كان بالزاك من أنصار الملكية. لقد دعت الى تحرير المرأة والى الزواج المبني على الحب، في حين ان بالزاك دافع عن زواج العقل، وخشي عاقبة الحرية الزائدة للمرأة المتزوجة. جورج صاند أبدعت ابطالاً لرواياتها يتصفون بالمثالية الخالصة، وأخذت تبحث عنهم في الحياة ولكنها لم تجدهم، في حين ان بالزاك الذي نعم في حياته بحب امرأة مثالية وهاجم الزنا والتهتك بواقعية شرسة)[2].

---

(١) « رسائل إلى الغريبة » « هونوري دي بالزاك – الجزء الأول – ص : ٤٦٢، ٤٦٤.

(٢) « ليليا أو حياة جورج صاند » – أندري موروا – ص : ٢٩٠ – ٢٩١.

Twitter:@abdullah1994

ويوم غادر بالزاك قصر زميلته وصديقته القديمة كان يحمل في جعبته مادّة دسمة طعّم بها رائعته (بياتريس ، أو العلاقات المصطنعة) التي نشرها مسلسلةً عام ١٨٣٩ في مجلة « العصر – Le Siècle » والتي أغضبت صديقيّ جورج صاند الفنان « ليست » و « الكونتيسة داغول » لأنهما وجدا فيها صورة قاسية لعلاقتهما الغرامية ، وطعناً بمثالب الكونتيسة وغرورها اذ كانت تحلم بالتشبّه بـ « بياتريس » ، حبيبة الفيلسوف والشاعر الكبير « دانتي – Dante » ، وتهمس في آذان المقربين اليها بأن « ليست » لا يقل عن « دانتي » عظمة وفناً، وبأنه حريّ بأن يصبح « دانتي » جديداً ...

Twitter:@abdulllah1994

شتاء في ميورقة مع "فريدريك شوبان"

في شهر تشرين الأول من عام ١٨٣٧ كتب فريديريك شوبان في مذكرته ما يلي :

(التقيت بجورج صاند مجدداً ثلاث مرات . كانت تستند إلى البيانو وتغرقني بنظراتها الملتهبة عندما كنت أعزف أساطير نهر الدانوب الحزينة. ترى ماذا كانت تقول تلك العينان الداكنتان الفريدتان في اللحظات التي كانت تذوب خلالها في عينيّ ؟ لقد انتزعت قلبي ! فالتقينا مرتين بعد تلك الأمسية الرائعة ... انها تحبني ... أورورا ! يا للأسم الساحر !) [١] .

كان الفنان العبقري شوبان في شرخ الشباب ، وسيم الطلعة ، نحيل الجسم والأصابع ، عذب الابتسامة ، هادىء الطبع ، مفرط الحساسية ، خافت الصوت ، وارستقراطي

---

(١) و (٢) « ليليا أو حياة جورج صاند – أندري موروا – ص : ٢٩٦ .

Twitter:@abdulllah1994

الشخصية . والغريب أنه قال عن جورج صاند بعد ان تعرّف اليها في بيت زميله وصديقه « فرانس ليست » قبل عام مضى :

(يا لها من امرأة سمجة ! هل هي امرأة حقاً ؟ اني ميّال إلى الارتياب ...) [1].

بديهي ان نتساءل كيف غيّر شوبان رأيه في جورج صاند في غضون سنة واحدة فأصبح يرى السحر في عينيها، وأصبح قلبه متعلقاً بها . الجواب على هذا التساؤل نجده في وثائق مخطوطة كتبها صديقا شوبان الأثيران وهما الوجيه البولوني الذي كان يقيم في باريس يومئذ : « ألبير غرزيمالا — Albert Grzymala » وزوجة قنصل اسبانيا في باريس « الكونتيسا كارلوتا مارلياني — Comtesse Carlotta Marliani » التي اضحت مع غرزيمالا من أعزّ اصدقاء جورج صاند فيما بعد . لقد أكدا في رسائلهما ومذكراتهما أن قلب شوبان كان مشغولاً بحب مواطنته البولونية الشابة: « ماري فودزينسكا — Marie Wodzinska » . وانه كان عازماً على الاقتران بها يوم لقي جورج صاند أول مرة في باريس عام ١٨٣٦ ، ولكن أهل الفتاة اقنعوها بفك خطبتها معه بسبب هزاله ، وهشاشة صحته ، فأصيب

(١) ليليا أو حياة جورج صاند — أندرى موردا — ص : ٢٩٦ .

Twitter:@abdulllah1994

بخيبة أمل وأضحى في حاجة لمن يواسيه ويسلّيه بعد تلك الصدمة اذ قال أكثر من مرة : (لكم يسرني العثور على من يمارس الوصاية عليّ !) ولم ينقض وقت طويل حتى وجد وصياً عليه يفهمه ، ويقدّر عبقريته ، ويعنى به عناية الأم بولدها ، ويؤثره على سائر الرجال . وجـــد المنقذ في الكاتبة العظيمة والانسانة الكريمـــة جورج صاند ، وكان كلما تعرف اليها أكثر يكتشف فيها مزايا أكبر . لقد أدهشته ثقافتها الموسيقية، وإدراكها المرهف للغة الأنغام. ألم تكن تقبع تحت البيانو عندما كان « ليست » يستنبط منه الألحان السماوية ؟ ألم تكتب إليه ليلة حلّق في العزف في بهوٍ أنواره باهتة ، وحرك مشاعر الحاضرين بمعزوفاته الحالمة التي باح فيها بآلام الغربة والحنين: (إننا نعبدك!) ؟ لقد حفظ شوبان تلك البطاقة بين أوراقه الشخصية ولكن خجله الفطري منعه من البوح لجورج بإعجابه وحبه . اما هي فقد عادت إلى نوهان لتقضي الخريف والشتاء وفي رأسها فكرة تختمر؛ وفي قلبها انشودة تتكوّن ... كتبت اذ ذاك روايتها الرائعة: « أوتار القيثارة السبعة » وجاءت إلى باريس في ربيع ١٨٣٨ حيث اجتمعت بالموسيقي الرقيق بمفردها ، لا لتتحدث اليه ، بل لتصغي إلى روائعه في سهرات سحرية أطلقا فيها العنان للغة الأوتار البليغة . لأول مرة في حياتها تهيّبت جورج

Twitter:@abdulllah1994

صاند الكشف عن صبابتها فعادت إلى نوهان للتفكير جديّاً بالأسلوب الذي ينبغي اتباعه ، ومنها بعثت برسالة مطولة إلى صديقـــه الحميم ، وكاتم اسراره « ألبير غريزمالا » تستوضح منه عدة أمور : هل شوبان قطع أمله من خطيبته السابقة ؟ هل هو خليّ الآن ومستعد لتقبّل صداقتها ؟ أو أنه يفضل الحب كاملاً على الصداقة ؟ وشرحت له طبيعتها قائلة بصراحة انها عاجزة عن كبح جماح عواطفها اذا أحبت ، ومفرطة بالاخلاص لمن تحب ، ومستعـــدة لتبني (صغيرها) حسب تعبيرها ، والعناية بصحته ، وتغذية موهبته ... ثم ألحّت عليه بالاسراع في الرد كي تحدّد موقفها ، فإما ان تصرف النظر عن الموضوع نهائياً وتتوارى عن انظار شوبان ، أو أن تظل على صلة به فيكتفيان بلقاءات متقطعة عندما «تدفعهما النار المقدسة للقيام بنزهات بين النجوم» أو أن يتحدا كلياً إذا ما كان شوبان مغرماً بها ، يشفّه الوجد اليها كما يشفّها الوجد اليه . ووعدت صديقه بالتكتّم اذا ما وافق هواها هواه مراعاة لتقاليد أسرته ، وباحترام عقائده الدينية والسياسية والاجتماعية لأنها حريصة على إسعاده ، ومستعدة للتضحية بنفسها من أجله !

انتظرت جواب « غرزيمالا » على أحر من الجمر فجاء

Twitter:@abdullah1994

أشهى من الاماني ، وأعذب من الاحلام ، فتوجهت إلى باريس على جناح السرعة حيث وجدت حبيباً ملهوفاً في انتظارها ، يذوب شوقاً اليها ولحنانها ، وقد وضع نفسه ومصيره بين يديها . احترسا كثيراً من عيون العذّل في باريس ، وقضيا فترات من الصيف في نوهان مستسلمين للحب الرفيق بالعشاق الميامين ، الرحيم بالمحرومين والمعذبين..

أصبح فريديريك شوبان فرداً من أفراد العائلة ، بل الفرد المدلّل على قلب جورج صاند وولديها ، والمحبوب حتى من مستخدميها اذ كان رقيق الحاشية ، خفيف الظل ، وانساناً سماوياً ، اذا صح التعبير ، مع أنه كان يمشي على الأرض كسائر الناس . توعكت صحة ابنها موريس يومئذٍ فانشغل بالها ، وتعكر ماؤها ، وكتبت تقول : (يا لنا من طيور تعيسة : لقد وهبتنا الطبيعة اجنحة ولكن عشّنا في الارض، وكلما ينادينا نشيد الملائكه إلى السماء سرعان ما يعيدنا إلى الارض نداء الابناء . نعم من أجل اولادي لا أريد أن أنقاد للعواطف المشبوبة التي يضطرم أوارها في أعماق قلبي . واعتقد بان حبهم يزّودني بالقدرة على تحطيم كل ما يقصيني عنهم ، ويدعوني إلى اتباع أفضل اسلوب لرعاية ثقافتهم وصحتهم ، وللسهر على رفاهيتهم [١]).

---

(١) رسائل شوبان وجورج صاند – تحقيق برونيسلاس سيدوي ودونيز وسوزان شيناي – ص : ٢١.

Twitter:@abdulllah1994

من يتمعن بعبارات جورج صاند يدرك معاناتها القاسية في الصراع العاطفي الذي داهمها مع مثول شوبان في حياتها، بعد ان شجعته على احتلال قلبها . كان شوبان مصدوراً تنتابه نوبات سعال حادة ، بين وقت واخر ، ولا يكاد السعال الخفيف المقلق يبارحه ، فهل أعماها الحب عن الخطر الكامن في معاشرته ، وعن تسرّب العدوى في بيتها من مرض السلّ ؟ أو انها كانت مدركة الأخطار المحيقة بها ، ومستعدة لتحمل نتائجها لأنها كانت نسيج وحدها في المغامرة ، والحب، والصداقة والتضحية ؟ الأرجح انها كانت واعية ، ومصرة على الاحتفاظ بالموسيقار الذي تمثلت فيه الحب الكامل ، وأنها كانت آملة في شفائه . لقد بذلت كل ما في وسعها لانقاذه من العلة الخبيثة بعدما أكد لها الأطباء أنها في بدايتها ، وانها قابلة للشفاء ، فامتنعت عن مخالطة الحبيب جنسياً ، واعترفت في يومياتها الخاصة بأنها آثرت مراعاة صحته على حبها العميق له ، الذي فاق كل حب أحست به،وجعلها تستعذب التضحية وتنسى نفسها متغاضية عن رغباتها . لهذا كله عقدت النية على اصطحابه مع اولادها إلى مكان جميل ودافىء ليقضوا فيه شتاءً هانئاً ، أملاً بان يشفى المريضان العزيزان من مرضيهما : ابنها موريس

Twitter:@abdulllah1994

من الروماتيزما التي تغلغلت في مفاصله ، وحبيبها شوبان من السعال المقلق الذي عشّش في رئتيه . بحثت عن أفضل مكان فأشار عليها قنصل اسبانيا في باريس ، المؤرخ مارلياني، وزوجه كارلوتا ، بالتوجه إلى جزيرة ميورقة حيث الدفء والشمس والراحة المطلقة ، فرحبت بالاقتراح وكتبت تقول في كتابها : « قصة حياتي » : (عندما كان أبي يحدثني عن رحلة جدتي إلى جزيرة ميورقة ، ويصف لي جمال تلك الجزيرة النائية ، وأثرها في اسعادها ، كنت أصغي اليه بكل حواسي ، وبتّ بعد ذلك أحلم بزيارتها . وعندما كنت استعد للسفر اليها مع ولديّ آملة ان يستعيد ابني موريس صحته قال لي شوبان ، أكثر من مرة ، انه يتمنى لو تُتاح له فرصة الاستشفاء فيها مثل موريس) . ويؤكد صحة كلامها أصدقاء شوبان الذين علموا برغبته في السفر معها وشجعوه على قضاء الشتاء في مناخ معتدل . عندئذ استشارت طبيبه الدكتور « غوبير Gobert » فشجعها أيضاً على اصطحابه مؤكداً بانه ليس مسلولاً ، وان الدفء ، والهواء النقي في ميورقة ، والراحة والتنزه هو ما يحتاج اليه ، وما يكفل شفاءه من النزلة الصدرية التي كانت تعاوده بين بين حين وآخر . يضاف إلى ما تقدم ان حبهما كان في

Twitter:@abdulllah1994

بدايته ، وان كلاهما كان مشغوفاً بالآخر ، فلِمَ لا يقدمان على رحلة ممتعة ، وكيف لا يعقدان عليها آمالاً عريضة بالصحة والسعادة ؟ وفي كتابها : « شتاء في ميورقة » أعربت جورج صاند عن استبشارها بتلك الرحلة ، وحاجتها النفسية لها للهروب من رتابة الحياة الاجتماعية والبيتية المرهقة فقالت : (من منا لم يحلم ، ذات يوم ، بدافع الأثرة ، بترك مشاغله ، وعاداته ، واصدقائه ، ليتوجّه الى جزيرة ساحرة ويعيش فيها بلا هموم ، ولا منكدات ، ولا التزامات ولا حتى صحف)[1] ولو درت الأديبة العاشقة بما كان ينتظرها في الجزيرة الساحرة من متاعب وهموم لما اقدمت على تلك الرحلة الطويلة بصحبة حبيب مريض وولدين يافعين ، ولكن أنّى لها ، او لغيرها من سائر المخلوقات ، ان يدري بما تخبئه الأقدار التي غالباً ما تسخر من أحلامنا الحلوة ، وتُطيح بأمانينا ؟ ...

والآن ، وقبل ان نخوض في تفصيل أحداث إقامة جورج صاند مع « أولادها الثلاثة » حسب تعبيرها في ميورقة ، ورغبة في إعطاء صورة واضحة عنها للقراء ، ننقل ما جاء في وثيقة تاريخية محفوظة في خزانة سجلات ميورقة التاريخية ، من

---

(١) « شتاء في ميورقة » — جورج صاند — ص : ٤٢ .

Twitter:@abdulllah1994

كتاب قيّم ألفه كاتب ميورقي معاصر يدعى : « بارتوميئو فيرّا Bartomeu Ferra » وحققه الاستاذ : « آ . م . بوترو A.M. Boutroux » نُشر في مدينة بالما عام ١٩٦٠ : (لقد حملت الباخرة « المايورقي » التي غادرت ميناء برشلونه في الخامسة من مساء السابع من شهر تشرين الثاني عام ١٨٣٨ ، ووصلت إلى « بالما » في الحادية عشرة والنصف من صباح الثامن منه ، الركاب الآتية اسماؤهم:

الدرجة الأولى : السيدة دودوفان ، متزوجة — السيد موريس ، ابنها وهو قاصر — الآنسة صولانج ، ابنتها ، قاصرة أيضا — السيد فريديريك شوبان — فنان.

الدرجة الثانية : السيدة اميلي ، وصيفة .

وبقوا في الجزيرة سبعة وتسعين يوماً ، الستة الأولى منها في فندق عائلي يقع في شارع البحرية في بالما ، وأقل من شهر في « دارة الهواء — So'n Vent » التي استأجروها لسكناهم على بعد خمسة أميال من العاصمة ، وأربعة أيام في مقر القنصلية الفرنسية في بالما بعد ان طردهم « السنيور غوميز Senor Gomez » من دارته .

---

(١) « شوبان وجورج صاند في ميورقة » — بارتوميئو فيرا — منشورات « لاكارتواخا » — بالما — ص : ٨١ .

Twitter:@abdullah1994

وقد انتقلوا في الخامس عشر من كانون الثاني الى « دير فالديموسا — La Chartreuse de Valdemosa » حيث ألّف الفنان الكبير شوبان أعمالاً موسيقية على البيانو المايورقي القديم الذي كان موجوداً في صومعة الدير قبل وصول البيانو الفرنسي من ماركة « بليييل Pleyel » الذي استوقفته الجمارك مدة طويلة قبل السماح بنقله الى دير الشارتريين . ومن ثم غادروا فالديموسا نهائياً ، وأبحروا إلى برشلونة على الباخر ذاتها في الثالث عشر من شباط عام ١٨٣٩)

ما كان أعذب الأيام الأولى في الأراضي الاسبانية ! ! العاشقان والولدان والوصيفة أُعجبوا بمدينة برشلونة ، وقاموا بنزهات برية وبحرية للتعرف على معالم « كاتالونيا» وشواطئها أولا ، ثم بتقفد آثار « جزيرة الذهب » ، أي ميورقة ، بعد ان حطوا رحالهم فيها . وصفت لنا جورج صاند انطباعاتها عن الشعب الاسباني ، ورأيها فيه وفي الجزيرة الحالمة وصفاً دقيقاً للغاية في كتابها : : « شتاء في ميورقة » وفي رسائلها العديدة إلى اصدقائها في فرنسا، وكانت صريحة في الإعراب عن مشاعرها وآرائها ، شأنها في كل ما كتبت . أحبّت طبيعة الجزيرة ، وسماءها

Twitter:@abdulllah1994

الصافية ، وهواءها العليل ، والسكون الرائع المهيمن على لياليها خاصةً ، وانتقدت مظاهر التخلف فيها كبدائية الفنادق ، ووعورة الطرقات ، وتعصب السكان ، واقتصارهم على تناول أطعمة محدودة تفوح منها جميعاً رائحة الزيت والفليفلة بشكل غريب . فاللحم قليل ، ما عدا لحم الخنزير ، واللبن نادر ، وكذلك الزبدة والجبنة والخضار المتنوعة ، وهذا ما أرغمها على بذل جهود كبيرة ، وإضاعة أوقات ثمينة لتأمين مواد غذائية أساسية ، والاشراف على طهيها بنفسها لشوبان وولديها بمساعدة وصيفتها . بحثت عن بيت تستأجره منذ وصولها إلى « بالما » لاستحالة بقائها مع الرفاق في فندق صغير يشبه الخانات ، لا يوجد فيه فراش وثير ، ولا طعام يؤكل ، وكادت تيأس وتعزم على الرجوع إلى فرنسا لو لم تعثر على بيت كبير بمساعدة القنصل الفرنسي . وهنالك ، على بعد خمسة أميال من « بالما » ، في بيت«السنيور غوميث » العتيق الذي تمّ استئجاره،بدأت المأساة الحقيقية التي عاشها العاشقان في ميرقة . بعد بضعة ايام من انتقالهما اليه تلبدت الغيوم في سماء الجزيرة وبدأت الامطار تنهمر دون انقطاع ، أسبوعاً تلو أسبوع ، على غير عادة . كانت امطاراً غزيرة لم تشهد الجزيرة مثلها في تاريخها ، لا سيما في فصل الخريف ، فارتفعت نسبة الرطوبة في كل مكان ، على الرغم من

Twitter:@abdulllah1994

اعتدال درجة الحرارة ، وعاود شوبان السعال . اما هي فقد اغنتنا عن الوصف إذ كتبت تقول : (لا يمكن لأحد ان يغفر للميورقيين افتقار بيوتهم إلى أبسط وسائل الراحة ، وقلة حيطتهم لمواجهة كارثة الرياح والأمطار . لا نوافذ ولا أبواب ولا جدران ولا سقوف في البيوت الصغيرة والقصور الا وينفذ منها الهواء والماء . لا شك في ان إسم البيت الذي استأجرناه « دارة الهواء » إسم على مسمى ، انما كان ينبغي ان يطلق عليه اسم : « بيت الطوفان ! » لقد أخذت جدرانه الرقيقة تنتفخ من شدة الرطوبة وكأنها قطع من الأسفنج ، ولم أشعر في حياتي بالبرد يتغلغل في عظامي كما شعرت هنا ، في بيت موحش يتراقص فيه الهواء ، وتنزّ المياه من أطرافه ، وتندلق من نوافذه وأبوابه وسقفه مما جعله بمثابة معطف من الجليد يلف جسمي ، ويشلّ حركتي . فكيف لا يمرض شوبان ، ذو الحنجرة الحساسة ، وكيف لا يشتدّ سعاله ولا تخنقه وتخنقنا رائحة الفحم الذي كنا نشعله ونوزعه في غرفنا للتدفئة ، وهو وسيلتنا الوحيدة لمكافحة البرد والرطوبة ؟ ومنذ ان استدعينا أطباء المدينة الثلاثة وفحصوا مريضنا بدقة أصبحنا أناساً موبوئين ، خطيرين ، غير مرغوب فيهم في مدينة بالما . لم يبق أحد فيها الا وعلم ان أحدنا إنسان مسلول ، وأن مرضه وباء معد ، وداء سار ...

Twitter:@abdulllah1994

اما لماذا سرت الاشاعة الكاذبة فأنا لا أدري حقاً ، لا سيما وان الأطباء الاسبان الذين أشرفوا على معالجة شوبان شخّصوا إصابته بالتهاب في الحنجرة ، واحتقان في الرئة هو ما ندعوه نزلة صدرية ... وذات صباح ، بينما كنا نتذاكر للخروج من محنتنا تلقينا خطاباً فظـاً من صاحب الدارة يطلب منا إخلاءها باسرع ما يمكن لأن المريض الموجود معنا يحمل وباءً خطيراً معدياً ! فما العمل اذن ؟ لا حلّ سوى الانتقال بدون أسف من قصر الشؤم الذي كرهناه، وأوشك ان يقضي علينا ، ولكن إلى أين ، ما دام سكان « بالما » يشمئزون منا ، ويهربون ؟ ولولا كرم قنصل فرنسا، « السيد فلوري — Mr. Fleury » الذي أضافنا في بيتـه بضعة أيام ، حيث نعمنا بالدفء ، والغذاء الجيد ، لكنا في أحد الكهوف ، كما يبيت الغجريون . وبما ان حالـة مريضنا لم تكن تسمح له بتحمّل أعباء السفر أخذنا نبحث عن مكان آخر في الجزيرة نأوي اليه ، فحدثت المعجزة إذ اهتدينا إلى دير قديم في بلدة « فالديموسا » حجزته الحكومة الاسبانية بعد ثورة عام ١٨٣٥ ، وطردت رهبانه ، ثم حوّلته إلى فندق للاستثمار . لقد سحرني جمال الموقع وجلال البناء ساعة قمت بزيارته ، وسعدت بشراء أمتعة عائلة اسبانية كانت ملتجئة في إحدى صوامعه المؤلفة من

Twitter:@abdulllah1994

ثلاث غرف كبيرة تطل على فناء رائع ، فاستأجرت الصومعة دون تردد ، ونقلت اليها بيانو كان موجوداً في الدير ، وعدت إلى بالما يومئذٍ تحت الطوفان لأنقل أسرتي الغالية وأبشّرها بالفرج)[1].

حتى الفرج الذي استبشرت جورج باقباله كان سراباً ككل سراب ، مبهجاً للنفس ، مبهراً للعين ، ولكنه مخيّب للآمال ، ومضنٍ للروح! صحيح ان الدير ، وحدائقه الغناء التي كان يفوح منها أرج الرند والآس والريحان ، ومطلاته المتنوعة على البحر والوديان ، والأحراج ، تشكل إطاراً ساحراً ، وصحيح أن البيانو المهلهل ، والخرب تقريباً ، الذي وضعته جورج في غرفة الحبيب آنسه وألهاه بعض الوقت عن التفكير في سعاله واعيائه ، وصحيح ان الكاتبة العبقرية تمكنت من السهر على عملها طوال سبعة أسابيع ، بعد الفراغ من واجباتها كأم تدرّس أولادها، وحبيبة تمرّض حبيبها ، وطاهية تعد الطعام ، وصحيح ان إبنها موريس تعافى تماماً من الروماتيزم ، وتبلورت موهبته كرسام ماهر ، ولكن ذلك الشتاء في الجزيرة الرائعة كان

---

(١) « شتاء في ميورقة – جورج صاند – منشورات كولومبا – بالما – ١٩٥٨– ص : ٥٩ – ٦١ .

Twitter:@abdulllah1994

مأساوياً بالقياس إلى العاشقين ، على الرغم من أن مأساته فجرت فيهما ينابيع ثرة من الإبداع الفني والأدبي ! ليس القصد من ذكر المأساة تردّي العلاقة بين العاشقين على الإطلاق لأنهما كانا على أتم وفاق ، ورجعا من الجزيرة إلى فرنسا أشدّ تعلقاً الواحد بالآخر مما كانا عليه يوم قدومهما اليها . فلقد دام الحب الكبير بينهما ثمانية أعوام ونيّف وكان اتحاداً روحياً وفكرياً أكثر مما كان نزوة عاطفية ، وصلة جسدية ، ولكن المأساة الحقيقية التي عانياها في ميورقة مأساة مزدوجة : المرض الرهيب الذي استوطن في جسم شوبان ، والحرب العنيفة التي شنّها سكان الجزيرة برمتهم على جورج صاند ورفاقها . اما المرض فقد استعصى في رئتي الفنان وأخذ يبصق دماً فأشار الاطباء بفصده وحميته الا من الألبان ومشتقاتها ، في حين أن جورج صاند خالفتهم في الرأي ، مؤكدةً ان المريض ليس مسلولاً ، وان ظهور الدم في لعابه ناتج عن تهيّج عصبي في المريء واحتقان في الحنجرة ، وهذا يعني ان الفصد والحمية سيقضيان عليه . ولندعها تحدثنا عن تلك الأيام العصيبة بنفسها : (اعتمد الطبيب على عوارض المرض التي شاهدها بنفسه فنصح بحمية المريض ، وفصد دمه ، وتغذيته بالألبان . أما انا التي كنت ألازمه ليل نهار ، فقد كنت أشاهد عوارض أخرى تنفي اصابته

Twitter:@abdulllah1994

بالسل ، وتحذر من فرض الحمية عليه ، ومع ذلك كنت أرتعد في سرّي خشية ان يكون الطبيب محقاً في تشخيص الداء ووصف العلاج . كان شوبان موافقاً على تجنب الحمية والفصد فامتنعنا عن تطبيقهما ولكني أصبحت نهباً للوساوس والمخاوف . يا لها من ليالٍ ممضــة ، منهكة ، لن انساها ما حييت ، كنت أقضيها مسهّدة بصحبة هاتفين مختلفين : كان الأول يطمئنني إلى صحة المعالجة ، ويطرد من بالي كل سوء ، فأشعر بالراحة هنيهة ، ولكن سرعان ما كان الثاني يحمّلني المسؤولية الجسيمة هامساً في أذني : « إذا بقيت على عنادك سوف تقتلينه ! عملية فصد واحدة كفيلة بانقاذه ، فهيّا أقدمي عليها لأن فيها نجاته » ، لا بد من أن يشعر كل من يقرأ هذه الصفحات بالجزع الذي كان يسيطر علي عندما كنت أرى بعيني إنهيار صحة شوبان ، لكن حدسي هو الذي انتصر أخيراً لأن الهاتف الأول الذي زوّدني بقوة خارقة كان صوت القدر الرحيم، بلا ريب! واليوم وقد ثبت للملأ أنه لا يوجد أثر للسل في جسمه أراني أحمد الله الذي أضفى علي الايمان والثقة بالنفس ، والذي أنقذنا من الكارثة !)

اما عن معاداة الناس لجورج صاند ورفاقها في ميورقة فان لها أسباباً كثيرة لا بد من أخذ وضع الجزيرة المغلق

Twitter:@abdulllah1994

والمحافظ ، بل والمتعصب ، بعين الاعتبار لتفهمها . لقد استنكر سكان الجزيرة النائية وضع هؤلاء الغرباء العائلي الشاذ الذين أتوا للاقامة معاً تحت سقف واحد : امرأة متحررة في الرابعة والثلاثين من العمر تدخّن السيجار في الطرقات ، وتجرّ معها ولدين : صبي في الخامسة عشرة ، وفتاة في العاشرة من العمر ، وشاب فنان ومريض ، لا هو زوجها ، ولا هو قريبها ... واستهجنوا أيضاً امتناع هؤلاء القادمين عن ممارسة طقوس الديانة ، وانزواءهم في كل مكان قطنوا فيه . لنعد مرة أخرى الى جورج صاند ومؤلفاتها حيث نقرأ ما كتبته في هذا الصدد : (أبرز ما في طبيعة سكان ميورقة ، ولا سيما الريفيين منهم ، الحذر من كل غريب يفد عليهم ، والانطواء على النفس . يكفي ان تكون غريباً لكي يشيحوا بوجوههم لدى مرورك أمامهم . لقد كان تعايشنا معهم بسلام ممكناً لو أثبتنا وجودنا في كنائسهم . فلو فعلنا لما تعرضنا إلى الرجم والابتزاز في كل مناسبة ومكان . ولكن تلك الحصافة فاتتنا لسؤ الحظ ، ولم نتنبّه إلى عواقب امتناعنا عن الصلاة معهم ، وحضور قداس كل يوم احد ، فلو فعلنا لما تعرّضنا لمزعجات كثيرة في الاسواق طوال إقامتنا

---

(١) شتاء في ميورقة – جورج صاند – ص : ١٧٥.

Twitter:@abdulllah1994

في الجزيرة . كانوا يسموننا : زناديق ، ومحمديين ، ويهوداً ، وهذه أعظم مسبّة في نظرهم ، واهتدوا الى وسيلة للانتقام لمجد الله ، لا تمتّ إلى المسيحية بصلة ، ذلك انهم تواطأوا على بيعنا السلع التموينية باسعار باهظة ، واذا ما ساومنا بائع السمك مثلاً ، او البيض ، او الخضار كان يقول لنا باستنكار : ما دمتم لا تقبلون بالسعر المطلوب فلن تحصلوا على شيء ! وهذا يعني انه كان يفرض علينا الصيام لمعاقبتنا ... ولولا عون طاهي القنصلية الفرنسية الذي كان يموّننا في أيام الصحو لكنا متنا من الجوع ، غير أن غزارة الأمطار كثيراً ما كانت تمنعه من الوصول الينا مما جعلنا نستعيض عن الخبز بالبسكويت ، ونكتفي بوجبات طعام هزيلة[1]) .

وحدثتنا جورج صاند أيضاً عن خادمتين كانت تستعين بهما لتنظيف الصومعة وإعداد الطعام ، فقد اتفقتا على سرقة اللحم والبيض والسكر والوجبات الدسمة التي كانت تحضرّها لحبيبها المريض وولديها ، حتى اضطرت الى حراسة المطبخ بالتناوب مع وصيفتها ، وموريس ، وصولانج ! أما شوبان فقد أضحى عصبي المزاج ، يغضب لأتفه الأسباب ، لا يسمح لها بالابتعاد عنه الا عندما كان يشعر ببعض التحسن

---

(١) شتاء في ميورقة – جورج صاند – ص : ١٦١ و ١٦٢ .

Twitter:@abdulllah1994

ويستغرق في العزف والتأليف على آلة بالية تزيد اضطرابه النفسي وضيقه ، ومع ذلك كان يستنبط منها أعذب الألحان. وتعزو الكاتبة تعنّت الجمرك الاسباني في تخليص البيانو الذي شحنته من باريس إلى تآمر رجاله في بالما عليها وعلى صحبها ! فلم تتمكن من تخليصه من الجمارك إلا قبل ارتحالها من الجزيرة بعشرة أيام ! وقد تركته فيها موكلةً القنصلية ببيعه كي توفّر على شوبان نفقات شحنه من جديد إلى فرنسا . لقد أحاطت الحبيب العليل بأقصى العناية لأنها كانت مصممة على شفائه رغم كل الالآم النفسية والعقبات التي داهمتها، فتحلّت بالصبر ، ولم تترك وسيلة لتغذيته وتقويته الا ولجأت اليها : فلما كان اللبن اليومي يصلها مخلوطاً بالماء ، وهو غذاء أساسي لشوبان ، ابتاعت عنزة إفريقية لحلب لبنها صافياً ، ومن أطرف مقاطع كتابها « شتاء في ميورقة » وصفها لتلك العنزة اللطيفة التي أنستها خشونة الناس المحيطين بها في الدير وفي البلدة . يبدو ان العنزة أحست بالوحدة في حديقة الدير فابتاعت لها جورج صاند رفيقة كي تؤنسها وتزيل عنها الكآبة وكابوس الوحدة . كما انها تفنّنت بإعداد الحلويات لشوبان متخذةً من اللبن الدسم أساساً لصنعها، وكانت تضع فيها كميات كبيرة من اللوز المهروس المتوفّر في الجزيرة بكثرة، وكتبت تقول في ذات الفصل من كتابها المشار اليه : (كنت

Twitter:@abdulllah1994

مستعدة لبذل كل ما أملك في سبيل الحصول على قدح نبيذ فاخر لشوبان ، وطبق حساء دسم ، وكانت أعظم فرحة عندي رؤية طاهي قنصليتنا في « بالما » قادماً الينا مع سلال ممتلئة بالمؤن المرتقبة !) وفي موضع آخر قالت : (ان مجرد التفكير بضغينة الناس وعداوتهم لنا يولّد في النفس شعوراً بالحزن، وكنا نزداد تعلقاً بعضنا ببعض وحباً لنعوّض ما افتقدناه من محبة الناس ومواساتهم ولطفهم . واني اعتقد ان قلب الانسان يتدفق بالعاطفة ويكبر إبان تعرضه لمثل هذه المحن ، ومع ذلك كنا نتألم كثيراً لوجودنا في بيئة لا يعطف علينا أفرادها ولا يفهموننا)[1].

لم تكن جورج صاند مغاليةً عندما قالت ان سكان الجزيرة كانوا متخلفين في تفكيرهم ونهج حياتهم عن فرنسا، ولو عاشت في القرن العشرين ، وأمّت ميورقة مع شوبان وولديها في الربع الأخير منه لأذهلها التقدم الذي أحرزته الجزيرة في كل مجال ، عمرانياً وسياحياً واجتماعياً ، ولوجدت من المجتمع الشعبي والرسمي ترحيباً بها وبشوبان منقطع النظير ! ففي حقبة من الزمن مقدارها قرن ونصف القرن

---

(١) شتاء في ميورقة – جورج صاند – ص : ١٧٤ .

Twitter:@abdulllah1994

تغيرت الدنيا ومن عليها ، ولا سيما في اسبانيا التي عرفت ازدهاراً سياحياً ، وتقدماً فكرياً وفنياً كبيراً . نشرت كتابها عن الجزيرة في « مجلة العالمين » بعد عودتها بعامين فأثار سخط الأسبان القليلين الذين اطلعوا عليه اذ وجدوا فيه قسوة وتحاملاً . ولكن رأي الاسبان في الكتاب المشار اليه قد اختلف في يومنا الحاضر عما كان عليـــه في القرن الماضي إذ جاء في كتاب الأديب الميورقي المعاصر « بارتوميئو فيرّا — Bartomeu Ferra » ما يلي :

(كان لا بد من انتظار نهاية القرن التاسع عشر لكي يتقبل الاسبان أفكار جورج صاند المتحررة ، ولكي يكتشف أديب مرموق مثل « ميغـــل اوليفر — Miguel Oliver » الجمال الأدبي الكامن في « شتاء في ميورقة » ، وروعة الوصف لطبيعتها الخلابة . يوم أقامت الاديبة صاند في الجزيرة لم تكن شخصيتها معروفة الا قليلاً ، غـــير ان شهرتها كامرأة متحررة ثائرة رافقتها يومئذ كما رافقها السيجار الذي كان يستهجنه الناس في فمها ، وهذا ما جلب لها المتاعب وسخط الميورقيين ، ناهيك عن أنهم كانوا متزمتين ، شديدي التقيد بالدين والتقاليد ، وغير مستعدين للترحيب بالغرباء المقبلين عليهم لأن الجزيرة اضطرت

Twitter:@abdulllah1994

لايواء عشرين ألف اسباني هاجروا اليها في اعقاب الحرب الداخلية التي نشبت عام ١٨٣٣ في شبه الجزيرة الايبيرية بين أنصار « دون كارلوس » ، شقيق الملك « فرناندو السابع » وبين خصومه المؤيدين لوصاية « ماريا كريستينا» على عرش أسبانيا . واذا أضفنا إلى ما سبق وضع العاشقين الرومنطيقيين الشاذ ندرك بسهولة تبرّم المجتمع الميورقي بهما ، وإقفال بيوته في وجههما . كانت النساء تهرب من جورج كمن يهرب من الطاعون ، ولم يستقبلها أحد غير قنصل فرنسا ، وأسرة رجل المصارف « كانوت – Canut » اذ كانت تحمل اليه رسائل توصية لإنجاز معاملاتها المالية في الجزيرة . وقد أعطتنا زوجته لوحة لجورج صاند في مذكراتها مغايرة للوحة التي نتخيلها عندما نسمع عن تهتكها، وخروجها على كل مألوف بلباسها ، وتدخينها ، وسائر تصرفاتها . وصفتها وصفاً دقيقاً مطابقاً للوحة الفنية التي رسمها الفنان الفرنسي « أغوست شاربانتييه Auguste Charpentier » في ربيع عام ١٨٣٨ في نوهان : امرأة جذابة، وساحرة العينين ، جميلة الشعر ، ترتدي ثوباً بسيطاً داكناً ، ويطوّق عنقها شريط مخملي يتدلى منه صليب ماسي ، ويزين معصمها سوار مرصع بالأحجار الثمينة) [١] .

(١) شوبان وجورج صاند في ميورقة – بارتوميئو فيرا – ص : ٥٤ حتى ص٥٧.

Twitter:@abdulllah1994

ان كتاب « فيرا » ممتع للغاية ، ومهم جداً لأن المؤلف تحرى الحقيقة فيه ، ولم يعتمد الاسطورة . ولقد أنصف جورج صاند دون ان يجور على أبناء قومه ، لكنه انتحل لهم الاعذار انطلاقاً من مؤثرات بيئتهم ، والتقاليد التي ورثوها ، فكان بذلك واقعياً وموضوعياً .

كانت حصيلة تلك المأساة المزدوجة التي حلت بجورج صاند وشوبان في ميروقة آثاراً أدبية وفنية رائعة : بعد ان كتبت فيها جورج آخر فصول روايتها الكبيرة « سبيريدون— Spiridon » جاعلةً من لوحات الطبيعة التي جاورتها إطاراً لتلك الرواية الثائرة ، انكبت على روايتها المشهورة « ليليا » فعدّلت الكثير من فصولها ، وأرسلتها إلى ناشرها في باريس لإعادة طبعها . كما انها بدأت بإعداد دراسة نقدية عن كل من « غوتي » و « بايرون » و « ميكيوبتش— Mickiewicz » الشاعر البولوني العظيم ، فجاءت آية في الأدب المقارن . اما « شتاء في ميورقة » فهو أثر أدبي ممتاز خلّد رحلة العاشقين إلى الجزيرة الاسبانية الساحرة وكان ، وما زال ، أفضل كتاب عن معالمها الاثرية والجغرافية والطبيعية ، حسب رأي النقاد الغربيين . لقد كانت جورج صاند رائدة لمدرسة الرسامين الانطباعيين في وصفها الرائع لمشاهد الطبيعة الموحية ، وسحر الوانها في الفجر ووقت

Twitter:@abdulllah1994

الغروب ، وروعة لياليهـــا سواء في أوقـــات الصحو او في حالات الإعصار . صوّرت الهضاب والشواطيء ، الأحراج وبساتين اللوز ، الزهور والطيور والمراعي ، وصفاً شاعرياً دقيقاً ، وكثيراً ما كانت تصغي للأصوات المنبعثة من الشجر والنبات في تأملاتها فتسرح معها إلى ما وراء الطبيعة مسبّحة بعظمة الخالق ، ومستوحية من جرسها العذب قوة وأملاً وسكينة ، ومتغلغلة في روح الأشياء والأماكن . ومع انها اعترفت بعدمية الكلمات حيال ذلك الجمال ، وبعجزها عن التعبير عن مشاعرها إزاءه ، لخـّصت إعجابها بميورقة في جملة أضحت مشهورة إذ قالت : « انها سويسرا الخضراء ، تحت سماء الجنوب الايطالي ، مع جلال الشرق وسكونه ! » وفي الفصل الأخير من كتابها عن ميورقة عبرت عن تأسيـّها لتخلـّف الميورقيين ، وبعدهم عن حضارة العصر وروحه ، وقالت ان الزمن توقـّف عن دورته عندهم ! كما أعربت عن تألمها لحالهم ليقينها بأننا مرتبطون بحياة الآخرين ومصيرهم ارتباطاً روحياً وأدبياً ، وان كانوا بعيدين عنا ، وأننا أفراد أسرة كبيرة لا يستغني فيها أحد عن غيره ، ولا نكون بشراً سوياً الا اذا أحببنا بعضنا بعضاً ، وتفهمنا بعضنا بعضاً ، وساعدنا بعضنابعضا. وفي شرحها للمشاركة الإنسانية أوضحت جورج صاند

Twitter:@abdulllah1994

آراءها وفلسفتها فقالت : « يخيّل اليّ ان ذوي القلوب الكبيرة يسعون الى النهوض بالذين دونهم علماً ، وفهماً ، وتطوراً لينعموا بحياة المشاركة ، والألفة ، والمساواة التي هي أسمى هدف للضمير الانساني ، ومثله الأعلى »[1] .

وجاءت خاتمة الكتاب أصدق تعبير عن عقيدتها الانسانية ، سبكته بعبارات بسيطة ، مقنعة ، وأسلوب جزل رشيق :

« وإذا كان لقصّي في ميورقة التي سردتها بإخلاص ، وربما بسذاجة من مغزى فهو أن الانسان لم يخلق ليعيش مع الأشجار والحجارة ، والسماء الصافية ، والبحار اللازوردية ، والأزهار والجبال ، انما خُلق ليعيش مع أمثاله ، وليشاطرهم الحياة . اننا نحسب ، في أيام شبابنا العاصفة، أن العزلة عن الناس هي أفضل ملجأ يحمينا من عوادي الزمان ، ويصدّ عنا الهجمات ، ويكون الدواء الناجع للجراح . فيا له من خطأ فادح ، لأن اختبار الحياة يعلمنا بأن العيش بعيداً عن الجماعة يحرمنا من الاستمتاع بالجمال والفن، ومن الإعجاب الوجداني بمظاهرهما ! كثيراً ما حلمت بالعيش وحيدة في الصحراء ، وكثيراً ما تراود هذه الرغبة ذوي القلوب الطيبة الحالمة ، ولكن صدقوني إذ أقول لكم أيها الأشقاء إن في

---

(١) « شتاء في ميورقة » – جورج صاند – ص : ١٧٢ .

Twitter:@abdulllah1994

قلوبنا فيضاً من الحب يجعل استغناءنا عن الآخرين أمــراً مستحيلاً . فالأفضل لنا إذن أن نحتمل بعضنا بعضاً ، ونساند بعضنا بعضاً لأننا مثل أولئك الأطفال الذين رضعوا من ثدي واحد : انهم يتكايدون ، ويتنازعون ، ويتضاربون أحياناً ، ولكنهم مع ذلك لا يقدرون على الافتراق) [1] .

ينبغي لمن يعرض أعمال جورج صاند الأدبية في ميورقة ألا يهمل ذكر رسائل رائعة بعثت بها من الجزيرة إلى اصدقائها في فرنسا نفّثت بها عن كربها ، ووصفت البيئة المحيطة بها، ومشاعرها، ومرض شوبان ومزاجه، فجاءت متمّمة لكتابها « شتاء في ميورقة » . جمعت هذه الرسائل مع رسائل شوبان لأصدقائه من الجزيرة وحققتهــا السيدتان : « دونّيز غولفس شيناي ، وسوزان شيناي — Denise G. Chainaye, et Suzanne Chainaye » ونشرتاها في مدينــــة « بالما » عام ١٩٦٩ [2] . كان العاشقان في حاجة ماسة للتحدث إلى

---

(١) « شتاء في ميورقة » — جورج صاند — ص : ١٩٢ .

(٢) من عنوان هذا الكتاب : « رسائل شوبان وجورج صاند في ميورقة — ١٨٣٦ — ١٨٣٩ » نلحظ أنه تضمن رسائل العاشقين في غضون ثلاث سنوات أي أنه شمل رسائل ما قبل الرحلة وما بعدها .

Twitter:@abdulllah1994

أصدقائهما البعيدين عنهما ، وعلى اتصال مستمر بدور النشر التي تعهدت طباعة آثارهما ، وجرت على تسليفهما مبالغ من المال عن كل عمل جديد يؤلفانه ، وبفضل تلك الرسائل يكوّن الباحث عنهما فكرة واضحة ، ويستطيع أن يقدم دراسة تاريخية مستندة إلى وثائق خطية كان العثور عليها في هذا القرن ، وجمعها ونشرها ، أعظم خدمـة للأدب والفن .

هذا عن الحصيلة الأدبية لمأساة العاشقين العبقريين في رحلتهما إلى الجزيرة الاسبانية ، أمـا أثرها في الفنان العليل فقد كان عميقاً للغاية إذ تجلى في سلسلة من الأعمال الموسيقية الخالدة اتصفت بالحزن ، والحنين إلى الوطن ، وصورت نوازعه النفسية بألحان عذبة ملائكية . ان مـن يتابع تطور مرضه المؤلم في ميورقة عبر رسائله ومؤلفاته يدرك معاناته المريرة ، ويعزو قدرته على العمل ، رغم الإعياء ، إلى عطف جورج صاند عليه ، وحدبها ، ومداراتها له ، وحبها العميق المطلق الخالي من كل أثر للأنانيـة . لنحاول قليلا تصوّر شاب عاشق فنان يُقبل على رحلـة حب مع أديبة تحبه وتجله فلا يكاد ينعم بها ، ويذوق طعم الفرح ، حتى يداهمـه المرض فيرديه طريح الفراش ، ويغتال كل آماله وأحلامه ! لقد فُجع بصحتّه ولكنه

Twitter:@abdulllah1994

لم يفجع بالحبيبة التي طوقت عنقه بعنايتها الدائبة ،وتضحيات متواصلة كان يلمسها ويقدرها ، بل كان ضميره يؤنبه لاعتقاده بأنه حرم الحبيبة من الراحة ، ومن حرية التنقل ، وحمّلها مسؤولية ضخمة . كتب من بالمـا إلى صديقه « ألبير غرزيمالا في الثالث من كانون الأول عام ١٨٣٨ يقول : (يا عزيزي : أرجو ان تضع في البريد الرسالة المرفقة إلى والديّ في بولونيا . حتّى غاية اليوم لم نتلق بعد أخبارك ، وكثيراً ما نتحدث عنك . اني أسعل سعالاً خفيفاً أحياناً ، وحاداً أحياناً أخرى ، ونحن نعيش في بلد شيطاني فيما يختص ببريده ، ورجاله ، ووسائل الراحة ! سماؤه جميلة مثل روحك ، وتربته سوداء مثل قلبي . أحبك دائمـاً [(١)] .

شوبان .)

لقد عبر عن كربه وتشاؤمه بعد انقضاء الشهر الأول على الإقامة في الجزيرة ، فكيف لا يزداد اكتئابه وتشاؤمه ، وحزنه على صحته ، الهزيلة أصلاً ، وقد استقرت العلة الخبيثة في صدره ، وأنهكت قواه؟ عندما وصل إلى جناح الدير في بلدة « فالديموسا » ووجد فيه البيانو العتيق انكبّ

---

(١) « رسائل شوبان وجورج صاند - ١٨٣٦ - ١٨٣٩ - ص : ٥٣ .

Twitter:@abdulllah1994

عليه بشوق ، وأخذ يضع مؤلفات جديدة كان منهـا الجزء الأكبر من مجموعته « المقدمات Les préludes » و « البالاد الثانية — La 2ème Ballade en Fa Majeur » التي بدأ بتلحينها عام ١٨٣٦ ، وأهـداها إلى زميله « شومان Schumann » و « المازوركا الثانيـة — 2ème Mazurka en Mi Mineur » وإحدى مقطوعاته الثلاثة المعروفة باسم « البولونيات » . ومن ملجئه في الدير كان يبعث بتلك المؤلفات العالمية لصديقه « جول فونتانا — Jules Fontana » تباعاً ، ففي نهاية كانون الأول كتب إليه يعامه انه يعمل على تأليف تتمة « المقدمات » ببطء ، وفي الثاني والعشرين من كانون الثاني كتب اليه يقول : (تجد طيّه « المقدمات » الموعودة ، أرجو أن تعيد نسخها ، ولا أحسب أن فيها أخطاءً ، كما أرجو أن تسلم المخطوطة إلى السيد « بلييل Pleyel » . أما المقدمة الخامسة عشرة من مقدماتـه المشهورة الأربع والعشرين فان لها قصة مؤثرة جداً ، بل حادثة مقلقة جرت لجورج صاند في يوم عاصف اضطرب لها شوبان ، وأيما اضطراب ، فجلس الى البيانو حزيناً قلقاً ليعبّر عن مشاعره بالألحان ، ويصوّر وقع حبات المطر المتواصلة الرتيبة على قرميد الدير ، وبللور النافذة . روت لنا جورج صاند تلك القصة في كتابها « قصة حياتي »

Twitter:@abdulllah1994

الذي ألفته بعد انقضاء عدة أعوام على رحلتها إلى الجزيرة فقالت انها توجهت إلى مدينة « بالمــا » ذات صباح برفقة ابنها موريس لتتفقد البيانو الذي كان موقوفاً في دائرة الجمارك الاسبانية . كان الجو صاحياً ساعة غادرت الدير، والطريق إلى العاصمة طويلة وشديدة الوعورة ، ولكن السماء تلبدت فجأة وبكثافة ، وقت الظهر ، وأخذت الأمطار تتدفق بقوة، ساعةً بعد ساعة ، إلى أن تحولت إلى سيول جارفة في المساء فتعرضت إلى خطر الموت غرقاً وهي في طريق العودة في عربــة خيل إذ جفــل الحصان بعــد تعثره في حفرة عميقة غطتها مياه السيل ، ففقد السائس أعصابه ، وشاهدت عن قرب نهراً من الوحل يسير مسرعاً نحو الدرب التي كان عليهم ان يجتازوها صعوداً للوصول إلى هضبة البلدة ! تملكها إذ ذاك الخوف ، وأدركت انهم مقبلون على الهلاك المحتم بعد دقائق قليلة ، ولكنها استعادت ثقتها بالنجاة لحظة نظرت إلى ابنها ورأته هادئاً كالمعتاد، فشعرت بالارتياح لأن وجوه الأحداث والأطفال لا تخطيء تعابيرها في مثل هذه الأزمات ، فإما ان يرتسم عليهــا سحاب قاتم ينذر بسوء وشيك الحدوث ، أو أن تكتنفها إشعاعات نور يبشر بالخلاص . وعندما تابعت العربة سيرها المحفوف بالمخاطر ، وبلغت رأس الهضبة ، ترجلت

Twitter:@abdulllah1994

منها مع ابنها وعزمت على قطع ما تبقى من الطريق سيراً على الأقدام . استغرق قطع ميل واحد ثلاث ساعات تحت عاصفة هوجاء إلى ان بلغا الدير في حال من الإعياء الشديد ، وقد بلل ثيابهما المطر الغزير ، ومزقت أحذيتهما الصخور والأحجار المتدحرجة على الدرب العسير . وصفت لنا جورج صاند حالة شوبان ساعة رآها أمامه مع ابنهافقالت : (كنا نضاعف خطانا في آخر الطريق لنجنّب مريضنا مزيداً من القلق ، وكان قلقه علينا قد تحول إلى القنوط كما تبين لنا من بعد ، فوجدناه جالساً أمام البيانو يعزف ويبكي ! ولكنه نهض مذعوراً عندما سمع وقع أقدامنا ، وصرخ يقول : « حمداً لله ! كنت متأكداً من أنكما قضيتما نحبكما ! » بعد ان هدّأنا من روعه واستعدنا هدوءنا باح لي بأنه تخيل كل ما اعترضنا من مخاطر فتملكه الهلع ، ومن ثم غلبه النعاس فشاهد نفسه يغرق في بحيرة عميقة ، ولما أفاق من سباته جلس إلى البيانو وألف المقدمة التي حاكى بأنغامها وقع حبات المطر على القرميد والبللور ، وترجم فيها نداء قلبه الواجف بل ابتهاله للسماء لكي تعيدنا إليه ! عندما سمعت مقطوعته السماوية هذه قلت له انني وجدت في إيقاعها تصويراً بارعاً لصوت المطـــر فغضب من هذا التشبيه ورفضه ، وكان محقاً لأن عبقريته

Twitter:@abdulllah1994

فوق كل محاكاة للطبيعة . لا شك في أن عبقريته تزوّد أفكاره الموسيقية بأنغام متآلفة يترجمها بالألحان الخارقة التي يفيض بها قلبه وخياله !) [١]

ونحن اليوم عندما نصغي إلى روائع شوبان ، وإلى الأغنية الحزينة الطافحة بالدموع ، جالسين على مقعد وثير في بيتنا ، أو في إحدى القاعات الموسيقية ، ترانا نحلق مع ألحان الموسيقار العذبة إلى عالمه العلوي ، ولكن قلما يخطر في بالنا ان شوبان أبدع مقدماته الموسيقية الشجية يوم كان محموماً ، وفريسة مرض عضال يأكل حبات قلبه ، ونسيج رئتيه ، شيئاً فشيئاً . لقد شهدت حجرات دير فالديموسا ، ذات العقود البيضاء المقببة ، والنوافذ الرومنطيقية المطلة غرباً على البحر ، وجنوباً على حديقة غناء وتلال خضراء تفوح منها رائحة الصنوبر والسرو ، وشرقاً على فناء داخلي تظلله أغصان الحور والصفصاف ، وتتدلى من جدرانه باقات الزهر ، أعظم وأغرب قصة حب وتضحية سجلها تاريخ العشاق في العالم . وما زالت تلك الحجرات قائمة حتى غاية اليوم بكل جمالها وجلالها ، وجميع محتوياتها الأثرية يوم اتخذها شوبان وجورج صاند

(١) « قصة حياتي » – جورج صاند – الجزء الرابع ص : ٤٣٩ – – ٤٤ .

Twitter:@abdulllah1994

مأوى لهما ومقراً ، في شتاء بارد وممطر قلما عرفت جزيرة ميورقة مثله في تاريخها . وعندما يتوافد عليها السياح من مختلف أقطار العالم يشاهدون عن كثب الأسرّة التي نام عليها أبطال القصة ، والآنية التي استعملوها ، والبيانو العتيق الذي استنبط منه الفنان المريض ألحاناً رائعة ، والطاولة التي كانت جورج صاند تركن اليها في هدوء الليـــل لتكتب أجمل القصص والرسائل . كما يشاهدون الرسوم البديعة التي وضعها ابنهـــا موريس ، وصوّر فيهـــا بأمانة الصومعة والدير ، والمناظر المحيطة به ، فيتوقفون عند كل أثر وقد تملكهم التأثر، وحملهم الخيال إلى الماضي القريب يوم كانت ملجأً لعبقريين متحابين ، وحدثين سعيدين كانا يملآنها حياة وضحكاً ، وضجة ! كانلوجود موريس وصولانج فضل كبير في جعل الشتاء الحزين باسماً باعتراف شوبان وجورج صاند ، وهذا ليس بمستغرب لان مرح الأولاد وصخبهم ، ورنات ضحكاتهم ، وحرارة أنفاسهم إشعاعات أمل ونور في أحلك الساعات ، ووعود بغدٍ يعبق بالحب والخير ، بل تمائم رحمانيـــة تطرد الوساوس من الصدور .

تقول جورج صاند ان الزائر الوحيد الذي كان يتردد على شوبان كان شاباً فناناً من بلدة « فالديموسا » يدعى

Twitter:@abdulllah1994

« فيسينتي كولوم – Vicente Colom » وان الفرح كان يدخل معه ساعة قدومه إلى الصومعة في المساء حيث كانت أصداء البيانو والكمان تهز أروقة الدير طرباً حتى ساعات الصباح الأولى . كان « كولوم » يعزف على كمانه رقصات شعبية ميورقية سرعان ما كان شوبان يلتقط إيقاعاتها ويصاحبه على البيانو ، ولكن الشاب الموسيقي كان يؤثر الإصغاء إلى الموسيقار العبقري وهو يترجم حنينه إلى الوطن ووجده في ألحان شبيهة بالابتهالات الصوفية التي تغمر النفس بنشوة ما بعدها نشوة . ويوم أزهر شجر اللوز في الجزيرة وظهرت تباشير الربيع في شهر شباط ، ووصلت من فرنسا آلة البيانو التي تشفي الغليل ظنت جورج صاند ان الصحو النسبي ، والدفء ، ووجود البيانو الممتاز في حوزة شوبان وطوع أنامله ستكون من العوامل الأساسية في تحسن صحته ، ورفع معنوياته ، ولكن الفنان المريض الذي لم يكن قادراً على القيام بالنزهات لوهن صحته ورجليه أضحى سقيم الروح ، متشوقاً لمغادرة الجزيرة :

(كل شيء تحت سماء اسبانيا ، ما عداي أنا وولدي ، أصبح مؤذياً ، ومنفراً ، وأية حركة حوله كانت تثير

Twitter:@abdullah1994

أعصابه وتسبب له نوبة جديدة من السعال والنزف [1] .) لذا اتخذت قراراً سريعاً بالرحيل خشية أن يحدث للحبيب ما تكرهه ، وقد خُيل إليها أن ملاك الموت كان يحوم حوله في تلك الآونة . كان نقله إلى مدينة « بالما » للإبحار منها إلى برشلونة مجازفة كبيرة لاصابته بنزلة صدرية حادة عشية الإبحار ، ويكفي ان ننقل مقاطع من رسالتها إلى صديقتها « كارلوتا مارلياني » لنقف على العذاب الذي عانته يومذاك :

(برشلونة ١٥ / شباط / /١٨٣٩

يا عزيزتي الطيبة

أسرعت في مغادرة ميورقة لأن الشؤم رافقنا فيها ، ومناخها الرطب أضر بصحة شوبان خلافاً لما كنت أتوقع . لم يشأ أحد إعارتنا عربته المريحة للانتقال من فالديموسا إلى بالمـــا لأن شوبان « يسعل » ولأن كل من يسعل في اسبانيا إنسان مسلول ، اذن موبوء ، وكل موبوء مكروه فيها ومنبوذ ، يستحـــق الرجم والطرد ، سواء كان مصاباً بالطاعون ، أو البرص ، أو الجرب ! .. استأجرنا

(١) « قصة حياتي » – جورج صاند – الجزء الرابع – ص : ٤٤٣ .

Twitter:@abdulllah1994

عربة مهلهلة ، الوحيدة التي وجدناها ، وأبحرنا على الباخرة الاسبانية (الميورقي) بصحبة مئة خنزير كادت رائحتها الكريهة تودي بحياة مريضنا المسكين ! انه بحق ملاك مجبول على الرقة والصبر والطيبة ، أعتني به كما تعتني الأم بولدها ، وقد شعرت بالفرح ساعة بلغنا برشلونة التي بدت لنا جنة بالقياس إلى ميورقة ، لأننا انتقلنا فيها إلى السفينة الفرنسية النظيفة الراسية في المرفأ . كان شوبان على آخر رمق يا عزيزتي ، يسعل ، ويلهث ، ولا يستطيع حراكاً ، ولكن طبيب السفينة قال بعد أن فحصه فحصاً دقيقاً ان حالته لا تقلق ، وانها ليست سوى عارض مزعج سوف يزول بعد أن يسترد المريض عافيته في مناخ جاف . سنبقى على ظهر هذه السفينة اسبوعاً قبل الإبحار إلى مرسيلية آملين أن تتحسن صحة شوبان بالتغذية والراحة الموفورين فيها ، وبمجرد وصولنا إلى الأرض الفرنسية سيتولى الاشراف عليه طبيبك الطيب « كوفيير Cauvière » ويرشدنا إلى المكان الملائم لنقضي فيه ما تبقى من الشتاء والربيع . استودعك الله يا صديقتي الطيبة ، ولك ألف قبلة ، وكل ما في قلبي من وداد [1]) .

---

(١) « رسائل شوبان وجورج صاند » — ١٨٣٦ — ١٨٣٩ — ص : ٨١ — ٨٢ — ٨٣ .

Twitter:@abdulllah1994

وأخيراً بلغ كابوس الشتاء في ميورقة نهايته ، واستقر الحبيبان في مرسيلية ، ومنها كتبت جورج صاند إلى صديقتها « مارلياني » الرسالة التالية :

(مرسيليا في ٢٦ / شباط / /١٨٣٩ .

يجب أن أطلعك على حال شوبان أيتها الأخت الطيبة لأنني أعلم أن اهتمامك به لا يقل عن اهتمامي . لقد تحسنت صحته كثيراً بسرعة مذهلة . لم يعد يسعل إلا قليلا ، واختفى كل أثر للدم من لعابه منذ أن عاد إلى فرنسا! أصبح في وسعه أن ينام في سرير وهو واثق من أنه لا يوجد من يفكر بإحراقه لأنه نام عليه ، كما أنه لم يعد يرى الأيدي تبتعد عنه بحذر اذا مد يده لمصافحتها .. ولسوف يتولى العناية به هنا أمهر الأطباء ، فكوني مطمئنة ، واكتبي إليّ بسرعة ، ولك منا خالص المحبة والأشواق[1]) .

أما الأطباء فقد أشاروا على المريض بالبقاء في مرسيليا تجنباً للحركة والتعب ، واوصوه بالراحة والطعام المغذي فنقلته جورج صاند من الفندق إلى شقة جميلة استأجرتها،

---

(١) « جورج صاند – فلاديمير كارينين Vladimir Karénine » الجزء الثالث – ص : ٩٤ .

Twitter:@abdullah1994

وأحضرت له « بيانو » ممتازاً ، ولأولادها الكتب المدرسية اللازمة للإشراف على تعليمهم . كانت قادرة على ادارة المنزل ، وتدريس الأولاد ، والعناية بالمريض ، وتخصيص ثلاث ساعات يومياً للكتابة دون أن تشعر بأي تعب ، ولا عجب في هذا وهي المرأة النادرة في تكوينها ، والعاشقة المثالية التي لا نظير لها في الحب والتضحيـــة ، وإدراك المسؤوليات . إقامتها في مرسيليا استمرت ثلاثة شهور ونيّف ولكن شتان بين شتاء ميورقة وربيع مرسيليا ، فهنالك عرفت الشقاء ، وعاشت بين غرباء أضمروا لها الكراهية وناصبوها العداء ، وهنا أحاط بها الأصدقاء والمعجبون ! هنالك كان المرض يهدد الحبيب المريض بالموت كل يوم وليلة ، وهنا أصبحت العافية تسري في عروقه فتنعشها يوماً بعد يوم ، وأسبوعاً بعد أسبوع . وجدا في الطبيب الذي تولى معالجة شوبان صديقاً حميماً ، ومعجباً كبيراً بشخصية كل منهما ، وكان تهافت الكتاب والموسيقيين المتطفلين عليهما الشيء الوحيد الذي ضايقهما في مرسيليا ولكن تلك هي ضريبة الشهرة التي يصعب على العظماء التهرب من دفعها . في شهر آذار كتبت جورج إلى السيدة « مارلياني » هذه العبارات : (سنظل في هذه المدينـــة التجارية حتى انقطاع البرد من أجل صحة شوبان . إننانقضي

Twitter:@abdulllah1994

جلّ أوقاتنا في البيت حيث ينصرف كل واحد منا إلى عمله . شوبان يأكل بشهية ويطرد السأم بفضل البيانو ، ويعيد البهجة إلى البيت كالسابق [١]) أما شوبان فقد كتب رسالة إلى صديقه « غرزيمالا » حدثه فيها عن قلقه على والديه وعن الحبيبة فقال : (ان ملاكي تعمل على إنهاء روايتها الجديدة التي سيكون عنوانها : « غبريال Gabriel » انني أعلم أنك تحبها وتقدرها ولكني متأكد من انك سوف تحبها أكثر لو أتيح لك ان تعرفها كما بتّ أعرفها [٢]) .

لقد أنتاب شوبان ميل شديد الى النوم في ذلك الربيع وصفته لنا جورج في رسالة أخرى بعثت بها إلىالسيدة « مارلياني » قالت فيها : (آمل أن تكوني قد تسلمت مخطوطة روايتي « غبريال » وان تسلميها بسرعة للناشر ، وان تطلبي منه تحويل مبلغ من المال لأنني في حاجة ماسة إليه لقضاء بضعة أيام في ايطاليا مع الأسرة قبل عودتنا إلى نوهان . ان ما يشغل بالي في هذه الآونة رغبة شوبان في النوم ليل نهار غير ان الطبيب يرى فيها دليل عافية لا سيما وان « صغيرنا » ينام نوماً هادئاً كالأطفال ،

---

(١) و (٢) رسائل شوبان وجورج صاند بين عام ١٨٣٦ وعام ١٨٣٩ — ص : ١٠٦ و ١٠٨ و ١١١.

Twitter:@abdullah1994

وينهض متورّد الوجه وجائعاً ! انه ملاك يا عزيزي ، ولا أخفي عنك أن رقته المتناهية ، وصبره الجميل ، وعذوبة طبعه من الصفات التي تدعوني للاعتقاد بأنه إنسان كامل فيتملكني الخوف لأن مثله لا يعيش طويلاً... لقد وضع ألحاناً في ميورقة تحمل معها نسائم الجنة ، وكثيراً ما أراه محلقاً في عالم آخر ، حاضراً وغائباً في آن معاً ، حتى انني لم أعد أميّز بين يقظته وغيبوبته . انه نسيج وحده، يجهل في أي كوكب هو موجود ، ويعجز عن مشاطرتنا آراءنا في الحياة ، ونظرتنا لمباهجها ومتاعبها[1] .)

ختم العاشقان رحلة الاستجمام في جنوب فرنسا برحلة ممتعة إلى ايطاليا وقد بعثت جورج صاند برسالة إلى السيدة « مارلياني » في نهاية الرحلة كانت آخر ما كتبته من مارسيليا ، فجاء فيها ما يلي :

(يا صديقتي ،

الآن عدنا من « جينيوا » حيث كانت إقامتنا فيها سعيدة . لقد زرنا المتاحف والقصور ، وقمنا بنزهات

(١) رسائل شوبان وجورج صاند بين عام ١٨٣٦ وعام ١٨٣٩ – ص : ١٢١ .

Twitter:@abdullah1994

ممتعة أفاد منها شوبان كثيراً . وما عدا العاصفة التي هبّت علينا ونحن على ظهر السفينة في طريق العودة استطيع أن أقول إن كل شيء في رحلتنا كان مريحاً وممتعاً . لقد وصلت عربتي من نوهان وسوف نتوجه إليها بعد غد دون استعجال ، حرصاً على راحة شوبان .

طبيبنا هنا وصديقنا الدكتور « كوفيير » يقرأ دائرة المعارف التي وضعها صديقي « لورو » بالاشتراك مع « رينولد » بحماسة كبيرة ، وهو معجب بثقافة « لورو » ونظرياته الفلسفية المتحررة ، متشوق لرؤيته في باريس في أقرب فرصة . ان هذا الطبيب رجل فاضل ونبيل سنغادره متأسفين . لقد سئمت الاسفار، ولا سيما مع العائلة، وصرت لا أتوق إلى شيء أكثر من توقي إلى حياة مستقرّة ! آمل أن ألقى رسالة منك في نوهان ، وأن أسعد بلقائك فيها مع زوجك العزيز في أقرب وقت ، ودمت يا عزيزتي لـ :

جورج[١] .

بوسعنا أن نفهم الأسباب التي دعت جورج صاند

(١) رسائل شوبان وجورج صاند : ١٨٣٦ – ١٨٣٩ – ص : ١٢٣ – ١٢٤ .

Twitter:@abdulllah1994

الى الاعتراف بانها سئمت الأسفار ، بعد أن تابعنا رحلتها الطويلة مع شوبان إلى ميورقة أولا ، ثم إلى جنوب فرنسا وايطاليا ، وأدركنا المشقة التي رافقتها فيها منذ بدايتها حتى نهايتها . لسوف نأتي على ذكر أثر تلك الرحلة فكرياً وعاطفياً في شخصية جورج صاند وأعمالها الأدبية، كما أننا سنستعرض أثر « بيير لورو » الفيلسوف المتحرر الذي دفعها إلى العزوف عن الإكتفاء بكتابة الروايات العاطفية ، ولعب دوراً مهماً في تطورها الفكري والروحي، في الفصول التالية من هذه السيرة .

Twitter:@abdulllah1994

سبع سنوات مع الحب والإبداع والشقاء

عادت الحياة العذبة إلى نوهان بعودة المسافرين اليها الذين برّح بهم الشوق إلى البيت المريح ، والحديقة الغناء ، والليالي المقمرة . بعد أن قضوا أسبوعين هادئين في ربوع إيطاليا رجعوا إلى عشهم الجميل وللعمل فيه من جديد ، واستقبال الاصدقاء . احتل شوبان في الأسرة منزلة رفيعة وقطع الطريق على كل نمّام ومتطاول بحشمته ، واستغراقه في فنّه ، واحترامه لجورج التي كان يدعوها : « مضيفتي » حيناً و« ربة البيت » حيناً آخر . وشعر المقربون من جورج أنها نذرت نفسها لأولادها « الثلاثة » ولفنها ، وان التجربة القاسية في ميورقة أكسبتها مزيداً من الثقة بالنفس ، ونضجاً عاطفياً يثير الإعجاب ولكن مسحة الحزن التي ظهرت في عينيها لم تخف على أحد . كان شوبان أول من لحظها ، وقد وصفها في مذكراته فكتب يقول في الثاني عشر من شهر تشرين الأول عام ١٨٣٩ :

Twitter:@abdulllah1994

(يرى الأصدقاء انني تحسنت صحياً ، وهذا صحيح لأن السعال زال ، وكذلك آلامي ، غير أنني أشعر بألم نفسي عميق لأن عيني أورورا يشفّهما الضباب. أنهما لا تبرقان إلا حين أعزف على البيانو ، عندئذ تشرق الدنيا أمامي ، وتبدو جميلة ! عندما تنزلق أصابعي على البيانو تتحرك ريشتها بخفة على الورق ، فتكتب وتصغي إلى الموسيقى في آن واحد ، سواء أكانت تأتي اليها من الطابق العلوي أم من جواري. من أجلك يا أورورا أنا مستعد للزحف على الأرض، سوف أهبك كل شيء اذ لا شيء يتعذر عليّ في سبيلك ! لا أريد منك سوى نظرة حلوة ، ولمسة عذبة ، وابتسامة عندما أشعر بالتعب ، ولا أريد أن أعيش إلا من أجلك ، لك وحدك أريد أن أعزف ألحاناً عذاباً ! ألا تظنين أنك تبدين قاسية بتينك العينين المحجوبتين ؟ [1])

يتساءل أندري مورِوا في كتابه عن جورج صاند قائلاً :
(ترى ، هل صحيح أن جورج كانت قاسية مع شوبان؟ لا ! بكل تأكيد لا ! ولكن شوبان بات يشكو من « أورورا» التي كانت تمنعه عن كل ما يسيء إلى صحته ، وتعامله

(١) « جورج صاند ومقاطعة البيري » لويز فنسان Louise Vincent ص : ٣٠٩ .

Twitter:@abdullah1994

كطفل مدلّل لا كعشيق ، فأضحت قاسية في نظره ، وميالة لغيره لمجرد صدّها له . ولو لم تقلقه الشكوك لما كان شوبان ذلك الإنسان المعذب في حبه لجورج ، ولكن شكوكه تزايدت مع الأيام وانقلبت إلى غيرة لا مبرّر لها أفسدت العلاقة بينهما في نهاية الأمر ! انقضى الصيف على أحسن ما يرام ، ولم يُحرم شوبان فيه إلا من السهر مع الأسرة في الهواء الطلق ، وقد ألف مقطوعات جديدة رائعة منها : ثلاث رقصات بعنوان : « مازوركا — Mazurka » و « الليلة الثانية — 2ème Nocturne » والسوناتا مقام سي بيمول مينور — Sonate en Si Bémol Mineur » وأخيراً جاء الخريف وأصبح لا بد له ولصحبه من الانتقـــال إلى باريس حيث كان تلاميذه في انتظـــاره ، وكذلك مدارس موريس وصولانج وناشر مؤلفات جورج صاند وأصدقاؤها وزملاؤها الأدباء .

نقلت جورج بعض الأثاث إلى شقتين مجاورتين استأجرتهما لإقامتها مع ولديها في باريس (١٦ شارع بيجال 16 rue Pigalle) ورجع شوبان إلى شقته الصغيرة القديمـــة وإلى تلاميذه ، ولكنه افتقد الحبيبة والجو العائلي الذي نعم به في الماضي القريب فطلب الانضمام إلى عائلتها الصغيرة . فتحت له ذراعيها وبيتها ، ونقلت إلى الجناح الذي أعدّته لسكناه

Twitter:@abdulllah1994

البيانو والأمتعة التي شاء الاحتفاظ بها ، وتعايشا معاً سبعة أعوام متتالية متنقلين بين باريس في الخريف والشتاء والربيع ، ونوهان في الصيف . كانت تلك الأعوام زاخرة بنشاط فني وأدبي واجتماعي بالقياس إلى كل من شوبان وجورج اللذين استقطبا اهتمام الصحافة والمجتمع الفني في باريس بتألق موهبيتهما تألقاً رائعاً. فبينما كان شوبان يرسل إلى ناشره في ألمانيا وناشره في باريس المقطوعة الموسيقية الرائعة تلو المقطوعة، كانت جورج تبعث إلى ناشرها الرواية تلو الرواية،ومن ثم اقتحمت ميدان الصحافة عام ١٨٤١ بتأسيس « المجلة المستقلة» مع صديقها القديم الفيلسوف « بيير لورو »، وصحيفة معارضة في مدينة « لا شاتر » باسم : « كشاف الآندر L'éclaireur de l'Indre » . في السنوات الثلاث الأولى التي انقضت على العاشقين في باريس ونوهان توسعت حلقة المقربين بانضمام اصدقاء شوبان إلى اصدقاء جورج القدماء أمثال « بالزاك »، « ودولاكروا » ، و« بيير لورو » و« هنري هايني – Henri Heine » والممثلين : « بوكاج Bocage » ، و« ماري دورفال » وعدد من وجهاء مقاطعة « البيري » . أما الفنان الكبير « ليست » وصديقته : « الكونتيسه « ماري داغول » فقد تصدعت الصداقة بينهما وبين جورج صاند فقاطعتهما بعد أن وصلها كلام جارح عن لسان الكونتيسه . وأما

Twitter:@abdulllah1994

« كارلوتا مارلياني » فقد كانت مع غرزيمالا اقرب الاصدقاء منذ بداية الصلة بين شوبان وجورج ، فنقلتهما عام ١٨٤٢ إلى شقتين مجاورتين للبيت الذي كانت تقيم فيه في « ساحة أورليان – Square d'Orléans » وأضحى التعايش بين هذه الشلة أمراً طبيعياً : كانوا يتناولون الطعام يومياً على مائدة « مارلياني » ، ويعقدون الندوات الأدبية مساءً في بيت جورج ، ويقضون السهرات على أنغام بيانو شوبان في شقته. ولقد أنضم اليهم الشاعر البولوني المنفي « ميكييوبتش » الذي كان استاذاً في الـ « كوليج دى فرانس » ، والمغنية البولونية « الكونتيسة ديلفين بوتوكا – Delphine Potocka » وكبار الممثلين والموسيقيين والنقاد فأصبحت تلك الاجتماعات اليومية مدار اهتمام الطبقة الفنية والأدبية في باريس حتى عام ١٨٤٦ . لقد وفّق العاشقان بين حياة الجدّ وحياة المرح ، فكلاهما كان فناناً يقدس عمله ، وكلاهما كان يرى في مخالطة تلك النخبة من الناس غذاءً لا بد منه للفن والفكر. لقد رفلا في أعطاف المجد في تلك الفترة حيث قدم شوبان حفلات موسيقية متتالية في قاعة « بلييل – Pleyel » حضرها المجتمع الراقي في باريس برمته وصفق لها طويلاً، وصدرت مجلة « فرنسا الموسيقية La France Musicale » بعد حفلة ٢١ / ٢ / ١٨٤٢ تمّجد عبقريته قائلة : (أما

Twitter:@abdulllah1994

الجمهور فقد خصّ جورج صاند بهتاف عبّر فيه عن إعجابه وتقديره ، فمنذ اللحظة التي ظهرت فيها مع بنتيها الفاتنتين [١] تحولت جميع الأنظار إليها . لم يظهر عليها أي إنفعال لأن شهرتها طبقت الآفاق منذ بضع سنوات، ولقد اكتفت بردّ تحية الجمهور بإحناء رأسها بضع مرات) [٢].

كان الأديب الظريف « هنري هايني » من الملازمين لندوة جورج وشوبان في باريس ، وكان مغرماً بها ، ككل الناس ، حسب رأي « موروا » غير أن غرامه بها كان لا يتجاوز الإعجاب بالمرأة الفذة ، والكاتبة المبدعة . وقدنقلت لنا المصادر التي اعتمدناها في هذه السيرة نبذات طريفة عن محاوراته معها ومداعباته الكلامية لها في الحديث وفي المراسلة ، فكانت تطرب لحديثه ، ولا سيما لغمزاته الذكية عندما كان يقول عن « ألفرد دي موسيه » : (إنــه شاب ذو ماضٍ مجيد ....) أو عندما كان يختم رسالته إليها بقوله : (إن قلبي يقبل قلبك !) . وإذا شئنا أن نتمثل صورة جورج صاند وهي على مشارف الأربعين من العمر فما علينا إلا أن نقرأ

---

(١) لم يكن لجورج صاند سوى بنت واحدة ولكن الفتاة الثانية التي كانت ترافقها هي قريبة لها تبنتها في عام ١٨٤٢.

(٢) « شوبان » – بقلم كميل بورنيكيل Camille Bourniquel – منشورات السوي– Seuil باريس ، ١٩٦٠.

Twitter:@abdullah1994

وصفه لها في كتابه : (من ألمانيا) حيث قال : (ما أجمل جورج صاند وما أطيبها ! إنها وديعة ، لا تؤذي أحداً، ولا حتى القطط الشريرة التي كانت تلامسها متحببة بيد، وتخدشها باليد الثانية ، أو الكلاب التي كانت تنبح بشراسة للتشهير بها . إنها كالقمر تنظر إلى كل الناس من عليائها بعذوبة متناهية ... [1]) .

ولكن الحياة لا تصفو لأحد إذ لا بد من حدوث مشكلات تعكّرها ، وإنما المهم هو أسلوب مجابهتها ومعالجتها . ولقد شهد المؤرخون لجورج صاند بصبرها على المكاره ، وعلى شوبان خاصة بعد أن أخذ يتدخل في أمور لا تعنيه كتربية ولديها وتوجيههم ، وانتقاد أصدقائها القدامى ، واستغلاظ الجدد الذين أقبلوا على المسرح الذي أعدته في قصرها إما للتمثيل فيه ، أو للمشاركة في وضع الحوار لبعض التمثيليات. والأغرب من كل هذا أن شوبان كان يغار من ابنها موريس الذي بلغ العشرين من العمر عام ١٨٤٣ ، ونبغ في الرسم ، مما حدا بها إلى انشاء مرسم في قصرها للفنان الكبير « دولاكروا » لكي يتولى توجيهه . كان يغار أيضاً من كل زائر محبوب في بيتها من « بيير لورو » مثلا ، صديقها وزميلها في تحرير

---

(١) ليليا أو حياة جورج صاند – أندري موروا – ص : ٣١٨ .

Twitter:@abdulllah1994

الصحف التي أسستها ، والرجل الذي دفعها لمساندة الحركة العمالية في فرنسا ، ومن الممثل « بوكاج » ، وشعراء المنطقة الشعبيين الذين وجدوا فيها أكبر مشجع لهم على الاندماج في الحركة الفكرية الجديدة . وعندما شبت ابنتها صولانج التزم شوبان الدفاع عنها في كل مناسبة مما ضايق جورج كثيراً لأنها كانت أخبر منه بطبيعة ابنتها ، وبالنهج الملائم لتربيتها. ومع ذلك كانت تعالج تلك الاحتكاكات العائلية بحكمة وطول بال ، وكثيراً ما كانت تتغافل عن بعضها لانقاذ الجوّ ، وتلافي المشاحنات . وقد لاحظ المقربون من الحبيبين انفعالات شوبان العصبية في بعض الأحيان ، وصرّح الشاعر البولوني « مكيبويتش » يقول : (إن شوبان هو صليب جورج صاند، والمستغّل الأكبر لطيبتها ، ومبعث الشقاء في حياتها ، ومن يدري ؟ ربما سيقضي عليها ذات يوم .... [1]) أما جورج فقد كانت تحب شوبان حباً جماً ، ومن يحب بعمق يحتمل بصبر نزوات المحبوب ، ولا يتبرم به مهما تعنّت وتدلّل. كانت تقول دائماً : (انه ملاك طيب ، ولولا صداقته العذبة لفقدت شجاعتي .) كانت تشعر أنها مسؤولة عنه أمام الضمير والناس ، وقد تجلّت الأمومة العاشقة في صلتها به ممزوجة بإعجاب كبير بعبقريته ، أما هو ، فعلى الرغم من الغيرة التي

---

(١) ليليا أو حياة جورج صاند – أندري موروا – ص : ٣٢٠ .

Twitter:@abdulllah1994

كانت تلتهم أعصابه فقد كان يكنّ لها حباً عميقاً ، واحتراماً وإعجاباً بالغين ، وكان يتفانى في خدمتها ولا يبارح سريرها عندما كانت تضطر لملازمة الفراش يوماً أو يومين ، إذ كثيراً ما كانت تشكو من ضعف في الكبد ، وكسل في الأمعاء .

ولعل أدق تحليل لعلاقتهما الغريبة التي استمرت ثمانية أعوام ونيّف ما ورد في كتاب عن شوبان حيث قالت مؤلفته :

(لقد ذهبا إلى ميورقة عاشقين متيّمين فقضت الجزيرة على السحر وعادا منها كزوجين متحابين متلازمين ، سائرين وراء قدرهما بكل رضا بفضل سعة صدر كل واحد منهما. وجد شوبان مع جورج صاند الاستقرار ، وحسب نفسه عندها في بيته إذ شعر بالسعادة والراحة المطلقة ، ولاقى كل تشجيع وتكريم يحلم فيه أي رجل ، ولا سيما الفنان . لقد تفجرت عبقريته بقربها فأعطى للخلود أروع المعزوفات وأفضل المؤلفات الموسيقية . كان يصغرها بثمانية أعوام ولكنه نضج على يديها ، وأبدع الكثير من روائعه التي استلهمها منها [1]) .

ويروي لنا الرسام العظيم « ديلاكروا » الذي كان يصطاف مع شوبان وجورج وشلة من أصدقائهما في نوهان ان جورج

---

(١) « شوبان » – كيل بورنيكيل – ص : ٩٨ .

Twitter:@abdulllah1994

صاند كانت ذات مساء في أحلى تجلياتها فأخذت تصف جمال الطبيعة ، وبلاغة سكونها بحديث طلي كأنه أزاهير الروض ، فقال لها شوبان :

– (ما أروع هذا الوصف يا جورج !

فأجابته تقول بلهجة من يحمّس صاحبه :

– إذا كان الأمر كذلك فهيا ترجم ما قلت إلى الموسيقى.

فنهض شوبان إلى البيانو حيث ارتجل « السينفونية الريفية» وهي واقفة إلى جانبه ، واضعة يدها الصغيرة على كتفه ، تقول في نهاية كل مقطع : (مرحى أيتها الأصابع المخملية! مرحى !)

ويعلق أندرى موروا على هذه الحادثة قائلا : (لا نستطيع أن نقول ان جورج صاند شفت شوبان من علّته المزمنة ، ولكننا نستطيع أن نجزم بأنها ساعدته على تخفيفها بفضل عنايتها به ورعايتها له . ولولا تلك اليد الرحيمة على كتفه ، ولولا تأثير المناخ الطيب في نوهان لما كان شوبان أبدع تلك الروائع في حياته القصيرة . ترُى هل كان بوسعه أن يعيش حتى التاسعة والثلاثين من العمر لولاها ؟ [1])

---

(١) « ليليا أو حياة جورج صاند » – أندري موروا – ص : ٣٢١ ، ٣٢٢.

Twitter:@abdulllah1994

كان شوبان مغترباً عن وطنه وأسرته ، شديد التعلق بهما والحنين إليهما ، يراسل أبويه وأختيه المتزوجتين في «فارسوفيا» باستمرار ، وكانت آخر مرة التقى فيها بوالديه في صيف ١٨٣٥ يوم كانـــا يتعالجان في مدينـــة « كارلسباد » في تشيكوسلوفاكيا . أما عن علاقته بجورج صاند فيبدو من الرسائل المتبادلة بينه وبين ذويه أنهم كانوا على علم بها ، لا كعلاقة حب جامح يشكل خطراً على صحته ، إنما كرابطة صداقة متينة وعطف كبير من قبل الكاتبة العظيمة جنى منها الفنان الخير كلّه ، صحيـــاً ونفسياً . كان شوبان مقيماً في باريس بالقرب من الحبيبة يوم بلغه نبأ موت أبيه « نيكولاس» في مطلع شهر مايس عام ١٨٤٤ ، فحزن عليه حزناً شديداً كان له أسوأ الأثر على صحته إذ عاوده السعال ، واضطر إلى ملازمة السرير بضعة أسابيع . حاولت جورج تعزيته والتخفيف عنه بشتى الوسائل ولكنها أخفقت فكتبت إلى أختـــه « لويز جيـــرزياويتش Louise Jedrzeïewicz » تدعوها بإلحاح إلى المجيء فوراً إلى فرنسا مع زوجها لقضاء الصيف في نوهان إذ لا شيء يمكن أن يعزيه ويشفيه سوى وجودها بقربه بعض الوقت ، ثم قالت لها بصراحة (...سوف تجدين ابني الغالي نحيلاً وشاحباً ولكن لا تجزعي عليه ... إن صحته هزيلة ولكنه صامد في وجه المضاعفات منذ ستة

Twitter:@abdulllah1994

أعوام ، ولا خطر عليه في رأيي ، أنا التي أراه كل يوم دون انقطاع) [1] .

قبلت «لويز» وزوجها الدعوة الكريمة ، وقضيا الصيف كله في قصر نوهان حيث استرد شوبان عافيته وقواه بمجرد رؤيتهما، وحيث توطدت الصداقة الحميمة بينهما وبين حبيبته. لقد استمتعا بجو الريف وانسجما مع رواد القصر ومسرحه انسجاماً تاماً ، ورجعا إلى بولونيا في شهر ايلول وهما يحملان زاداً دسماً من الذكريات العذبة ، والمساجلات الأدبية والفنية الممتعة . كانت جورج تكتب يومئذ روايتها «كونسويلو Consuelo » التي يعتبرها النقاد أفضل رواية كتبتها ، وكانت تقرأ على ضيوفها مقاطع منها في السهرة ثم تدعوهم إلى التحليق مع شوبان في رحلته السماوية فيعزف ويرتجل ، وتصدح في أرجاء القصر النوطة الزرقاء التي تصوّر زرقة ضياء القمر في ليالي الصيف ، ورنة حنجرة الهزار ، حسب قول جورج نفسها في مذكراتها .

انصب اهتمامها آنذاك على تزويد مجلتها الجديدة « المجلة المستقلة » بأبحاث عن الشعراء الشعبيين ، ودراسات لأحوال

---

(١) « شوبان » – كميل برونيكيل – ص : ١٠٣ .

Twitter:@abdulllah1994

الطبقة العاملة ، وبدا تأثير « بيير لورو » واضحاً في آرائها السياسية ، لا في مقالاتها فحسب ، إنما في رواياتها ايضاً كرواية « هوراس – Horace » التي نشرتها مسلسلة في المجلة ، وجعلت أبطالها عمالا وحرفيين ، ورواية « كونسويلو» . لقد اشتمّ خصومها وناشرها القديم « بولوز » رائحة الشيوعية في أعمالها الجديدة ، ولكنها دافعت عن عقيدتها تقول بأن ما ترمي إليه هو العدالة الاجتماعية لرفع مستوى العمال فكرياً ومادياً ضمن إطار الإخاء والحرية . بلغها أنهم هاجموها في مجالسهم هجوماً لاذعاً ، وأن الناقد الكبير « سانت بوف » الذي ائتمنته على مراسلتها مع « الفريد دي موسيه » سمح لنفسه بإعارة تلك الرسائل إلى صديقاته سيدات المجتمع الباريسي ، وبإرسالها من بيت إلى بيت في مغلف كبير يحمل اسماءهن.. وبلغها ايضاً كلام جارح على لسان الفنان « ليست » الذي كان من أعز اصدقائها ، ولكنها لم تعر أي اهتمام لخيانتهم وشتائمهم إذ كانت فوق كل خيانة وشتيمة ، خطيئتها الكبرى أنها لم تصانع أحداً في حياتها ، وإنها كانت صريحة للغاية مع الرجال لا تتردد في قول ما تشعر به . وإذا كانت سلامة الإنسان في حفظ لسانه ، وفي اضطراره احياناً إلى المخاتلة والملاينة فان جورج صاند التي كانت تكره الكذب والنفاق لم تسلم من سهام الذين وجدوا في صراحتها وجرأتها خدشاً لكبريائهم ،

Twitter:@abdullah1994

وخروجاً نابياً على المألوف . ولا ريب في أن سماحة نفسها أبت عليها أن ترد على هجماتهم بمثلها لنفورها من خوض المعارك الكلامية اللاذعة، ولأن الحقد لم يعرف إلى قلبها طريقاً.

بعد الانتهاء من كتابة روايتيها « هوراس » و « كونسويلو » عكفت على تأليف رواية جديدة نشرتها عام ١٨٥٥ بعنوان « لوكريسيا فلوريـــاني — Lucrecia Floriani » فوجـــد فيها النقاد تصويراً لعلاقتها بشوبان ، مـــع أنها نفت أي شبه بينها وبين بطلتها : « لوكريسيا فلورياني » . غير أن القارىء المتتبع لحياتها يلحظ أنها استوحت القصة واحداثها ، والحوار الذي يدور بين تلك الممثلة والأمير « كارول » من مغامرتها مع شوبان ، وأنها ضمنتها تحليلاً دقيقاً لمشاعر هذين البطلين، وعرضاً مستفيضاً لآرائهما في الحب والفن والحياة لا تعدو عن كونها آراء شوبان وآراءها الشخصية . لاننا نرى شخصية جورج صاند بوضوح من خلال شخصية « لوكريسيا » التي كانت ممثلة وأديبة في آن واحد ، أصابت نجاحاً كبيراً في حياتها الفنية ولكن السعادة لم تسعفها في حياتها العاطفية . لقد أحبت أكثر من رجل ولكنها لم تكن عشيقة عادية في يوم من الأيام لأنها كانت تعطي كل ما تملك لمن تحب ولا تطلب منه شيئاً بالمقابل ، وهكذا كان حالها في الصداقة ومع الأصدقاء .

Twitter:@abdulllah1994

كان الوفاء رائدها في سائر علاقاتها الانسانية ، وكان التوق إلى تحقيق تجاوب كلي مع الشريك السبب الأساسي في خيبات أمل متتابعة منيت بها، وهذا ما دفعها للبحث عن الإخلاص والتجاوب في حب جديد ، المرة تلو المرة ، وكم من مرة حدثت فيها خيبة الظن والأمل بعد أيام معدودات من توهّج شعلة الحب في صدرها ! ويوم انسحبت « لوكريسيا فلورياني » من مجتمع المدينة المزيّف ، ولجأت إلى الريف لتتفرغ إلى تربية أولادها ورعايتهم بنفسها كانت متأكدة من أن قلبها تحجّر بعد يأسه من الرجال كافةً ، ولكن لقاء « الأمير كارول » ذلك الشاب الوسيم ، الرقيق الطبع ، الخيالي النزعة ، المرهف الحس ، الذي كان في حاجة إلى عطف أنثوي كبير أثار اهتمامها ، وفجّر عواطف الأمومة الكامنة في قلبها . أغدقت عليه حنانها، ونذرت نفسها لصداقته ، وكانت تزداد إعجاباً به على الرغم من الاختلاف الكبير بين آرائها السياسية والاجتماعية وآرائه الخيالية العجيبة . وعندما أعرب لها عن مشاعره الحقيقية معلناً أنه بها مأخوذ ظنت أنها ستحقق معه حلمها الكبير الذي يتلخص بالعثور على الحب الأزلي العلوي ! وبعد أن قضيا فترة سعادة كبيرة تكشفت للعاشقة المتوهّمة الحقيقة المرّة : أثرة الحبيب ، وغيرته الجنونية من أولادها واصدقائها وكل زائر يؤم بيتها ، وتعصّب شديد لعقائد غريبة يرافقه تصلّب

Twitter:@abdulllah1994

في الأفكار يحول دون كل تفاهم... ثم ضايقها بطبعه الحرود، وبرودته القاسية المغلّفة بعبارات التهذيب واللياقة عندما كان يغضب بسبب تصرف من تصرفاتها، أو قدوم بعض الذين لا يحبهم إلى بيتها ، أو مزاحها مع من كان يحسب أنها تميل إليه، بوحي من ظنونه وأوهامه ... وفي نهاية الرواية تموت البطلة فجأة بعد ان أضناها الصراع المستمر مع الحبيب وسلبها الصحة وقضى على جمالها ...

الغريب في الأمر أن شوبان لم يتعرف إلى نفسه في الرواية على الرغم من المطابقة الواضحة بين أوصافه ومشاعره وأوصاف الأمير كارول وسلوكه مع حبيبته ... قرأت جورج صاند الرواية عليه في حضور الرسام « دي لاكروا » في نوهان فكتب دي لاكروا إلى صديقته « السيدة جوبير — Mme Jaubert » ما يلي :(**شعرت بحرج كبير في أثناء تلك القراءة ، وكنت مذهولاً أمام الجلاد والضحية : لقد بدت السيدة صاند جدّ مرتاحة ، وبدا شوبان جدّ معجباً بالقصة ! وعندما انسحبنا من غرفة الصديقة في منتصف الليل رافقني شوبان إلى الجناح الذي كنت أقيم فيه فانتهزت الفرصة لأستوضح رأيه فيما سمع ، ولكنه لم يكشف القناع عن انطباعاته ، ولم أدر إذا ما أخفقت في سبر أغواره ، أو إذا كان احتشامه قد منعه من**

Twitter:@abdulllah1994

البوح ، وأغلب الظن أنه لم يفهم قصد السيدة صاند الذي كان إنذاراً خطيراً له . كل ما سمعته منه كان ثناءً عاطراً على القصة ومؤلفتها ... ؟[1])

إثر انتشار « لوكريسيا فلورياني » بين أيدي القراء وجد أصدقاء جورج في الرواية تصويراً لعلاقتها مع شوبان ، وتنفيساً عن كربها بعد أن تفاقمت المشكلات العائلية بتحيّز شوبان لصولانج التي بلغت السادسة عشرة من عمرها ، وبحدوث تنافس على حب جورج والاستئثار بها بين موريس وشوبـــان ... كتبت صديقتها الفنانـــة « هورتانس آلار — Hortense Allart » رسالة إلى الناقـــد « سانت بوف » تستهجن فيها اقدام جورج على سرد وقائع قصتها مع شوبان وتصوير مثالبه بعد تلك العشرة الطويلة ، ثم وجهت رسالة إلى جورج تلومها على ما فعلت ، ولكن الروائية الحاذقة ردت عليها تشكر صراحتها وتقول : (... استغرب ظنك بأنني اتخذت من شوبان نموذجاً لروايتي لأن من يعرفه يستبعد هذا الظن ، ولا بد من أن تكوني قد تأثرت بكلام خصومي ذوي الألسنة القارصة لكي تجنحي إلى مثل هذا الشك . واستغرب أيضاً

---

(١) ليليا أو حياة جورج صاند — أندري موروا — ص : ٣٤٨ — ٣٤٩

Twitter:@abdulllah1994

هذه السذاجة منك لأنك فنانة ينبغي أن ترى في الآثار الأدبية سمواً ، لا انحداراً إلى المستوى السوقي ...

لقد كدرتني عباراتك لذا أسرعت في الرد عليها مؤكدة لك بأنني لا أعرف « الأمير كارول » أو بالأحرى أعرفه في إهاب خمس عشرة شخصية مختلفة ، وهذا ما يجعله بطلاً لقصة كسائر أبطال الروايات . واعتقد أنه من المحال على أية امرأة ، أوأي رجل أن يمنح الفنان نموذجاً حقيقياً يرضي طموحه ! ..) (١)

ان في هذا الاستنكار وهذا الدفاع عن النفس كثيراً من الحقيقة وكثيراً من المغالطة لأن جورج صاند جرت في مؤلفاتها على استنباط الموضوعات من خبراتها الشخصية ، ولأن صلتها بشوبان اتخذت طابعاً جديداً منذ عام ١٨٤٥ بعد أن شبّ ولداها ونشبت نزاعات عاطفية تفاقمت شهراً بعد شهر ، وأوقعت العاشقة والأم في الحيرة والاضطراب . فعلى الرغم من مظاهر العيش المترف السعيد في نوهان وفي باريس هجرت البهجة قلوب أفراد تلك الأسرة الشاذة ، واحتدم الصراع . ان مثل هذه النزاعات بين الأبوين والأبناء غالباً ما تنتهي بالوفاق لأن رباط الزوجية حصن منيع في وجه العواصف مهما تكن عاتية ، أما في حالات العلاقات الحرّة

(١) ليليا أو حياة جورج صاند – أندري موردا – ص . ٣٤٩ .

Twitter:@abdulllah1994

فسرعان ما يتصدع الرباط بين الحبيبين لأنه مصنوع من نسيج واهٍ سرعان ما يتداعى أمـــام تحديات القدر لارتكازه على الباطل . كنا قد أشرنا إلى أن صولانج اضحت صبية فاتنة ولكننا لم نذكر أنها سببت لأمها متاعب جسيمة بعنادها وتمردها واعتدادها بنفسها ، فقست عليها بغية اصلاحها ، وأخذت تؤثر « موريس » عليها الذي كان آية في الرقة والطاعة والتفهّم.

جربت جورج اللين في معـــاملة ابنتها بعد الشدة ، ودعت إلى نوهان في صيف ١٨٤٥ فتاة من الأسرة : « أوغوستين برول Augustine Brault — » لعلّ مصاحبتهـــا تلطّف من طباع صولانج لأن تلك الفتاة كانت جميلة الشكل والطبع ، فتوسمت فيها خير رفيقة لابنتها المتمردة . ولكن صولانج عاكستها منذ أن وصلت ، في حين أن موريس وجد فيها ما كان يتمنى أن يجده في أخته : الصحبة الحلوة ، والروح المرحة ، والوداعة ، والمساعدة في جميع الأعمال المنزلية والفنية. لقد تعلقت جورج بالصبية الأنيسة التي كانت فقيرة تعلقاً كبيراً أدّى بها إلى تبنّيها بموافقة ذويها ، وإلى تمنيها كنةً لها ، ولكن موريس كان يفضل العزوبة على الزواج في سن مبكرة.

وبعد انقضاء ذلك الصيف اتضح لجورج صاند أن شوبان وصولانج ألّفا حزباً مناهضاً لها ولموريس وللفتاة « أوغوستين» التي كانت جورج تدعوها : ابنتي الحقيقية » ... ولما كان لا بد

Twitter:@abdulllah1994

من إيجاد حلّ للمشكلة عمدت جورج إلى وسيلة أخرى تضمن للأسرة السلام : لقد أبعدت ابنتها ، التي أصبح وجودها منغصاً ، بتسليمها إلى « الآنسة ماري دي روزيير Mlle Marie de Rosières » وهي عانس من أسرة عريقة ، أخفقت في الحب وتعقدت ... وبدلاً من أن تكسب جورج صديقة ومعينة وجدت في الآنسة دي روزيير خصماً لدوداً ، وقدوة سيئة لابنتها اذ تحالفت مع شوبان في صيف ١٨٤٦ ، وأوغرت صدر الحبيب ضدّها بوشايات لا أساس لها من الصحة ، فتسمّم الجو في نوهان ، وتوالت المشاحنات بين سكان القصر ، وتصدعت العلاقة بين شوبان وجورج ، وبين جورج وابنتها ، وبين موريس واخته ! لقد تحوّل النعيم إلى جحيم ، وكانت جورج صاند أكبر متضرر مما حدث فكتبت في مذكرتها تقول : (الحياة جرح بليغ قد يرقد أحياناً ولكنه لا يشفى أبداً . إنني حزينة جداً ، ومغتمّة جداً ، ولكن هذا لا يمنعني من أن أحب كثيراً ، وبصورة أفضل ، الذين يستحقون محبتي ...) عبرت الكاتبة الكبيرة عن أسفها لما حدث في رسائلها إلى أقرب المقربين وفي مذكرتها، ووصفت لنا في كتابها « قصة حياتي » كيف تهجّم شوبان على ابنها موريس ذات يوم منتقداً علاقته بالآنسة أوغوستين، وموجهاً إليه كلاماً مؤذياً، ثم قالت: (لا يمكن لمثل هذا التنافر

Twitter:@abdulllah1994

أن يحدث ، بل لا يجوز أن يتكرر ، ولكن شوبان لم يحتمل تدخلّي لتصفية الجوّ ، مع أنه شرعي وطبيعي . لقد أحنى رأسه وقال إنني لم أعد أحبّه . يا للعقوق بعد ثمانية أعوام من التفاني والوفاء ! أرى أنه فقد السيطرة على النفس في ساعة حنق مشؤومة [1]) .

ويوم غادر شوبان نوهان في خريف عام ١٨٤٦ لم يكن يحسب أنه لن يعود إليها أبداً ... قضت جورج الشتاء فيها بسبب خطبة صولانج وظلت تراسله وكأن شيئاً ما لم يحدث بينهما ثم دعته لحضور الزفـــاف في شهر أيار ١٨٤٧ ولكن توعك صحته منعه من مشاركتها في تلك المناسبة السعيدة. كاتم الأسرار القديم « الكونت ألبير غرزيالا » تلقى من جورج صاند رسالتين في غاية الأهمية يومذاك ، في الأولى قالت له : (سوف أكون في باريس في نهاية هذا الشهر (أيار) وإذا وجدت أن حالة شوبان الصحية تسمح له بالسفر سأعود به إلى نوهان...يخيّل إلي أنه يتألم في وحدته حيث لا يستطيع أن يسدي النصح لأحد ... ولكن نصحه المتعلق بمشكلات الحياة الواقعية غير مجدٍ البتّة لأنه لم يدرك في حياته حقيقة الطبيعة الإنسانية لكونه إنساناً مجبولاً من طينه فريدة ، كلها شعر

(١) قصة حياتي – جورج صاند – الجزء الرابع – ص : ٤٧٣ .

Twitter:@abdullah1994

وفن وخيال ! أقول لك هذا لأن نفوذه لدى بعض أفراد أسرتي، وتدخاله في شؤوننا العائلية قد يفقدني كل هيبة في أعين ولديّ ، وربما محبتهما لي واعتبارهما ... حاول مفاتحته بهذا الموضوع وافهامه أن امتناعه عن الاهتمام بهما ضروري وفي مصلحته ومصلحتهما ... ان مثل هذا الحديث معه سيكون دقيقاً وعسيراً ولاسيما بعد أن اعيتني الحيلة لتهدئة نفسه المريضة ، وبعد أن بذلت جهوداً كبيرة لتفادي كل ما يمكن أن يزعجه . ان المرض الذي ينخر هذا المخلوق المسكين ، نفسياً وصحياً ، يضنيني منذ أمد بعيد ، وان ما يؤلمني أكثر بعد ارتحاله عني هو ظني بأنني لم أنفعه في شيء ما دامت العاطفة المضطربة والمرتابة التي يكنّها إلي سبباً رئيسياً من أسباب حزنه واكتئابه ....[1])

أما في الرسالة الثانية فاننا نجد بوحاً جريئاً مذهلاً حدّدت فيه نوع علاقتها بشوبان، وأكد للباحثين أنها خبرت الحب العذري معه ، وأنها من نوع المخلوقات الجبارة في احتمال الشدائد ، والأقدام على المخاطر ، والتضحية بالذات في سبيل إسعاد من تحب . جاء في هذه الرسالة المؤرخة في ١٢ / أيار عام ١٨٤٧ ما يلي :

(لقد انقضت سبع سنوات وأنا أعيش معه عيش العذارى

جورج صاند – فلاديمير كارينين – الجزء الثالث – ص : ٥٧٠.

Twitter:@abdulllah1994

دون أن تكون لي أية علاقة بسواه . لقد هرمت ، قبل بلوغ سن الهرم ، بدافع السأم والتعب والخيبات المتلاحقة ، وإذا ما كانت توجد امرأة في العالم قادرة على إرضائه ، وجديرة بثقته المطاقة فهي أنا ، ولكنه لم يدرك هذا الأمر أبداً ... انني أعرف حق المعرفة أن هنالك أناساً يتهمونني ، فبعضهم يظن انني أنهكت قواه بسبب عنف حبي له ، وبعضهم الآخر يعتقد أنني عذبته بسبب تجنّب مخالطته... وأحسب أنك تعرف الحقيقة، تعرف جيداً أنه كان يتذمر من صدّي له ، ويدّعي أنني قسوت عليه بالحرمان ، في حين أنني كنت متيقنة من أن الخطر عليه كان في تحقيق رغباته ... [1]) .

احتفلت جورج صاند بزفاف ابنتها في نوهان في العشرين من شهر أيار عام ١٨٤٧ ودعت إليه زوجها السابق « كازيمير دودوفان » الذي وافق على زواج ابنته القاصرة بالمثّال «أوغوست كليسزينجر – Auguste Clésinger » وقضى ثلاثة أيام في القصر الذي كان فيه السيّد المطلق قبل اثنتي عشرة عاماً . ولكن صولانج التي كانت حاقدة على أمها منذ عام أو ما يزيد ، عادت من رحلة شهر العسل إلى نوهان قبل أن تستقر مع زوجها في باريس فوجدت الأسرة السعيدة

---

(١) جورج صاند : – فلاديمير كارينين – الجزء الثالث – ص : ٥٧١ .

Twitter:@abdullah1994

(أي امها ، وأخاها موريس ، وقريبتها أوغوستين ، ورفاق موريس) على أتم وفاق ، وفي عيش رغيد لم يعد ينغصه شيء بعد غيابها . وقد أثار غيرتها سعي أمها لتزويج أوغوسستين من أحد أصدقاء أخيها ، والوعد الذي قطعته على نفسها بدفع مهر كبير لها ففقدت وعيها ، وحطمت قلب أمها وأوغوستين بإفساد الجو في البيت الذي رباها ورعاها ، ثم توجهت إلى باريس لتتحالف مع "شوبان ضد" أمها ... أبطلت زواج أوغوستين بتأليب الشاب الذي خطبها عليها ، وحملت زوجها على معاداة أخيها ، واتهمت أمها أبشع التهم فكانت ملاسنات مزعجة، تلتها معارك كادت تكون دامية وصفتها جورج صاند في رسالة بعثت بها إلى الآنسة « ماري دي روزيير » جاء من آخرها : (... لا أريد بعد اليوم أن أرى هذين المخلوقين اللذين ركبهما الشيطان ، ولن تطأ أقدامهما عتبة بيتي أبداً . لقد أحدثا فيه فضيحة لا تغتفر ، وتجاوزا حدود الأدب واللياقة والمعقول ! يا إلهي ! لم أفعل شيئاً ضاراً حتى استحق أن تكون لي ابنة مثلها ...)

لا ريب في أن عقوق الأولاد شيء محزن للغاية ، ولا ريب أيضاً في أن الانسان يرى في نفسه البراءة ، ويميل إلى

---

(١) « جورج صاند » - فلاديمير كارينين - الجزء الثالث - ص : ٥٧٨ .

Twitter:@abdulllah1994

تزكيتها منكراً اخطاءه ، وربما ذنوبه ، في مثل هذه المواقف المروّعة . وكان مما زاد في شقاء جورج في ذلك الصيف امتناع شوبان عن الردّ على رسائلها ... لقد دفعتها سذاجتها إلى مراسلته كالسابق ، والإلحاح في دعوته إلى نوهان للإستجمام فيها ، فصعقت حين بلغها أنه ينتقدها في أحاديثه الخاصة ، وان ابنتها صولانج وزوجها أصبحا ملازمين له، فكتبت إلى « الآنسة دي روزيير » تقول (... وأخيراً تسلّمت رسالة جافة من شوبان ، وتحققت من أنني كنت مخدوعة كالعادة. لقد خدعني قلبي الأبله ، لأن شوبان كان يغتابني مع ابنتي وزوجها حين كنت لا يغمض لي جفن لشدة قلقي على صحته... حسناً ! سأتخذ من مواعظ هذا الرجل الذي نصّب نفسه ربّاً للعائلة أبلغ الدروس ... لقد تفتحت عيناي أخيراً لأنني اصبحت أعرف ما تنطوي عليه نفس ابنتي والآخرين ، ولن أقدّم لحمي بعد اليوم لينهشه العقوق والخداع ....[١]) .

وتحت وطأة تلك الصدمة النفسية العنيفة وجهت جورج صاند رسالة أخيرة للحبيب الذي أنكر الجميل وقابل الوفاء والتضحية بالغدر جاء فيها : (ليكن ما تريد يا صديقي ! إفعل ما يمليه عليك قلبك ووجدانك ، أما فيما يخص ابنتي

---

(١) « جورج صاند » – فلاديمير كارينين – ص : ٥٧٩ – الجزء الثالث .

Twitter:@abdulllah1994

فلا يحق لها الاعراب عن حاجتها إل عطف أم تكرهها ،وتفتري عليها ، وتدنس سمعتها بعبارات شنيعة ! ربما يروق لك الإصغاء إليها وتصديقها ولكنني لست مستعدة للاشتباك مع أحد في معركة من هذا النوع ، انني أؤثر أن أراك منضماً إلى الخصم على أن أدافع عن نفسي أمام غريم أرضعته لبن ثديي. فاعتن بها ما دمت تعتقد أن واجبك يدعوك لتكريس نفسك لها . لن أحقد عليك ولكنني سأحتمي في هيكل الأمومة المهانة ... يكفي المرء ظلماً أن يكون مخدوعاً وكبش فداء .

ليسامحك الله ! كن واثقاً من أنني لن أعتب عليك بعد الآن ، وكل ما أتمناه هو أن تشفى بسرعة من كل ما يؤلمك . استودعك الله يا صديقي ، وأحمده على هذه النهاية العجيبة لصداقة مثالية استمرت تسع سنوات ! (1))

وجد الأديب البحاثة « أندري موروا » هذه الرسالة في دائرة المخطوطات الخاصة بالمكتبة الوطنية الفرنسية وعلّق عليها قائلاً ان انفصام عرى المودّة بين إنسانين تحابا باخلاص، وتخطيا جميع العقبات للحفاظ على حبهما أمر محزن للغاية ، وغريب للغاية ، ولكأن الحقد الذي يحلّ محل الحب الجامح

---

(1) « ليليا أو حياة جورج صاند » – « أندري موروا » – ص : ٣٦٠ . –

Twitter:@abdullah1994

يأتي مماثلاً له في عنفه وعمقه . ولكن جورج صاند لم تحقد على شوبان لأن صفاء سريرتها كان يحول دون تسرب الحقد في قلبها الكبير . لقد تألمت مما حدث ، وقضت الصيف مع ابنها والفتاة التي تبنتها،تكتب احياناً ، وتتلهى بالأعمال الزراعية، وتستقبل وجهاء المنطقة وهي فريسة أفكار مضطربة ، ليل نهار . منيت بمصيبة مزدوجة أقضت مضجعها وأنهكت صحتها: مصيبة العاشقة الوفية التي كرست أجمل سنوات الشباب لرعاية حب مثالي ، وبذلت في سبيل الحبيب النفس والنفيس ، فحصدت مرارة الخيبة لتخليه عنها في أدق الظروف وأخطرها، ومصيبة الأم التي تضطر إلى معاداة ابنتها ، وطردها من بيتها مع الصهر الجديد في الوقت الذي يُفترض فيه أن تصبح البنت أختاً لأمها وصديقه ، وأن تعقد الأم الآمال على محالفتها وزوجها ضد عوادي الزمن . ان من يقرأ مذكرات جورج صاند يتأكد من أن معاداة ابنتها لها وعقوقها قد آلماها أكثر بكثير مما لوعها فراق شوبان ، على الرغم من أن ميله إلى ابنتها شيء فظيع حقاً ، ولكن من يتبصر في عواقب قصص الحب الشاذ ة يجد أن مثل هذا الانحراف بتحول العشيق من الأم إلى البنت يكاد يكون متوقعاً ، وكأنه عقاب للامهات اللواتي يصبحن عشيقات ...

Twitter:@abdulllah1994

لجأت جورج في خريف عام ١٨٤٧ إلى صديقتها «كارلوتا مارلياني» تبثها شجونها في رسالة مطولة جاء فيها : (... لقد انحاز شوبان إلى صولانج علانية ضدي دون أن يتحرى الحقيقة وهذا ما يدل على نكرانه الجميل من جهة ، وعلى رعونته من جهة ثانية . أرجو أن تتجاهلي الموضوع تماماً ، وافترض أن ابنتي استغلت غيرته وشكوكه ، هي وزوجها ، وانهما اخترعا قصصاً كاذبة لإثارة نقمته علي ... انها افتراءات مثيرة للسخرية كما تعلمين ، وثقي بأنني لا أريد الوقوف على تفاصيلها لانها تثير اشمئزازي لحساستها ...

وأحب أن تعلمي يا عزيزتي بأني لست نادمة على انسحاب شوبان من حياتي لأنه أراد أن يحملّني مسؤوليـــة حياته ، وتلك مسؤولية جسيمة أثقلت كاهلي في السنوات الأخيرة . كما لا أخفي عنك أنه أمسى منذ مدة طويلة انساناً حاد الطبع ، قليل التحرّز في حديثه أمام أهل البيت والمستخدمين والضيوف مما كاد يفقدني الاحترام الذي يفرضه مركزي وسنّي بعد أن بلغت الثالثة والأربعين من العمر . لم أعد أطيق استبداده وتطاوله وتجاوزاته التي كانت بمثابة وخزات متواصلة تقطع الأنفاس . كما أن موريس أخذ يضيق ذرعاً بمزاجه العصبي ، ويرى في كلامه وتصرفاته إحراجاً كبيراً له ولي ، أنا التي

Twitter:@abdulllah1994

أثبتت للملأ طهارة صلتها بذلك المريض : لهذا كله كنت أخشى حدوث صدام بينه وبين أبني الذي كان متأكداً من أن شوبان يستغّل طيبة قلبي ، وأنه انسان ضائع لا يدري اين مكانه : هل هو صديق ؟ أو عشيق ؟ أو زوج ؟ أو سيد مطلق له الحق بالتصرف بمصائرنا جميعاً حسب هواه ؟ . . وختاماً أؤكد لك أن حاشيته ترى الأمر على غير حقيقته،ويطيب لها أن تجعل منه ضحيةً يُرثى لحالها ، وأن تتهمني بطرده رغبة مني في اتخاذ عشيق آخر ..) (١)

وظلت جورج صاند في عزلتها تداوي جراحاتها في نوهان طوال الشتاء لا تسأل عن فلذة كبدها البعيدة ، ولا تدري عن حبيبها القديم شيئاً . ولقد جرى آخر لقاء بينها وبينه يوم ذهبت إلى باريس لإنجاز بعض المعاملات المتعلقة بمؤلفاتها الجديدة . كان لا بد لها من زيارة كارلوتا مارلياني قبل الرجوع إلى نوهان ، وبينما كانت تتسلق السلم المؤدي إلى شقتها فوجئت برؤية شوبان بصحبة خادمه الحبشي مغادراً البيت بعد أن ودّع صاحبته.وصف شوبان ذلك اللقاء المأساوي في رسالة بعث بها إلى ابنتها صولانج ، وصور لها ارتباك

(١) جورج صاند – فلاديمير كارينين – الجزء الثالث ، ص : ٥٨٦ . ٥٨٧

Twitter:@abdullah1994

جورج ساعة رأته ، والحديث المتقطع البارد الذي جرى بينهما ، كما أعلمها بأنه كان أول من أخبرها بأنها أصبحت جدة لمولودة حلوة منذ بضعة أيام ... ثم قال لصولانج : (... وبعد أن تفارقنا أرسلت خادمي ليطمئنها عن صحتك وصحة المولودة ، وإذا بها تنزل درجات السلم مسرعة وتطرح عليّ بعض الأسئلة بلهفة كبيرة عن كيفية الوضع ، وعن صحتي أنا أيضاً ، فأكدت لها أنك بخير ، وأنكِ نسيت آلام الوضع بعد أن سعدت برؤية ابنتك الصغيرة ، وأنني أتمتع بصحة جيدة ، ثم حييتها وخرجت إلى الشارع [1] ....) أما جورج صاند فقد وصفت ذلك اللقاء الفاتر في مذكراتها فقالت : (ظننت أنه سيكون للشهور التي قضيناها بعيدين أثرها الطيب في شفـــاء الجرح الذي أصابنا ، وفي إعادة الهدوء إلى نفسينا بعودة المنطق والانصاف إلى تفكيرنا ... لقيته لحظات ، وصافحت يده المرتجفة المثلجة ، وبعد أن تبادلنا حديثاً خاطفاً وددت لو يطول تخلّص مني بسرعة . أرى بكل وضوح انه لم يعد يحبني ولكنني أقول هـــذا لنفسي لأنني راعيت شعوره ، وأحببت أن أجنبه الازعاج ، وسلّمت أمري إلى العناية الإلهية [2] !)

---

(١) جورج صاند – فلاديمير كارينين – الجزء الثالث – ص : ٥٩٢ .

(٢) ليليا أو حياة جورج صاند – أندري موروا – ص : ٣٦٣ .

Twitter:@abdulllah1994

استمدت جورج صاند من الضعف قوة لأنها من الشخصيات الفذة التي لا تحنيها العواصف ، ولا تهزمها الصدمات. طوت صفحة أصدق حبّ عانته وأطول حب عرفته وهي في أوج نضجها العاطفي والفكري ، ووجهت أنظارها واهتماماتها إلى مستقبل جديد ، وآفاق رحبة تدفعها إليها عزيمة لا تلين لتحقيق أعمال مجيدة ، وتقديم خدمات أمجد لوطنها ، وللفن والأدب والأسرة والمجتمع. عكفت في ذلك العام على دراسة اللغة اللاتينية ، ومن ثم على قراءة شعراء الرومان ، وكان لمؤلفات « فيرجيليوس — Virgile » كملحمة « الأنيادة » و « الرعائيات » أثر بعيد في مؤلفاتها اللاحقة التي استوحتها من الطبيعة ، ومن تقاليد الريفيين الجميلة وأساطيرهم القديمة.

Twitter:@abdulllah1994

بين السياسة والأدب

اندلعت الثورة الاجتماعية في فرنسا وانتهت بقلب الملكية في الخامس عشر من شهر شباط عام ١٨٤٨ ، وكانت نتيجة حتمية للثورة الكبيرة التي حدثت عام ١٧٨٩ . لعبت جورج صاند دوراً مرموقاً فيها مع طبقة المفكرين المتحررين ، وجلهم من أصدقائها كالشاعر الكبير «لامارتين Lamartine » والسياسي اليساري « لويس بلان — Louis Blanc » والمحامي الخطيب « لودرو رولان — Ledru-Rollin » . كان هدف الحكومة الانتقالية التي اشتركوا بتأليفها بعد اعلان الجمهورية الثانية تثبيت دعائم اشتراكية عادلة بتحقيق مكاسب مشروعة للعمال والفلاحين والطبقات الفقيرة ، وإقصاء العناصر البورجوازية المتطرفة عن الحكم ، دون رفض التعاون مع العناصر المعتدلة . وجدت جورج صاند في تلك الثورة تحقيقاً لأهدافها ، وإنقاذاً للوطن من طغيان النظام الملكي لأنها

Twitter:@abdullah1994

كانت ديموقراطية في الغريزة ، واشتراكية في العقيدة . على الرغم من منبتها البورجوازي والارستقراطي . كانت رواياتها ومقالاتها والصحف التي أنشأتها تدافع باستمرار عن حقوق الطبقة العاملة ، وكانت تشجع الكتاب والشعراء المغمورين وتصادقهم ، وتدعوهم لندواتها ، كالبناء « شارل بونسي — Charles Poncy » والخبـــاز «جان روبول Jean Reboul — » والحلاق « جاك جازمان Jacques Jasmin » . أما صداقتها للامارتين فإنها تعود إلى سنوات خلت يوم كان نائباً معارضاً في المجلس التشريعي إذ بعثت إليه برسالة تهنئة وشكر بعد أن ألقى فيه خطابـــاً جريئاً هاجم فيه الحكومة ودافع عن حقوق الشعب ، فآثر لامارتين القيام بزيارتها تعبيراً عن سروره برسالتها وتقديره لها ، على الكتابة إليها . كانت موجودة في باريس بعد الانقلاب مباشرة فقامت بزيارة الوزراء أصدقائها ، ووجدت من لامارتين الذي تولى وزارة الخارجيـــة يومئذ ومن زميله « لويس بلان » و « لودرو — رولان » ترحيباً كبيراً ، ودعوة للاسهام في الحركة الاصلاحية . لقد كلفوها بتحرير النشرة الرسمية الناطقة باسم الحكومة الانتقالية فقبلت مسرورة لأنه سبق أن تولت كتابة افتتاحيات ومقالات سياسية في أمهات الصحف والمجلات أيدت

Twitter:@abdulllah1994

فيهـــا المعارضة ، وهاجمت الملك : « لويس فيليب Louis Philippe » لامتناعه عن تعديل قانون الانتخاب .

من الملاحظ أن جورج صاند تحمست كثيراً للعمل السياسي في شهر آذار عام ١٨٤٨ ، أي في الوقت الذي انفصلت فيه عن شوبان نهائياً ، وقد ذاعت شهرتهـــا في الاوساط السياسية والاجتماعية والشعبية حتى سُميت « نجمة الجمهورية ومصدر وحيها » ، ولكنها لاقت معارضة كبيرة من المحافظين واليمينيين الذين اتهموها بالشيوعية . وجد « اندري موروا » رسالة مهمة بخطها ضمن مجموعة رسائل تاريخية تحتفظ بها عائلة « سيولبيرغ دي لوفنجول Spoelberch de Lovenjoul » نقلها في كتابه عنها لدحض افتراءات خصومها جاء فيها ما يلي :

(انني شيوعية كما كان المسيحيون مسيحيين في السنة الخمسين بعد الميلاد ! الشيوعية في رأيي هي المثل الأعلى للمجتمعات النامية ، والدين الذي سينتشر بعد بضعة قرون ، ولكنني أرفض إعتناق أية صيغة من صيغها المعاصرة لأنها ترتكز كلها على الديكتاتورية ، وتتنكـــر للأخـــلاق والتقاليد والمعتقدات . لا يمكن لأي دين أن يفرض نفسه بالقوة !)

نستنتج من هذا الحديث أن جورج صاند سبقت مفكري

Twitter:@abdulllah1994

عصرها في التنبؤ بانتشار الشيوعية ، وفي كشفها عن مساوئ وأخطارها بفضل بُعد نظرها . لقد خاضت غمار السياسة بحماسة وكثير من التفاؤل لاعتقادها بان الجمهورية ترسخت في فرنسا ، وان الانتخابات التي دعت إليها الحكومة الانتقالية ستحقق الغاية المنشودة ، واستفادت من حظوتها لدى أعضاء الحكومة فعيّنت أصدقاءها في بلدتي « شاتورد » و « لا شاتر » أعضاء في لجان تنفيذية للاشراف على تطبيق القوانين الاستثنائية الجديدة ، وخلعت صديقها القديم المحامي « ميشيل دي بورج » من منصبه القضائي لاعتقادها بانه كان يخون الديموقراطية ، كما تمكنت من جعل ابنها موريس مختاراً لبلدة نوهان . أما البيانات الرسمية التي أخذت تحررها فقد أثبتت أن الاديب قلما يتقن صنعة السياسة للفوارق الشاسعة التي توجد بين نظرته للحياة واسلوبه في معالجة شؤونها، وبين نظرة السياسي لها وأسلوبه حل مشكلاتها لأن الأديب إنسان مثالي غالباً ما يجنح إلى إجراء معادلات خيالية وهمية في أموره الحياتية ، في حين أن السياسي إنسان موضوعي واقعي كثيراً ما يضطر للجوء إلى الحيلة لتنفيذ أغراضه .

في الرابع والعشرين من شهر آذار عام ١٨٤٨ كتبت جورج لابنها موريس الكلمة التالية : (لقد تراكمت علي

Twitter:@abdullah1994

المشاغل وكأنني رجل دولة . اليوم حررت نشرتين حكوميتين الأولى لوزارة التعليم والثانية لوزارة الداخلية فخذ علماً بأن الثانية موجهة إلى المخاتير ، وهذا يعني أنك ستتلقاها بالبريد الرسمي وتنفذ الأوامر والارشادات التي تتضمنها بسرعة ونزاهة . انهم ينادونني من اليمين ، ومن اليسار ، ولا أدري لمن أستجيب أولا ... ولكنني لا أرغب في أفضل من هذه الحال !) [1] .

ثم عادت إلى منطقتها لتحثّ الناخبين على مناصرة المرشحين التقدميين وتأييد الجمهورية والثورة ولكن مدن المقاطعة ، وبلدة لاشاتر خاصة (ما عدا القرى العمالية) أعلنت تأييدها للمرشحين المعتدلين ، فعادت إلى باريس بخيبة أمل لتتابع مهمتها الصحفية وهي تقول لاصدقائها : (إذا كان البورجوازيون والمنتفعون في مدن مثل « لاشاتر » ضدنا فهذا لا يعني أبداً أننا خسرنا الجمهورية) . كما كتبت لصديقها لامارتن تعتب عليه كشاعر وفنان يشعر بآلام الجماهير الكادحة لوقوفه على الحياد بانتظار تطور الأحداث بفتور . وكان أن ورّطت نفسها والحكومة في بيان نشرته في الجريدة الرسمية جاء فيه ما يلي : (إذا

(١) مراسلات جورج صاند – الجزء الثالث – ص : ١٥ .

لم تسفر الانتخابات المقبلة عن انتصار الاشتراكية ، وجاءت تعبيراً عن مشاعر طبقة تستذل ثقة الشعب وأمانته فإنها ستقضي على الجمهورية برمتها بدلا من أن تكون مرفأ الأمان لها . ولن يبقى أمام الشعب وقتئذ سوى طريق واحدة للخلاص وهي اللجوء إلى مظاهرات عنيفة يعبّر فيها عن إرادته للمرة الثانية ، ويرجىء تنفيذ مقررات تصدر عن برلمان قومي مزيف . تُرى هل ستفرض فرنسا هذا العلاج الأخير المؤسف على باريس ؟ . . لا قدر الله ! !(١))

وجد القراء في هذا البيان دعوة صريحة إلى الفتنة فهاجمته بعض الصحف ، وتنصّل من تبعته بعض الوزراء . اما الاشتراكيون المتطرفون فقد هيأوا مظاهرة شعبية كبيرة في منتصف شهر نيسان عقبتها مظاهرات عنيفة مضادة كانت تهتف بحياة الجمهورية ، وبالموت للشيوعيين ! استاءت جورج صاند وأنصارها من وصمهم بتهمة الشيوعية ، وتوضّح لهم أن مؤامرة كبيرة كانت تحاك بوحي من البورجوازيين الرأسماليين والملكيين للحيلولة دون نجاحهم . لقد توقعوا الهزيمة ولكنهم لم يفقدوا الأمل بالنصر . وأخيراً جرت الانتخابات في الثالث

(٢) « البيان رقم ١٦ – نيسان ١٨٤٨ – باريس .

Twitter:@abdulllah1994

والعشرين من نيسان واثبتت جماهير الناخبين انها محافظة ومياله للملكية، ولكن جورج صاند بقيت محافظة على حظوتها لدى الحكومة بعد أن تمّ تعديلها ، وشوهدت تتحدث مع « لامارتين » المعتدل و« لودرو-رولان » في حديقة مجلس النواب في العاشر من شهر مايس . وفي منتصفه قاد الاشتراكي المتطرف « باربيس – Barbés » عمال باريس في مسيرة كبيرة فاحتلوا القصر الملكي وكأنهم عملوا بنصيحة جورج صاند التي وجهتها لهم في البيان رقم ١٦ ، وطالبوا بحل المجلس التشريعي ، وبتشكيل حكومة اشتراكية، فهبّت قوات الحرس القومي لحماية مبنى البرلمان ودار الحكومة ، واسرعت بقمع المسيرة ، وتفريق المتظاهرين ، واعادة النظام ، بعد توقيف المتطرف « باربيس » وأنصاره . في مساء ذلك اليوم اعترفت جورج صاند بهزيمة الجمهورية الاشتراكية وبلغها أن نية معقودة على توقيفها والتحقيق معها ، فحرقت أوراقها الشخصية وقبعت في بيتها يومين قبل أن تعود الى نوهان لكي تعطي الفرصة للعدالة كي تقبض عليها ، وكتبت في مذكراتها تقول : (ولكن الخوف من أصدقائي لم يكن وارداً على الاطلاق ، كان في وسعي أن أتوارى عن الأنظار في الحال ، وأمثّل دور الشخصية المهمة

Twitter:@abdullah1994

بالهرب ، ومع ذلك لم يشرفني أحد بالاهتمام بي ، اللهم إلاّ بعض أفراد الحرس القومي الذين أغاظهم إهمال شأن متآمر خطير مثلي ...) .[1]

هكذا انتهت المغامرة السياسية التي قامت بها جورج صاند بكل حماسة واخلاص ، والتي ولّدت لها خصومات جديدة ومتاعب كبيرة حتى في منطقتها وبلدتها نوهان . هاجمتها صحافة باريس ، ونصحها وجهاء منطقتها بمغادرة نوهان إلى أن تهدأ العاصفة لأن البورجوازيين فيها متحاملون عليها ، يهددون بحرق بيتها ، فذهبت إلى مدينة « تور – Tours » ولكنها ما لبثت أن عادت إلى نوهان لتثبت للجميع أنها محقة فيما فعلت ، وانها لا تخاف من أحد ! كان دعمها لإرساء قواعد جمهورية اشتراكية تحقيقاً لأهدافها المتلخصة في إصلاح جذري وسريع لمصير الطبقة الفقيرة التي تشكل الأكثرية . ففي عام ١٨٤٠ كتبت للشاعر الشعبي « شارل بونسي » الذي كان بناءً فقيراً ، وشاعراً مغموراً قبل أن تأخذ بناصره وتنشر أعماله فقالت : (الانسانية التي تتألم يا صديقي ليست أنا وأنت وزملاءنا الكتّاب ، ليست أنا التي لم

---

(١) ليليا أو حياة جورج صاند – أندري موروا ، ص ٣٨٨ .

Twitter:@abdulllah1994

تعرف في حياتها ، بكل أسف ، ما هو الجوع وما هي التعاسة ، وليست أنت الذي يجد في تمجيد الناس لموهبته ، واعترافهم بحسن صنيعه أحسن مكافأة على معاناته ، انها الشعب ايها الشاعر العزيز ، الشعب الجاهل ، الشعب المهمل الذي يتلاعب بمشاعره أصحاب المطامح فيثيرونها وفقاً لمصالحهم ، ويقودونه إلى الانحراف ، أو يضغطون عليه حتى الكبت ، دون أن يحترموا الحياة التي لم يمنحه إياها الله بدون سبب . . .[1]) .

وعندما عاب عليها خصومها تمتعها بممتلكات واسعة أجابت بقولها : (إني أكره الملكية الزراعية والعقارية ، ولا أشعر بارتباط إلا بالبيت والحديقة . أما السهول ، والبساتين ، والأراضي المسوّرة ، وكل ما هو منبسط فهو يرهقني إذا كان متعلقاً بي ، ولا يغريني امتلاكه البتة !) .

ذاقت جورج صاند طعم المرارة النفسية بعد خيبة أملها بالناس والأصدقاء ، وحتى بشوبان الذي شمت باخفاقها في السياسة ولم يترك فرصة في أحاديثه ورسائله

(١) مراسلات جورج صاند – الجزء الثاني – ص : ٢١٨ – ٢١٩ .

Twitter:@abdulllah1994

إلا وانتهزها للطعن بها هي الحبيبة القديمة ، والسيدة الكريمة التي تعرضت للمخاطر من أجل اسعاده ... كان مقيماً في العاصمة البريطانية يومذاك لتقديم بعض الحفلات الموسيقية ، وكان يراسل أصدقاءه في باريس ويرسل لصولانج من « لندن » الهدايا والزهور ... وقد كتب في مذكرته بتاريخ ١٨٤٨/٨/٢٨ يقول : (يبدو أن السيدة صاند غطست في الأوحال ، في الآونة الأخيرة ، وغطّست الكثيرين معها . انهم يسندون إليها البيانات الشنيعة التي أشعلت نار الحرب الأهلية ...[1]) .

ان الشنيع حقاً هو هذا التشهير غير المتوقع من فنان ارستقراطي ، مرهف الشعور ، مدين بحياته وصحته إلى تلك المرأة التي أحبها حباً جماً ، وعاش في بيتها وتحت كنفها السنوات الطوال . لقد أنكر المعروف ، ونسي المودّة ، ونكص بعهود الصداقة والوفاء ، واستمر في طعنها من الخلف ، معبراً بذلك عن حقد رهيب، لم يكن لائقاً به . وإذا كان ما يقوله علماء النفس ان الكراهية

(١) ذكريات شوبان ، المخطوطة التي نشرها : « كارلوفيتش» عن كتاب « أندري موروا » : « ليليا أو حياة جورج صاند — ص : ٣٩١ .

Twitter:@abdulllah1994

التي تعقب الحب أحياناً تأتي في عمقها وعنفها على قدر ذلك الحب فلا ريب أن شوبان أحب جورج صاند أكثر مما أحبته . أما حبها له فقد اتسم بالتسامح والنبل اللذين كانا السبب في ترفعها عن رد الاهانة بمثلها بعد القطيعة بينها وبين الحبيب .

في تلك الفترة بالذات تلقت جورج صاند صدمة ثانية اذ فوجئت بصدور كتاب عنها وضعه قريب أمها الخياط السيد « برول – Brault » ، والد « أوغوستين » ، الفتاة التي تبنتها وزوجتها وخصتها بمهر كبير ... نشر السيد « برول » كتابه بعنوان : (سيرة المعاصرة جورج صاند : دسائسها ومغامراتها) واتهمها فيه بإغواء ابنته أوغوستين وجذبها إلى بيتها لتصبح عشيقة ابنها موريس ، كما هدد بنشر ملحق للكتاب ، فاستنكر المقربون منها هذا التجني عليها لعلمهم بأن العلاقة بين الفتاة وموريس كانت علاقة أخوية شريفة ، وان جورج علمت الفتاة ، وحافظت عليها وزوجتها لرجل مثقف ذي مركز اجتماعي ممتاز . فكرت بمقاضاته فاستشارت محاميها باقامة دعوى تشهير عليه ولكنه نصحها بصرف النظر عنها، وتولى وضعه

Twitter:@abdulllah1994

عند حده في مقابلة أجراها معه فتبين له ان « برول » أقدم على نشر الكتاب بقصد ابتزاز المال منها . . . عندئذ وجد فردريك شوبان فرصة جديدة للتنكيل بصاحبته القديمة فعلق على الحادثة متشفياً منها ، وكتب في مذكرته يقول : (باريس بمجموعها تتحدث عن المغامرة القذرة التي خاضتها جورج صاند مع الفتاة الطيبة « أوغوستين ». كتاب السيد « برول » عمل شائن لا يليق بأب ، ولكنه تسجيل للحقيقة . وهذه هي نتيجة الاحسان الذي نهيتها عنه وعارضته بكل قوة عندما جاءت بالفتاة إلى بيتها...) .

لقد بلغها كلام شوبان هذه المرة أيضاً فأشفقت عليه أكثر مما تأذت منه ، وكتبت تقول : (إنني عاجزة عن مقابلة هياجه وحقده بمثلهما، وكثيراً ما أفكر فيه كما يفكر الإنسان بطفل مريض يسيطر عليه الغضب ويشعر بالضياع[1]).

انقطعت جورج عن العمل الصحفي في تلك الآونة ، ووجدت في تدوين مذكراتها وتأليف روايات جديدة قلعتها الحصينة . كتبت إلى أحد أصدقائهـــا في أيلول من تلك السنة المضطربة تقول : (تسأل يا صديقي في أية صحيفة

---

(١) مراسلات – جورج صاند – الجزء الثالث – ص ٩٢ .

Twitter:@abdulllah1994

أنشر . فاحب أن تعلم بأنني امتنعت عن الكتابة للصحف والمجلات في الوقت الحاضر لان التعبير عن الرأي الحرّ لم يعد ممكناً ما دمنا نعيش تحت وطأة الاحكام العرفية . ينبغي لمن يودّ العمل في هذه الظروف العصيبة أن يتغاضى عن أشياء كثيرة وأنا كما تعلم عاجزة عن التغاضي ... لقد وهنت عزيمتي منذ بعض الوقت ، وما زالت مريضة أنتظر شفاءها) . وإذا شئنا الوقوف على معاناتها آنذاك فلنقرأ ما جاء في مذكرتها التي دونت فيها أحداث عام ١٨٤٨ : (ينظر الناس إلي وكأنني عدوة للجنس البشري ، بل كأنني المسؤولة الوحيدة عن الجمهورية لأنها لم تف بوعودها ... أجل هذا ما ألقاه هنا في منطقة « البيري » الرومنطيقية العذبة التي أحبها بجنو كبير ، والتي قمت فيها بواجباتي تجاه جميع أبنائها [١]) .

وفي رسالة وجهتها الى صديقتها القديمة السيدة « كارلوتا مارلياني » أعربت أيضاً عن همومها فقالت : (لا بد لي من اثبات وجودي هنا أمام زمرة من الحمقى يقطنون مدينة « لاشاتر » ويهددون بإحراق بيتي يا عزيزتي . ولكن تأكدي من انهم ضعفاء لا أثر

---

(١) ذكريات عام ١٨٤٨ – جورج صاند – ص ١٢٠ .

Twitter:@abdullah1994

للشجاعة في نفوسهم لأنهم يرفعون قبعاتهم احتراماً عندما يصادفونني في مكان عام ، ويهتفون قائلين « لتسقط الشيوعية » عندما أتوارى عن أنظارهم [1]) .

ذكرنا آنفاً أن جورج صاند وجدت في التأليف القلعة الحصينة التي أبعدتها عن هجمات الخصوم ، وألسنتهم الشرسة ، ونميمتهم المؤذية . استغرقت في عالم الفكر والإبداع فوجدت فيه الراحة والأمان ، والبلسم المنشود لجراحها ، وكان لابنها موريس ورفاقه الشباب ، وجلّهم فنانون موهوبون سواء في الرسم أو النحت أو التمثيل ، الأثر الطيب الذي كان للطبيعة في مصالحتها مع الوجود ، وجذبها للتطلّع إلى المستقبل بقلب مفتوح . ولا شك في أن مطالعتها لملاحم شعراء الاغريق والرومان تركت آثاراً واضحة في أعمالها الجديدة المستوحاة من طبيعة الريف الفرنسي الذي نمت فيه وشبّت ، ومن حكايات سكانه وأساطيرهم ، وأشعارهم الشعبية . قصص زراع القنّب التي سحرتها في طفولتها تمثلت في مخيلتها فجأة اذ كثيراً ما يشدّنا الحنين لذكريات الطفولة عندما تعضنا أنياب الحياة في سن الكهولة . وقد حفزتها العودة بالذاكرة إلى الماضي السعيد بالاضافة إلى التأثر اللاواعي بقراءات روائع

(١) مراسلات – جورج صاند – الجزء الثالث – ص ٨٠ .

Twitter:@abdulllah1994

الأقدمين الى استنباط موضوع روايتين ريفيتين عظيمتين : « مستنقع الشيطان – La Mare de Diable » و « فرانسوا اللقيط – François le Champi » وهما روايتان متوازيتان من حيث البساطة في السرد ، وجمال الموضوع ، والشاعرية التي يتميز بها الريفيون في كل مكان . في الأولى تُحدثنا الكاتبة عن فتاة فقيرة يتزوجها مزارع غني كما يتحدث الحكواتي لجمهوره الشعبي ، أي ببساطة متناهية ، وتشويق لا يخلو من المهارة ، واستطرادات ممتعة ، ولكنها جعلت الحديث والحوار بلغة فرنسية من نوع ما نسميه « السهل الممتنع » عوضاً عن استعمال اللهجة المحلية الدارجة في منطقتها لكي يفهم الرواية جميع الفرنسيين . وفي الرواية الثانية يعشق اللقيط المرأة التي احتضنته فتقصّ علينا الروائية حكايتهما باسلوب رشيق سلس ، فيه موسيقى خرير السواقي ، وعذوبة غناء رعاة القطيع ، وشفافية نسائم الربيع مما حدا بنقاد الأدب الفرنسي الى المقارنة بين هاتين الروايتين وبين قصائد فيرجيل وأوديسة هوميروس . وما أن فرغت منهما حتى عكفت على كتابة رائعة ثالثة عنوانها : (فاديت الصغيرة – La Petite Fadette) نشرتها بالتسلسل في صحيفة « لو كريدي – Le Crédit » الباريسية ، فأقبل القراء

Twitter:@abdulllah1994

على متابعة حلقاتها المشوقة إقبالا منقطع النظير ، وأقروا من جديد بعبقريتها . كما أعجب النقاد بمقدمة تلك الرواية التي أعطتها العنوان التالي : « لماذا رجعنا إلى حظائرنا » وروت فيها حديثاً أجرته مع أديب في نوهان كان الحافز الذي دفعها لكتابة « فاديت الصغيرة » فقالت :

(بينما كنا نستعرض الاحداث ونتكلم عن الجمهورية التي فُرضت علينا ، والجمهورية التي نحلم بها ، بلغنا مكاناً ظليلاً تعبق فيه رائحة العشب والصعتر البرّي التي تدعو المتنزه إلى الوقوف للاستمتاع بها ، فقال صاحبي :

ـ هل تذكرين أننا مررنا من هذا المكان ، قبل سنة تقريباً ، وتوقفنا فيه طويلا ؟ لقد رويتِ لي قصة « فرانسوا اللقيط » في هذا المكان بالذات ، ونصحتك بأن تدوّنيها بالاسلوب العفوي البسيط الذي اعتمدته في سرد القصة لي.

ـ نعم أذكر ذلك ، وأذكر جيداً انني قلّدت طريقة عمال القصب والقنب في التعبير . . . ولكن ما أبعد ذلك اليوم ! يخيّل إلي ان عشرة أعوام انقضت عليه ...

فعلق صاحبي على كلامي قائلا :

ـ ومع ذلك لم يطرؤ أي تغيير على الطبيعة ، فالليالي

Twitter:@abdulllah1994

ما زالت صافية ، والنجوم ما زالت تتألق ، «عطر الصعتر البري ما زال يتضوّع ... ونحن وان كنا مغتمين وتعساء ما زلنا مشغوفين بعذوبة الطبيعة ، وما زلنا نجد السكينة في شاعريتها ، فما من أحد يستطيع أن يسلبنا هذه الأحاسيس. وما دمنا غير قادرين على منح التعساء غير هذه الأحاسيس فلنكرس موهبتنا للفن إذن ، كما كنا نفعل سابقاً ، ولنمجد بهدوء هذه الشاعرية الوديعة ، لنجعل منها عصارة نداوي بها جراح الانسانية وكأنها نسغ نبتة نافعة ، مباركة .

ففكرت لحظة ثم قلت لصديقي :

– ما دام الأمر كذلك فلنعد إلى حظائرنا ، أعني القصائد والحكايات الرعوية ...[1]) .

على الرغم من رواج مؤلفاتها الأخيرة التي تحدثنا عنها والتي درّت عليها مالاً كثيراً شعرت جورج صاند بضائقة مالية لاضطرارها إلى تسديد ديون ابنتها صولانج وصهرها « كليزينجر » المطرودَين من بيتها ، واللذين كانا ينفقان في باريس بدون حساب ... حاولاً استرضاءها

---

(١) فاديت الصغيرة – المقدمة – جورج صاند .

Twitter:@abdulllah1994

أكثر من مرة ولكنها اكتفت بالرد على رسائل ابنتها ؛ ورفضت استقبالهما في بيتها . لقد استنفذا المهر الكبير (الدوطة) التي تسلماها يوم زواجهما في أقل من عام ؛ وكانا يغاليان بالإسراف معتمدين على ثروتها الشخصية ؛ وواردات مؤلفاتها ، وقلبها الطيب . وعندما زوّجت الفتاة التي تبنتها « أوغوستين برول » في العام ذاته قدمت لها مهراً كبيراً قدره ثلاثون ألف فرنك مما أرهق موازنتها وجعلها تفكر بمشروع أدبي جديد سرعان ما اهتدت إليه وطلبت من ناشرها في باريس سلفة كبيرة عليه . يتلخص المشروع بكتابة مذكراتها وقصة حياتها بشكل مفصل يتضمن خلاصة آرائها في الحياة والأدب والفن ، والسياسة والمجتمع ، والدين ، والحرية ، ووصفاً لتجاربها ومعاناتها ومشاعرها . فرحب الناشر بالكتاب الموعود ، ولا سيما عندما علم بأنه سيكون عملاً كبيراً يقع في عشرة أجزاء ويستغرق بضع سنوات ، وحوّل لها السلفة التي طلبتها شاكراً لأنه كان واثقاً من رواج الكتاب ، وتحقيق أرباح جيدة منه لما لها من شهرة واسعة ، ومكانة رفيعة . جعلت جورج عنوان هذا الكتاب : « قصة حياتي » وباشرت بكتابة جزئه الأول عام ١٨٤٧ بعد أن وضعت له مخططاً وهي تدرك أنه عمل دقيق ، يتطلب تنفيذه

Twitter:@abdulllah1994

نَفَساً طويلا ، وحالةً نفسية هادئة . عمدت إلى تدبيج فصوله بتوأدة ، وجعلته عملاً روتينياً ، لا يتعارض مع تأليف الروايات والمسرحيات ، بل يروّض فكرها عندما تخلد إليه ، إما بعد الفراغ من رواية أو مسرحية جديدة ، أو في أثناء إنتاجها . ولندعها تحدثنا عنه بنفسها في رسالة وجهتها للأديب « شارل بونسي » في ١٨٤٧/٣/١٤ :

(انه سلسلة ذكريات ، وجهر بالعقائد الدينية والسياسية ، ومجموعة تأملات في إطار لا يخلو من الشاعرية ، ولكنه يتميّز بالبساطة . ومع ذلك لن يكون الكتاب سجلاً لحياتي كلها فأنا لا أحب الاعترافات لما تشتمل عليه من صلف وصفاقة في بعض الأحيان ، ولا أعتقد أنه ينبغي أن نكشف أسرار قلوبنا لأناس أسوأ منا ، مهيئين لاتخاذ أمثولة سيئة منها ، عوضاً عن الامثولة الطيبة . وما دامت حياتنا ملتزمة بكل ما يحيط بها ، ومتكافلة حكماً مع حياة الآخرين فلا نستطيع ان نتبرأ من شيء دون ان نتهم أحداً ، وقد يكون هذا الانسان أعزّ صديق . وأنا في هذه الحالة لا أريد أن أتهم أحداً أو أن أحزنه ، وإذا ما فعلت ذلك فسوف أمقت نفسي ، وأتأذى منه أكثر من ضحاياي ، لهذا أظن أنني سأضع كتاباً نافعاً ، لا خطر فيه ولا فضائح ، منزّهـاً عن الغرور ، كما هو منزه عن النذالة . انني منكبة على

Twitter:@abdulllah1994

تأليفه بطيبة خاطر وحبور ...[1]) .

هذا عن نشاط جورج صاند الأدبي بعد خذلانها في السياسة ، أما فيما يختص بحياتها العاطفية بعد القطيعة مع شوبان فلم يجد فيها شيء يستحق الذكر لأن جرح قلبها اندمل على التسامح والصفاء ، ولأنها وجدت في محبة ابنها وصحبته الممتعة ، وفي النجاح الكبير الذي أحرزته أعمالها الجديدة سعادة حقيقية ، والسكينة النفسية التي كانت تنشدها . غير أن عام ١٨٤٩ اشتمل منذ بدايته على سلسلة حوادث محزنة كان أولها موت أخيها من أبيها « هيبوليت شاتيرون » والثاني موت « فرديريك شوبان » ، والثالث موت صديقتها القديمة الممثلة العظيمة « ماري دورفال » . مات أخوها الذي كان يعيش في مزرعة قريبة من نوهان فكتبت إلى « شارل بونسي تقول في السابع من كانون الثاني عام ١٨٤٩ : (لقد فاضت روحه دون أن يشعر يا صديقي ، بعد مرض استمر سنتين امتنع خلالهما عن الطعام ، إلا أقله ، وأسرف بالشراب حتى النهاية ...) ومات شوبان في السابع عشر من تشرين الأول من العام ذاته عن تسعة وثلاثين عاماً فروى أحد اصدقائه المقربين إليه أنه كان في ساعاته الأخيرة يردد جملة وهو

---

(١) « مراسلات » – جورج صاند – الجزء الثاني – ص : ٣٧٨ .

Twitter:@abdulllah1994

يتلعثم بالكلمات ، مفضياً بما في قلبه عن جورج صاند : « لقد أكدت لي أنني لن أموت إلا بين ذراعيها ... » ولكن إثبات هذه الرواية يكاد يكون مستحيلاً لكثرة الروايات التي تناقلها الناس عن أيامه الأخيرة .

علمت جورج ان ابنتها صولانج كانت إلى جانبه في ساعات نزعه مع أقرب أصدقائه البولونيين ، وأن المغنية البولونية « ديلفين بوتوكا » كانت ترتل له أناشيد قومية حزينة بصوت خافت يتخلله النحيب . وبعد أن بلغها نعيه الذي أحزنها كثيراً اعتزلت في غرفتها يوماً كاملاً ، ثم بحثت عن خصلة من شعره كان قد أهداها إليها فوضعتها في مغلف كبير كتبت عليه : (يا لشوبان البائس ! نوهان في ١٧/١٠/١٨٤٩) . وما زال هذا المغلف محفوظاً في القصر لدى أحفادها الذين يعيشون فيه ويفتحونه للزوار المعجبين بجدتهم العظيمة حيث أبقوا كل شيء في مكانه تقريباً : الأثاث القديم ، وخزانة الكتب ، وبعض المخطوطات الأثرية ، والبيانو الذي صدحت منه أروع الألحان على أنامل الفنان « فرانس ليست » والموسيقار « فريدريك شوبان » قبل مئة وأربعين عاماً . أما أوراق شوبان الشخصية فقد نقلها أصدقاؤه إلى بولونيا فتمنت جورج استرجاع رسائلها إليه ولكن أملها بالحصول عليها كان ضعيفاً . وبعد عامين

Twitter:@abdulllah1994

من وفاة الحبيب تلقت رسالة من الأديب « ألكسندر دوماس – الابن) أذهلتها وأفرحتها كثيراً ، أخبرها فيها أنه اكتشف الرسائل في قرية نائية تقع على الحدود البولونية الروسية عند أصدقاء لأخت شوبان ... فقد اتفق أن توقف عند هؤلاء الأصدقاء في قريـة « ميزولويتز – Mysolowitz » ليبيت ليلةً قبل استئناف السفر إلى روسيـا ، فناولوه رزمـة الرسائل لكي يتسلى بقراءتها لأنها محررة بلغته التي لا يفهمونها. ثم علم منهم أن أخت شوبان تركتها عندهم خشية أن يشكّ بمضمونها موظفو الأمن العام ، واعلموه بأنها رسائل غرامية كتبتها سيدة فرنسية لا يعرفون عنها شيئاً ... وفي اليوم التالي طلب منهم حملها معه على مسؤوليته ، فأجازوه مسرورين لأنهم كانوا يخشون أيضاً أن تُسبب لهم المضايقات !!! وهذه هي رسالة جورج لصديقها ألكسندر دوماس التي وجهتها له في ١٨٥١/١٠/٧ : (ما دمت قد قرأت بإمعان هذه المجموعة المشحونة بالثرثرة ، والتي لا تهم أحدا في رأيي ، فقد علمتَ الآن بوضوح نوع العاطفة بل الحنـان الصادر عن قلب أم أغدقته عليه طوال تسع سنوات من حياتها . كما تيقنت بلا ريب من أنها لا تتضمن أسراراً ، إنمـا هي رسائل بريئة ينبغي ألا أخجل منها بل ، على العكس ، يحق لي التباهي بأنني عنيت بذلك القلب النبيل ، المعتل ، وواسيته كما لو كان إبناً

Twitter:@abdulllah1994

لي حملته في الضلوع ، ورعيته بالأهداب ....[1])

أما الحادثة الثالثة التي أحزنتها أشد الحزن فكانت موت صديقتها الممثلة « ماري دورفال » التي صبرت في حياتها على صروف الدهر ، وعانت من العوز والعذاب الشيء الكثير. غابت ماري دورفال في السنوات الأخيرة عن أنظار جورج صاند ولكنها لم تغب عن قلبها أبداً . كانت تراسلها باستمرار وتساعدها مادياً ما استطاعت ، ولاسيما عندما تقدمت بها السنّ واضطرت لتمثيل أدوار ثانوية مع الفرق المسرحية التي كانت تطوف على المدن الفرنسية النائية لاعالة ابنتها العاطلة عن العمل وأولادها الصغار. وجّه صهر الممثلة « دورفال » إلى جورج رسالة مؤثرة وصف فيها حماته وأيامها الأخيرة المفجعة ثم قال : (... نعم يا سيدتي العزيزة ، هكذا ماتت حبيبتنا الباسلة التي كانت تحبك وتفكر بك مقدار ما كانت تحبنا وتفكر بنا ، فلقد كنتِ أعزّ انسان عليها . أودّ أن تعلمي أن روايتك الأخيرة « فاديت الصغيرة » كانت آخر كتاب قرأته عليها ، وأنك كنت منهل سعادة روحية خففت الكثير من آلامها المبرحة ، وجعلتها تفارق الحياة ، حياة التشرد والشقاء ، والبسمة مرتسمة على شفتيها . آه يا سيدتي ما كان

---

(١) ليليا أو حياة جورج صاند – أندري موروا – ص : ٣٩٦ .

Twitter:@abdulllah1994

أجمل تلك البسمة ! ثم لا أخفي عنك أنها أفاضت في الحديث عن قلبك الكبير ومكرماتك المبرورة حتى في أيامها الأخيرة[1].

ولم تتوان جورج صاند عن إعانة أسرة الممثلة بعد موته إذ تعهدت بتعليم سبطيها على نفقتها ، وأصبحا يقضيان فرص الصيف في بيتها في نوهان كل عام إلى أن اشتدت سواعدهما !

---

(١) « ليليا أو حياة جورج صاند » – أندري موروا – ص : ٣٩٤ و ٣٩٥ .

Twitter:@abdulllah1994

أعمال مسرحيّة وخدمات إنسانية

يوم علمت جورج صاند بأن « أوغوستين » التي ربتها وزوجتها رزقت مولوداً ذكراً واسمته « جورج » تيمناً بأسمها هرعت إليها مهنئة ، وعادت إلى نوهان لتحث ابنها موريس على الزواج . كان موريس يقيم تارة في باريس وأخرى في نوهان ، وكان قد لمع اسمه بين الفنانين الجدد ، وبلغ عامه السابع والعشرين في عام ١٨٥٠ . اضحى قصر نوهان مفتوحاً طوال السنة لاستقبال اصدقائه واستضافتهم خلال فترات طويلة وقد أولع هؤلاء الشباب الموهوبين في الرسم والنقش على الخشب والنحاس أمثال : « أوجين لامبير Eugène Lambert » « ومارسيل مانسو Marcel Manceau » بصاحبة القصر لا لعبقريتها فحسب ، وإنما لحلاوة عشرتها ، وكرم يدها ونفسها. وقد أنضم إليهما الصحفي الشاب : « فيكتور بوري Victor Borie » وأميل أوكانت — Emile Aucante » بعد فترة وجيزة ، وأصبحوا ملازمين لها ولإبنها لا سيما

Twitter:@abdullah1994

في فصل الصيف . اتخذت الكاتبة الكساندر مـــا نصو سكرتيراً لها وجعلته المؤتمن على أسرارها أعواماً طويلة لدماثة خلقه ، وسرعة خاطره ، ورغبته الأكيدة في خدمتها . كانت له أماً وصديقة لأنه كان أصغر منها بثلاثة عشر عاماً ؛ وآثرته على سائر رفاق ابنها وخصته بعطفهـــا . أما موريس فقد صارحها بأنه ليس مقتنعاً بضرورة الزواج وبأنه واجب اجتماعي ، فناقشته في الموضوع مبديـــة آراء جديدة فيه تتعارض مع آرائها السابقـــة ! أصبحت ترى في زواج الحب ضماناً لحياة عائلية نظيفة ، ومما لا شك فيه أنه كان لأحاديث صديقها « بالزاك » ، ولإخفاقها في العلاقات الحرة أثر بعيد في تطوير آرائها بعد أن بلغت سن النضج . ولكن موريس لم يتزوج الا في عام ١٨٦١ بعد أن بلغ الثامنة والثلاثين، وأحب فتاة رائعة في العشرين ، عاملاً بنصيحة أمه العتيدة : « إياك أن تتزوج إن لم تحب التي ستتخذها شريكة العمر » .

استأثر حب المسرح بجورج صاند اعتباراً من تلك السنة أي منذ انضمام أصدقاء موريس لنوهان ومشاركتهم في وضع حوار المسرحيات ، وصناعة الدمى ، والتمثيل ، وتزيين قاعة العرض الجديدة التي استغرق إعدادها في قبو القصر

Twitter:@abdulllah1994

وقتاً طويلاً . كانت جورج تنهض من النوم في الضحى فتشرف على سير الأعمال البيتية قبل الغداء ، وتتريض في الحديقة وتهتم بها بعده ، ثم تتفرغ للكتابة بعد تناول الشاي إلى أن يحين وقت العشاء ، فتقضي السهرة مع موريس والضيوف وتعود للكتابة حتى ساعات الصباح الأولى . أما السهرات فكانت مخصصة إما للتمثيل أو للقراءة والموسيقى ، وإما للتطريز وخياطة ثياب الدمى المتحركة .

اعترفت جورج صاند في مذكراتها بأن لمسرح نوهان فضلاً كبيراً على تنمية موهبتها في التأليف المسرحي ، وأنها مدينة له بتغلبها على السأم واليأس لأن للاهتمام بأبداع العرائس وتحريك خيوطها سحراً كبيراً ، ولأن من يُشغف بها ينسى نفسه ومشكلاته . انها مسلية وجذابة وممتعة أكثر بكثير من سائر أنواع اللهو واللعب ، وليس هنالك فرق كبير بين عرائس الخشب التي تحب وتغضب ، تضحك وتتخابث ، تبكي وتغني في ملهاة هزلية أو دراما وبين الأدوار الإنسانية التي نمثلها جميعاً على مسرح الحياة ... من هنا انبثق اهتمامها بكتابة أعمال مسرحية كان أغلبها من النوع المأساوي ، وأغراها نجاحها بتحويل موضوعات بعض رواياتها إلى مسرحيات رائعة . أول مسرحية لها عُرضت على مسرح

Twitter:@abdulllah1994

« الجيمنـــاز ــ Gymnase » في باريس كانت بعنوان :
« زواج فيكتورين Le Mariage de Victorine » فقد ذهبت
إلى العاصمة للإشراف على إخراجها وقدمتها الفرقة للجمهور
في مساء السادس والعشرين من تشرين الثاني عام ١٨٥١ .
توقعت جورج في تلك الليلة الالتقاء بعدد كبير من الأصدقاء
والصحفيين ولكنها لم تتوقع وجود ابنتها صولانج وصهرها
« كليزينجر » بين النظارة ... فوجئت بهما لحظة أقبلا عليها
للتحية والتهنئة فتبادلت معهما عبارات المجاملة ثم انصرفت
لتقبّل التهاني من الاصدقاء والمعجبين ، مع أن الاقبال على
المسرحية كان ليلتئذ ضعيفاً لتأزم الوضع السياسي في باريس.
وفي نهاية السهرة قالت لاصدقائها : (لو كنت أعلم أن الوضع
في العاصمة كان على أهبة الأنفجار لما وافقت على تقديم
مسرحيتي في ذلك الظرف الخطير ... وإذا كان الرجعيون
يهيئون انقلاباً فلن أنفعل إذ لا شيء يقدر على هزيمة الباطل
سوى الزمن والصبر ! »

والجدير بالذكر ان جورج لم تكتف بتأليف المسرحيات
بل شاركت في تمثيلها على خشبة مسرحها في نوهان مـع
فرقة ألّفتها من « جورج بوري » ، و « لامبير » ، و« مانصو»
وابنها موريس ، وبعض فتيات البلدة . كتبت في العام

Twitter:@abdulllah1994

ذاته مسرحيـــة أخرى عنوانهـــا : « نيللو او عـــازف الكمـــان — Nello ou le Joueur de Violon » وتمرنت عليها بعض الوقت ثم دعت لحضورها وجهاء المنطقة وبعض الصحفيين فأعجب بها المدعوون كثيراً ، ولا سيما بالكاتبة الفذة التي أثبتت انها ممثلة بارعة ! لقد مثلت دور بطلة القصة فكتبت في اليوم التالي رسالة إلى « أوغوستين » تقول: (مثّلنا مسرحيتي الأخيرة ليلة البارحة أمام جمهور مؤلف من خيرة أبناء منطقتنا ، ويا ليتك كنت معنا ! صفق لنا المشاهدون كثيراً ، وحكمت عليّ فرقتنا المحلية بأخذ الأدوار الرئيسية على عاتقي بعد اليوم ، ولكنني لا أخفي عنك ان انتحال شخصية شابة صغيرة لم يكن سهلاً ، مع انه كان لمساحيق التجميل والأزياء الملائمة فضل كبير في ظهوري على المسرح بهيئة بنت العشرين ...).

بلغ عدد المسرحيات التي كتبتها جورج صاند عشرين مسرحية عُرضت كلها في حياتها ، وكان من أنجحها« زواج فيكتورين » و « المعلم فافيلـــلا — Le Maître Favilla » التي عرضت على مسرح الأوديون — Odéon » في » باريس عام ١٨٥٥ » ومسرحيـــة « ماركيز دي فيللومير —

Twitter:@abdullah1994

« Le Marquis de Villemer » وهي مسرحية عـاطفية مثيرة (ميلودراما) مقتبسة من روايتها التي صدرت تحت ذات العنوان ، ولاقت رواجاً كبيراً . ولا بد من الإشارة إلى ان صديقها الكاتب المسرحي الكبير « الكساندر دوماس الابن » شجعها كثيراً على اقتباس مسرحيات من رواياتها . ودربها على ذلك الفن الذي برع فيه قبلها، ولنا عودة إلى مسرحية « ماركيز دي فيللومير » التي عُرضت على مسرح الأوديون في باريس عام ١٨٦٤ لاتصالها بأحداث مهمة عاشتها الكاتبة الكبيرة في العاصمة الفرنسية يومذاك.

منذ ان شارفت جورج صاند على الخمسين من العمر طغى حبهـا للريف وشغفها بالطبيعة على تذوق باريس والاستمتاع بمغرياتها الفنية والفكرية . أصبحت إقامتها الدائمة في نوهان ، وزياراتها للعاصمة قليلة وخاطفة إما للاشراف على إخراج مسرحياتها ، أو لإجراء مقابلات ضرورية ، وقد كانت تقيم تارة في البيت الذي استأجره ابنها موريس ، وأخرى في بيت أمين سرها ومرافقها الخاص « الكساندر مانصو » . أضحت باريس مقفرة في نظرها بعد موت « شوبان » و « ماري دورفال » عام ١٨٤٩ ، وموت « بالزاك » و كارلوتا مارلياني » عام

Twitter:@abdullah1994

١٨٥١ ، وموت « هـنري دي لاتوش » وغيرهم من أصدقائها ، ولم تعد تجد فيها إلا ذكريات حزينة . أما الراحة النفسية فقد كانت تجدها في نوهان التي تتجدد مع كل ربيع ، وتزداد سحراً وجمالا في الخريف الذي يُعلن عن الشتاء ببرده الذهبي ، وفي الشتاء الذي يُعلن عن الربيع برداثه الجليل الناصع البياض ! كانت جورج صاند تعتقد بان مشاهد الطبيعة ، ومجاورة الشجر والزهر والسواقي تساعد الانسان كثيراً على احتمال التغيّرات التي تطرأ عليه عندما تتقدم به السن ، وكانت تنظر إلى الشيخوخة باستغراب وابتسامة رضا عريضة : الاستغراب لأنها كانت تسمع بها دون ان تلحظ آثارها عليها إذ بقيت متفائلة ونشيطة ومحور الاهتمام والجاذبية في كل مكان ، وابتسامة الرضا لأنها فقدت الحماسة للحب والميل للمغامرة ، ولكنهـا احتفظت بالذكريات والأمجاد وأضحت ترفل في نعيم النور بعد ان اكتوت بلهيب النار ... أصبح همها الكفاح من أجل إسعاد الآخرين بعد ان فاتها قطار السعادة في شبابها على الرغم من انه توقف امامها على الرصيف أكثر من مرة ... نشرت رواية جديدة وهي تجتاز المرحلة الخطيرة التي يدعونها « سن اليأس » بعنوان « إيزيدورا – Isidora »

Twitter:@abdulllah1994

جاء على لسان بطلها هذا الوصف الرائع (المرأة المسنة هي امرأة ثانية ، هي « أنا » جديدة تقبل عليّ ولكنني لا أتذمر منها . انها امرأة تجهل كل شيء عن أخطائي السابقة لعجزها عن فهمها وتفهمها ، وعن ارتكاب مثلها...انها تبدو رقيقة وهادئة بقدر ما كانت الأولى عصبية المزاج ،متحدّية، وعنيفة ... انها تكفّر عن جميع الذنوب التي اقترفتها الأولى وتغفر لها جميع الهفوات والحماقات التي ارتكبتها، مع ان ضمير الأولى كان يؤنّبها ويمنعها من الصفح عن نفسها ...[1]) .

عندما قدم مسرح « الأوديون » أول تمثيلية كتبتها جورج صاند وكان عنوانها : « زواج فيكتورين » أشرنا إلى ان إقبال الجمهور عليها كان ضعيفاً بسبب تازّم الأوضاع السياسية والأمنية في العاصمة آنذاك ، وينبغي ان نشير إلى ان الانقلاب الذي تحدثت عنه جورج وقتئذ وقع فعلاً بأمر من رئيس الجمهورية الفرنسية في ٢ / ١٢ / ١٨٥١ الامير « لويس نابليون » . لقد تمكن من قمع ثورة كانت على وشك الانفجار بتوقيف عدد كبير من المناوئين له ، وأصدر مرسوماً بحل مجلس النواب ، ثم أجرى انتخابات جديدة وتسلم مقاليد الحكم المطلق على أثرها منصّباً نفسه

(١) « إيزيدورا - جورج صاند - الجزء الثاني - ص : ٢٥٨ .

Twitter:@abdulllah1994

امبراطوراً على فرنسا في مطلع عام ١٨٥٢ باسم « نابليون الثالث » . لقد ألغى بهذا الانقلاب النظام الجمهوري الذي كان قد أوصله إلى سدة الرئاسة عام ١٨٤٨ ، ودام حكمه الجديد حتى ٤ / ٩ ١٨٧٠ . اما البلبلة التى نجمت عن قمع الثورة ، وسلسلة الاضطهادات التي عقبتها فقد زجت أبرياء كثيرين في السجون ، وحكمت على آخرين بالنفي كان من بينهم عدد كبير من أصدقاء جورج صاند وأبناء منطقتها . وأما أصدقاؤها القدامى كالوزيرين السابقين « لودرو لوران » و « لويس بلان » والصحفي الشاب « فيكتور بوري » فقد تواروا عن الانظار مع الاشتراكيين المتطرفين أمثالهم ، وأشيع بان جورج صاند نفسها سوف تُوقف ولكنها لم تهرب مثلهم بل طلبت مقابلة الأمير لتبرئة نفسها والدفاع عن اصدقائها . كانت واثقة من محبته لها اذ سبق والتقت به منذ زمن بعيد ، اي قبل ان يسجنه الملك « لويس فيليب » ، وأجرت معه حديثاً سياسياً دار حول مساوىء عهد « لويس فيليب » ، وضرورة العمل على قلب نظام حكمه ... ويوم ألقى « لويس فيليب » القبض عليه وزجه في سجن يقع في بلدة « هام — Ham » بتهمة إعلان العصيان عام ١٨٤٠ نشر الأمير المسجون كتيباً أوضح فيه سياسته الجديدة المبنية على الأخذ بالمبادىء

Twitter:@abdulllah1994

الاشتراكية للقضاء على الفقر والبطالة . وكان « لويس بلان » قد زاره في سجنه يومئذ ، وكتب مقالة جريئة في تأييده نشرتها جورج صاند في صحيفتها : « كشاف الآندر » فحفظ الأمير الجميل لهـا ، وأرسل من يخبرهـا بانه يود ان تزوره لان قدومها الى بلدة « هام » سيحوّل السجن إلى قصر ، وسيكون عيداً حقيقياً ... كان هذا في عام ١٨٤٤، فاعتذرت جورج صاند عن زيارة الامير في سجنه وكتبت اليه تقول في ١٢ / ١/ ١٨٤٥ : (ان لذكائك وسلوكك ومقامك أثراً بليغاً في نفوسنا يا سموّ الامير فكن واثقاً من ذلك ، ومن اننا ندعم سلطة الشعب ، ونرفض كل من يحاول الاستئثار بالحكم بإسم القوى الشعبية ...)[1] وبعد أيام تلقت منه جواباً لا يقل صراحة عن رسالتها جاء فيه (ثقي يا سيدتي بأن أجمل لقب تستطيعين ان تمنحيه لي هو لقب « الصديق » لانني سأكون فخوراً بصداقتك. ان لك يا سيدتي محاسن الرجال دون ان تكون لك مساوئهم، ولن تكوني في حال من الأحوال الا منصفة في حكمك علي وعلى الأحداث ...[2] .

(قلعة هام ١٤ / ١ / ١٨٤٥ — لويس نابليون) .

---

(١) مراسلات — جورج صاند — الجزء الثاني — ص : ٣٢٨ .
(٢) ليليا أو حياة جورج صاند — أندري موروا — ص : ٤٠٦ .

Twitter:@abdulllah1994

فكيف لا تستفيد من تلك الصداقة القديمة مع رئيس جمهورية بلادها لإخراج اصدقائها والمظلومين من المواطنين من المحنة التي ألمّت بهم ؟ كان ردّ القصر على طلبها رسالة من مدير البوليس الفرنسي آنذاك « موباس – Maupas » مرفقة بإذن خاص للسفر إلى باريس والتجول فيها ، فلبت الدعوة ، ووجهت رسالة في مطلع عام ١٩٥٢ إلى لويس نابليون أعربت فيها عن ثقتها بعدالته ، وأملها بحسن قيادته، وفي اليوم التالي تسلمت منه خطاباً كتبه على ورق قصر « الإليزي » بخط يده قال فيه : (سيدتي ، ساكون سعيداً باستقبالك في الساعة الثالثة من اليوم الذي تحددينه في الأسبوع المقبل ...) [١] فكتبت تقريراً سياسياً وصفت فيه الحالة المتردية التي وصلت اليها البلاد لتقديمه اليه باليد ، وطالبت فيه بالافراج عن اصدقائها ومئات المسجونين والمنفيين الذين ذهبوا ضحية الاحداث الدامية والحركات الانتقامية ، وختمته بهذه العبارات : (... إعلن أيها الأمير العفو العام ! العفو العام الذي نأمل بصدوره قريبا ! واذا لم تستجب إلي فحسبي ان اكون قد رجوتك وقمت بواجبي قبل ان اموت ! لم اقدم على ما يسخط الله،

---

(١) جورج صاند – فلاديمير كارينين – الجزء الرابع – ص : ١٧٩.

Twitter:@abdulllah1994

ولم أفعل الا ما يصون الحرية الانسانية الكامنة في نفسي ، كما أنني لن أفقد رعايتك الكريمة التي أحرص عليها أكثر بكثير من حرصي على أيام هانئة وموت هادىء ...).

حملت التقرير وذهبت إلى قصر الاليزي في الوقت المحدد لزيارتها فاستقبلها الرئيس الأمير لويس نابوليون استقبالاً حاراً ، واستمع اليها باهتمام وهي تشرح الوضع المتردي في البلاد، وتطلب بتخفيف العقوبة على بعض المتضررين وبرفعها عن عدد كبير من أصدقائها في كل مكان . ثم تحدثت عن ضرورة إصدار عفو عام بعد ان تمكن الرئيس من الأخذ بناصية الحكم المطلق ولقن خصومه درساً قاسياً، وقدمت له التقرير الذي أعدته خشية إطالة الحديث معه . أصغى اليها بانتباه ثم عبّر لها عن تقديره الفائق لشخصيتها وموقفها النبيل من أصدقائها ، ونهض واتصل بوزير الداخلية « بيرسيني – Persigny » موصياً باستقبالها والاستجابة إلى سائر طلباتها . وعندما قابلت « بيرسيني » قالت له :(انني جمهورية يا سيدي ، وقد قضيت ساعات طويلة في مكتبك هذا عام ١٨٤٨ وأنا اوصي بالحلم والرأفة للذين أطحت بهم اليوم . كما انني لا أحيد عن واجبي الأساسي الذي يدعوني إلى التماس الرحمة للضعفاء من

Twitter:@abdulllah1994

الأقوياء ، والعدل للمهزومين من المنتصرين أيا كانت اتجاهاتهم ، وبصرف النظر عن انتماءاتي السياسية) . فوعدها الوزير بإخلاء سبيل عدد كبير من المسجونين في منطقتها « البيري » ووفى بوعده بسرعة غير انها لم تكتف برفع الظلامة عن هؤلاء فاستعانت بصديق جديد عرّفها به « الكونت دورسي — Le Comte d'Orsay » هو « نابوليون جيروم — Napoléon Jérome » ابن عم الرئيس الذي كان وثيق الاتصال به ، وكبير التأثير عليه . وقضت جورج صاند بضعة اشهر في باريس تنتقل من وزارة الى أخرى ، وتقابل أصحاب النفوذ ، وتحثهم على تنفيذ مطالبها ، فانقذت عشرات المساجين المرضى ، وأرسلت المساعدات المالية للمنفيين المقطوعين ، وكتبت عرائض الاسترحام باسم بعض المحكومين بالإعدام فخلّصت أربعة جنود من المقصلة حتى أضحى الشيوعيون يسمونها « قدّيسة البيري » ، وسكان منطقتها « سيدة الانقاذ » ولكن لقب « سيدة نوهان الطيبة » هو الذي غلب عليها ! كتب إليها الزعيم الاشتراكي « مارك دوفريس — Marc Dufraisse » من المنفى يشكرها بإسمه وإسم رفاقه على الخدمات الجلى التي قدمتها لإنقاذهم ، ووجه لها الكونت « ألفرد دورسي » الذي ساعدها كثيراً في تحقيق مساعيها الحميدة ، والذي كان

Twitter:@abdulllah1994

صديقاً شخصيـــاً لابنتهـــا صولانج يقول : (إنك شخصية عزيزة جداً علينا ، بالإضافة إلى انك أول شخصية في زمننا !).

أعدّ لها سكان بلدتها نوهان وأبناء المنطقة كلها استقبالاً حافلاً يوم رجوعها اليها اذ كانت نتائج مساعيها المبرورة قد طوقت اعناق الكثيرين منهم . ومع انها قضت الصيف كله في قصرها بقيت على اتصال بالمسؤولين في باريس ترفع اليهم شكاوى المضطهدين ، وتطالب بإصدار العفو العام ، واذا ما توانوا عن تلبية طلباتها كانت تعمد إلى مراسلة رئيس الجمهورية . ان من أروع رسائلها اليه تلك التي قالت له فيها يومئذ: (... ليعلم الناس ان ما قلته لي هو شعارك الحقيقي : « أنا لا اضطهد العقيدة ، ولا أعاقب الأفكار ... » وبانتظار العفو العام الذي يعدنا به اصدقاؤك الحقيقيون اقدم يا سيدى الرئيس على ما يثبت كرمك في مقاطعاتنا ، واعلم ان هذا الشعب الذي هتف باسمك أصبح يردد هذه الأقوال : « ان الرئيس يريد ان يكون رحيماً ولكن بطانته غاشمة ، ولم تعد تأتمر بأوامره ، انه يجهل كل شيء عنا وعن رغباتنا ، أردناه قوياً حازماً ولكنه لم يثبت لنا شيئاً من هذا الذي تمنيناه ! » ...)[1] .

---

(١) « مراسلات » – جورج صاند – الجزء الثالث – ص : ٢٩٠ .

Twitter:@abdullah1994

يالها من جرأة نادرة في مخاطبة رئيس للجمهورية بوسعه ان ينتقم بقسوة لو شاء ! ولكنه تقبّل النقد من جورج صاند وهو على يقين من انها كانت لا تهاب العاقبة . كان همّها الأكبر ان تحسن للناس، وان ترفع الغمّ عنهم ، ولهذا نذرت للحق نفسها بكل مـــا تملك من وسائل ، وأعظمها بلا شك بذل النفس وتعريضها للمهالك . السمعة العطرة التي حظيت بها،وهالة المجد التي لم تعد تفارق اسمها ولا ظلها حيثما وُجدت زاداها تواضعاً وايماناً بالخير الكامن في أعماق القلوب ، وفي ثنايا المستقبل . كانت تحلم بجمهورية اشتراكية مثالية فخاب أملها ، ولكنها لم تندم على ذلك الأمل الذي عقدته ، ولا على الأحلام التي بنتها . اما الصدمات التي اعترضت سبيلها في الحياة ، والهجمات الموجعة التي صوبها لها الخصوم والأصدقاء على حدٍّ سواء فلم تُدخل اليأس الى قلبها الكبير لانها ظلت تؤمن بأن في اعماق الانسان موارد عظيمة من السموّ ، على الرغم من صغاراته التي تظهر في بعض الأوقات ، وأنه خير لنا أن نحدّثه عن حريته من ان نذكّره بعبوديته !

في الخامس من شهر كانون الأول عام ١٨٥٢ تم انتخاب لويس نابوليون امبراطوراً على فرنسا باسم «نابوليون

Twitter:@abdulllah1994

الثالث » وقد اجمع الشعب على المناداة به فصوّتت له جورج صاند مع سائر عمال مزرعتها ومستخدميها ثم عادت إلى بيتها دون ان تعلق بشيء ، قد شهد لها معاصروها بانها دلت على ترفّع كبير ، واحتفظت بكرامتها وصفائها طوال مدة حكمه . عزفت عن مقابلته خــلال ولايته وكانت توسّط الامبراطورة الاسبانية التي تزوجها عام ١٨٥٣ « أوجيني مــاري دى مونتيخو — Eugénie Marie de Montijo » ، وابن عمه صديقهـــا الأمير « نابوليون جيروم » ، او « الاميرة ماتيلد بونابارت — La Princesse Mathilde » لنجدة المنكوبين ، ورفع الظلم عن البائسين.

كتب مرافقها « الكساندر مانصو » يقول في مذكرته : (اليوم في ٥ / ١٢/ ١٨٥٢ نادى الفرنسيون بنابوليون الثالث ملكاً عليهم ، وقد توجهنا من قصر السيدة صاند في نوهان الى مركز الاقتراع مع سائر العاملين فيه بألبستنا الجميلــة للقيام بالواجب ، ثم عدنا وانصرف كل واحد منا إلى عمله. وفي حوالي منتصف الليل صعدت سيدة نوهان الطيبة الى جناحها لكتابة مسرحيتها الجديدة « المعصرة) [١] .

---

(١) « ليليا أو حياة جورج صاند » – أندري موروا – ص : ٤١٢ – و « المعصرة » هي مأساة ريفية قدمها مسرح « الجيمناز » للجمهور في باريس في ١٨٥٣/٩/١٣ .

Twitter:@abdulllah1994

جورج صاند : الأم القاسية والجدة الرقيقة

يوم فاجأت صولانج أمهـا بحضور العـرض الأول لمسرحيتها « زواج فيكتورين » على مسرح الجيمناز » في باريس كانت البنت العاقة تتوقع الصفح عنها ، وتلقّي الدعوة للعودة إلى نوهان ، غير ان جورج صاند لم يرق قلبها لابنتها ولا لزوجها لأنها لم تكن قد نسيت بعد دسائسها التي سلبتها الراحة والنوم ، ولم تكن مستعدة لمواجهة عواصف جديدة في حياتها وفي بيتها . كفاها ما احتملت من عتوّ ابنتها وتهور صهرها ، وكفاها ما كانت تنفق من كدّ يمينها وجنى فكرها، وهي التي خصصت لهما مرتباً سنوياً في الأمس القريب بعد ان رهنـا البيت الريفي في ناربون « L'Hôtel de Narbonne » الذي تنازلت عنه من أجل رفاهيتها . ولقد لامها المقربون اليها على تخصيص ذلك المرتب اذ وجدوا في كرمها وطيبة قلبها تشجيعاً لهما على التمادي بالبذخ والإسراف ، ولكن عاطفة الأمومة القوية قد دفعتها

Twitter:@abdulllah1994

لنجد تهما والرد على رسائلهما والاستجابة إلى مطاليبهما ، ولا سيما بعد ولادة حفيدتها التي اسمياها « جان — Jeanne » باسم بطلة إحدى رواياتها ... أما المفاجأة الثانية التي خبأتها صولانج لأمها ، والتي ذكرّت جورج بالطريقة التي اعتمدها أبوها لمصالحة أمه فقد حدثت في مطلع شهر شباط عام ١٨٥١ ساعة قدمت صولانج مع صغيرتها إلى نوهان ووضعتها في حجر الجدة المذهولة ... ترُى هل كان ندم صولانج الحافز على عودتها الى البيت الذي رباها ، والأم التي رعتها طفلةً وشابة؟ وهل لان قلب الأم التي أضحت جدة من غير ان ترى الحفيدة الا بعد ان بلغت العام الثاني من العمر ؟ لندع جورج صاند تحدثنا عن تلك الزيارة المفاجئة ، وعن مشاعرها وانطباعاتها . كتبت إلى أوغوستين تقول: (ان أهم ما حدث في نوهان مؤخراً هو قدوم صولانج مع ابنتها « نيني » اي « جان » حيث قضتنا أربعة أيام معنا . الصغيرة جميلة ولكن خلقها ليس رضيـاً ، وصولانج جاءت وهي مصممة على التأكيد لنا بأن الصفاء عاد اليها ، وانها أضحت سيدة مجتمع تتحلى باللطف والكياسة واللباقة ، فتصرفت مع جميع من في البيت أليق تصرف ، وتحببت اليهم دون استثناء . كما حدثتني عن عزمها على استئجار دارة هنا لتقضي فيها الصيف مع زوجها وخدمها وخيولها وكلابها ، وهي تعرف ، كما

Twitter:@abdulllah1994

أعرف وأكثر ، ان سكان نوهان كلهم ملاكون ، وانه لا يوجد في منطقتنا بيوت للايجار ، فلربما يكون تلميحها بهذه الرغبة لكي تحثني على دعوتها إلى بيتي ... لقد صارحتها بانني لا أقبل زوجها عندي ، ولا خيولها وكلابها ومستخدميها ، وانني استقبلها بكثير من الحيطة تحاشياً لتكرار المزعجات لها ولنا ! تدّعي بان زوجها يربح مالا كثيراً ، وانه طيب القلب على الرغم من شراسته ، فعسى ان تكون سعيدة ، ولكن سعادتها مبنية في رأيي على قشور الحياة ومظاهرها البراقة في باريس . اما صحتها فانها تدعو للقلق بعد ان اجهضت للمرة الثانية لانها لا تزال تمارس الفروسية وتفرط في السهر دون تفكير في العاقبة . ارسلت لي صفحتين فائضتين بعبارات الود والحنان بعد رجوعها إلى باريس غير ان موقفي منها لن يتغير فلقد لُدِغت مرةً وكفى ... لست اليوم غاضبة ولا متكدرة ، كل ما هنالك انني اعالج الامور بهدوء وحذر ... » (١).

لقد بالغت صولانج في التحبب الى أخيها موريس فدعته لزيارتها بالحاج ، ولكن جورج رجته الا يتناول عندها طعاماً ليقينها بانها وزوجها قد يسممانه لشدة كرههما

(١) ليليا أو حياة جورج صاند – « أندري موروا » ص : ٤٢٦ .

Twitter:@abdulllah1994

له ، وغيرتهما منه . ويوم ذهب إلى باريس للمكوث فيه بضعة أسابيع كتبت إليه تقول : (لا أحب يا بني ان تتناول اي طعام عندهما ... « كليزنجر » مجنون ، وصولانج متحجرة القلب ، وكلاهما لا يعير القيم الاخلاقية التفاتاً : وهذا ما يجعلهما قادرين على ارتكاب جريمة في اي وقت ... ان في مصلحتهما ان تزول انت ، ولا تنسى انهما يضعان مصالحتهما فوق كل اعتبار ، لا بأس في ان يتوددا اليك وان تذهب لزيارتهما ولكن إياك ان تأكل او تشرب شيئاً عندهما ! احرق هذه الرسالة ولا تنسى فحواها ، واعلم ان الجريمة ليست دائماً وليدة تصميم ، او ميلا غريزياً للأذى لانها كثيراً ما تكون عملا جنونيا يُقترف في ساعة غضب..)(١)

انقضى ذلك الصيف بسلام بعد ان عدلت صولانج عن المجيء الى نوهان ، وأخذ موريس حذره منها ومن صهره نزولا عند وصية أمه التي انصرفت لقراءة مؤلفات معاصريها وللتأمل ، ومن ثم لكتابة أعمال جديدة . كانت على اتصال مستمر بابنتها عبر المراسلة بسبب قلقها على صحتها ومستقبلها اذ علمت بان حياتها الزوجية مضطربة ، وانها

(١) جورج صاند – فلاديمير كارينين – الجزء الثالث – ص : ٦٠٦ – ٦٠٧ .

Twitter:@abdulllah1994

لجأت ألى ابيها « كازيمير » حيث قضت فترة استجمام على أثر خلاف جدي مع زوجها ، غير ان الخطة التي اتبعتها معها كانت تقضي بعدم التدخل في شؤونها الخاصة ما دامت البنت لا تخبرهــا بشيء ، ولا تستشيرها بشيء. إلى ان جاء يوم تلقت فيه منها رسالة محزنة في ٢٣ / ٤ / ١٨٥٢ جاء فيها ان زوجها يخونها علانية، وانها هجرته والتجأت إلى دير للراهبات ، ثم قالت : (... أهكذا ستنقضي أجمل سنيّ حياتي يا أماه ؟ بلا أهل ولا أصدقاء ، ولا أولاد ولا حتى حيوان أليف يملأ الفراغ ؟ ان العزلة عن الناس الذين يلهون ، وعن الخيول التي تعدو ، والأطفال الذين يمرحون والنساء التي تضحك وتغني ليست ضجراً فحسب ، انها اليأس بعينه !! ويستغرب الناس بعد كل هذا ان تنجرف الفتيات والنساء البائسات مع تيار الرذيلة ! وهل تستطيع النساء الطيبات والعاقلات تجنب الانزلاق في مثل هذه الحال؟..)

ففكرت جورج صاند الأم ، لا جورج صاند مؤلفة « ليليا » و « انديانا » وغيرهما من الروايات المشيدة بالحب ، التي تصف العشق بأسلوب كله تشويق وإغراء، وتبيح العلاقات الحرّة ، ثم وجهت لابنتها رسالة مدهشة نوردها بأكملها لأنها أكبر دليل على تطور آراء الكاتبة ، وعلى عبقريتها في الغوص والتحليل والاستنتاج :

Twitter:@abdulllah1994

« إنني خبرت الحياة يا عزيزتي كما لم يتح لامرأة ان تختبرها ، عشت كثيراً ، وكافحت وحدي ، وانفردت بنفسي بين جدران الغرفة اياماً طويلة وليالي التهمت شبابي كله ، ولكنني لست نادمة على شيء اختبرته ، وقبلت به. اما العزلة التي تتكلمين عنها وتشكين منها فانها شيء آخر ... انها نتيجة موقف اتخذتِه برضاك ، ولا أظن ان زوجك جدير بكل هذا الغضب ، وان هجرانه يستحق كل هذه الأهمية ! كان من الأولى ان تفترقا بطريقة هادئة رصينة تحفظ كرامة كل منكما ، ولكن ما حدث هو ما أردتِ أنت، وهذا ما يدعوني الى الاعتقاد بان تذمرك هو عاقبة لما أقدمت عليه دون استشارة هؤلاء الأقرباء والأصدقاء الذين أشرت إليهم والبعيدين عنك الآن . كان عليك ان تتذرعي بالصبر من اجل ابنتك ، وكان حرياً بأصدقائك الباريسيين ان ينصحوك بالتريّث ، أما الذين تسمينهم « الأقرباء » أي أنا بالذات ، فقد كانوا يؤثرون انتظار ظرف أفضل من الظرف الحاضر للافتراق عن زوجك ، وأعني بوضوح ظرفاً مدعوماً بأدلة راهنة تساعدك على فكّ رباط الزوجية ، وتبرّر مطلبك... ولا أحسب ان الأصدقاء الذين اتخذتهم لنفسك ، منذ ان قبلت بالعيش بعيداً عني ، مخلصون اخلاص أصدقائي القدامى لك ، او مهتمون بك اهتمامهم.

Twitter:@abdulllah1994

إن أي واحد من أصدقائي مستعد في أية لحظة للتغاضي عن شذوذك ، والصفح عن عقوقك ، ولفتح قلبه وذراعيه وبيته لاستقبالك ونجدتك . صحيح انهم يُعدّون على الأصابع ، وانهم ليسوا عظماء ولا نبلاء مثل عشرائك ، ولكن لا ذنب لي اذا لم أخلق أميرة مثلك ... أنا امرأة متواضعة عقدت صداقاتها حسب ما يلائم ذوقها البسيط ... وعلى هذا أرى ان مصيبتك الكبرى تنجم عن بنوّتك لي ، ولا حيلة لي ولا لك في تغيير هذا القدر ...

أنت تتشكين من ضآلة مرتبك ، وربما تظنين ان الشيء الوحيد القادر على تعزيتك والتخفيف من مصابك هو المال ، والمال الوفير للغوص في خضم الترف ، والطيش ، وانه يتوجب عليّ انجاز ضعف ما انجز في الوقت الحاضر لأوفر لك الرفاهية التي تحلمين بها ... ولكن لا تنسي انني لو فعلت سأعرّض نفسي للموت بعد أقل من عام لأن العمل الذي أقوم به حالياً بات يتعبني حقاً وينهك قواي ... واذا ما قضيت فلن تصبحي غنية لفترة طويلة لأن الارث الذي سأخلفه لك ولأخيك غير كاف لجعلكما أثرياء فعلا . واذا افترضنا انني سأعيش بضع سنوات أخرى ، على الرغم من مضاعفة الجهد والانتاج ، فمن قال لك إن واجبي نحوك يفرض عليّ القيام بالأشغال الشاقة ، وبوظيفة حصان المعصرة

Twitter:@abdulllah1994

لتزويدك باسباب الترف والبذخ ، وتأمين الوسائل الكفيلة بتسليتك ، وتحقيق وغباتك ؟

والآن اسمعي جيداً ما أقول : سأعطيك أقصى ما أقدر عليه ، وسيصبح بيتي بيتك شرط ألا تعكري صفـاءه بالحماقات ، ولا تزعجي ساكنيه بالمشاحنات ، واذا ما آثرت البقاء في باريس سوف أحتضن ابنتك اذا أردت ، واهتم بتربيتها ما دمت قد رغبت بذلك ، ولكن لا بد من ان تعلمي بأنني لن أهتم أبدا ، ولن أغتم مطلقاً ، اذا ما شكوت لي ضنك العيش في العاصمة ، وتكبّد المشاق فيها ... وأما ما ورد في رسالتك عن اضطرار النساء العاقلات للركض وراء الملذات ، وتبرير انحدارهن في هوة الرذيلة انحدار الجاهلات فيها فانه كلام يدعوني إلى التفكير بان زوجكلم يكن كاذباً عندما حدثني عن هذيانك وتهديداتك النابية له بالانسياق وراء الشهوات ... واذا كان زوجك مجنوناً فأنت أجن منه ، وكثيراً ما تعوزك السيطرة على النفس سواء في تفكيرك او في كلامك ، وما رسالتك لي في مفارقاتها العجيبة سوى الدليل القاطع على ما أقول ... وما دمت ترددين مثل هذه الحماقات فلا أستغرب ابداً ان تكون رعونتك السبب في دفع « كليزينجر » المسكين إلى الجنون،

Twitter:@abdulllah1994

وفي تفجير دماغه الصغير ... أنت ترين أنه من العسير جداً على المرأة ان تكون فقيرة ووحيدة ومحصنه من الوقوع في احضان الرذيلة ، وتئنين من وطأة العزلة عن المجتمع بين جدران الغرفة في حين تلهو النساء في خارجها وتضحك، أليس كذلك ؟ « يا للمصيبة ! » كما يقول موريس ، ولكن المصيبة الحقة هي في عقل مثل عقلك أنت ، تدور فيه أفكار مثل أفكارك : « يلزمني أحد شيئين اما السعادة او الرذيلة ...» حاولي إذن ممارسة العهر . فأنا أتحداك وأجزم بأنك لن تفعلي لعجزك عن اجتياز باب الدعارة المرعب لأنك غير قادرة ولا راغبة في هدر كرامتك على عتبته في في سبيل المال ! لا يا بنيّتي ، ليس التسربل بالعار هيناً كما تظنين ... ينبغي لمن تختار هذا القدر البائس ان تكون أذكى منك بكثير وأجمل لكي يتهافت عليك الراغبون بشراء المتعة العابرة بأسعار باهظة ! او ينبغي ان تكون أشد مكراً وأقدر على فن الاغواء الذي تجهلين عنه كل شيء ، حمداً لله ! واعلمي بان الرجال الأثرياء يتطلبون نسوة حاذقات بابتزاز المال ، وهذة صنعة تتطلب مهارة ووقاحة ستفشلين في ممارستها ، بلا أدنى ريب ، لأنك ستشمئزين وتصابين بالغثيان بمجرد دخولك في مفاوضاتها الإلزامية ...

لقد عرفت في حياتي أكثر من امرأة متزوجة أخفقت

Twitter:@abdulllah1994

في الزواج ، وقاومت بعنف نوازع الأهواء اذ كانت ترتعد خوفاً من الانحدار الى درك الفسق اذا ما استسلمت للاغراء، ولكنني لم اعرف امرأة واحدة نالت ما نلت من تربية ونشأت مثلك في بيئة تقدس الكرامة ، وتبجل الحرية التي تصون الكرامة ، يصيبها الذعر اذا ما واجهت الفاقة ، او اختارت الاعتزال عن المجتمع للأسباب التي ذكرتها في رسالتك . أفهم ان تتهيب المرأة الكريمة القوية العاقلة الحب ، وأفهم خشيتها من الإنجراف مع تياره الخطير الذي يسوق عادة إلى ما لا تحمد عقباه ، غير انني لا أفهم أبدا ، ولا أجيز ان تفكر ببيع نفسها بدافع الجشع والنهم والشراهة ! وأخيرا أحب ان تتأكدي من شيء هام : لو كنت قاضياً مكلفاً بالنظر في دعوى التفريق التي أقمتها على زوجك ، لحكمت بحرمانك من ابنتك بدون تردد بعد اطلاعي على الترهات والأقوال المأثورة التي وردت اليوم في رسالتك الغريبة ! ! ! »[1].

يجدر بنا ان نقف هنيهة عند الرسالة العنيفة ، الفائضة بالتحذير والتهديد ، والبليغة في الوصف والنصح والتحليل لكونها صادرة عن أم اشتهرت بالتهور والاستهتار في شبابها. وهذا ما يؤكد ان المرأة المستهترة أشد قسوة على ابنتها من

(١) جورج صاند – فلاديمير كارينين –الجزء الثالث ص: ٦١١ إلى ص: ٦١٦.

Twitter:@abdulllah1994

الأم الرصينة لأنها أخبر منها بهول الرذيلة ، ونتائج الطيش، والبؤس الذي ينجم عن الفساد . واذا ما رجعنا قليلاً إلى ماضي جورج صاند ، والمتاعب التي عانت منها أشد معاناة ابان اسرافها بالمجون ، وحتى خلال سير دعوى التفريق التي اقامتها على زوجها « كازيمير دودوفان » ، على الرغم من البون الشاسع بين نزواتها العاطفية وطبيعتها وذكائها المتقد وعبقريتها الأدبية وبين تكوين ابنتها التي لم تكن تشبهها الا في الجسارة والتهوّر ، نرى ان خوفها على ابنتها وخوفها منها كانا في محلها . كان خوفها عليها نابعاً من تجربتها ومغامراتها ، وخوفها منها ناتجاً عن معرفتها بجهل ابنتها وحماقتها . ولو كانت صولانج وقعت في حب رجل بعد ان ثبتت خيانة زوجها لها وهي في أوج الصبا ، ووجدت في ذلك الحب ما يسدّ فراغ قلبها ويأسو جراحها لما لاقت من أمها سوى التفهم والصفح . فالحب في رأي جورج صاند عاطفة نبيلة ، شريفة ، بل مقدسة تطهّر القلب الذي يفيض بها ، وتسمو بالروح ، وتستنبط من النفس ينابيع الخير المختزنة فيها . وقد اعترفت للناس أجمعين في رواياتها ورسائلها ومذكراتها بكل جرأة وصراحة انها أحبت أكثر من رجل في حياتها حبّاً مخلصاً ، ومنزهاً عن كل غرض، واذا ما كان له من هدف فهو البحث عن السعادة المطلقة،

Twitter:@abdulllah1994

ولكنها أخطأت الهدف ، وحصدت المرارة بعد كل مغامرة حب خاضتها في حياتها . اما السعادة الحقيقية فقد وجدتها في العطاء المطلق ، في خدمة الأدب والفن والمجتمع والانسانية والوطن سواء في عملها الأدبي ، او في نشر مبادئها الانسانية ، او في مواقفها القومية . من هنا يتبين لنا البون الشاسع بين الأم وابنتها ، والاسباب التي تبرر فزعها عليها لدى اول صدمة عاطفية تعرضت لها ولاسيما بعد ان تلقت منها تلك الرسالة التي تدل على استعـــداد الفتاة للالقاء بنفسها في أحضان أول عشيق ، كائنا من كان ! وهذا ما لم تكن تجيزه جورج صاند ابداً ، لا لابنتها فحسب ، انما لأي امرأة ،في العالم. وينبغي كذلك ان نأخذ بعين الاعتبار ندم جورج صاند على تهوّرها في ماضيها ، والتطور الذي طرأ على آرائها وأفكارها وسلوكها بعد بلوغها سن النضج . لقد تجلى هذا التطور في صـــدوفها عن كتابـــة الروايات العاطفيـــة الصاخبة التي أثارت ضجة بجرأتها ومعالجتها موضـــوع الجنس بشكل مكشوف ، وفي تحوّلها الى تأليف روايات ريفية ركزت اهتمامها فيها على وصف الطبيعة ، وتصوير التقاليد بأسلوب شاعري جذاب . كما انها أعادت النظر في رواياتها الغرامية الأولى،وعدّلت الكثير من فصولها في الطبعات المتلاحقة ، كما سبق وذكرنا عن روايتها « ليليا » . وبعد

Twitter:@abdulllah1994

ان كانت تؤيّد مـــذهب « جان جاك روسو — Jean-Jacques Rousseau » الداعي الى الايمان بصلاح الطبيعة الانسانية عند الفرد، وبضرورة إطلاق العنان للنوازع الغريزية منذ الطفولة أضحت مؤيدة لنظرية « بالزاك » الداعيـــة الى ردع الطبيعة الانسانية سواء عند الفرد أو عند الجماعة تجنباً للوقوع في الخطيئة ، وحرصاً على سلامة الأسرة والمجتمع. أصبحت جورج صاند امرأة وكاتبة متزنة بعد ان اجتازت مرحلة الكهولة ، ولم تتوان عن إعلان آرائها الجديدة لأنهـــا اعتنقتها وآمنت بها ، ولعل من أهمها تلك التي بيّنتها في كتابها « انطباعات أدبية » حيث قالت : (سوف تنال المرأة في المستقبل ثقافة مماثلة لثقافة الرجل ولكن قلبها سيظل ملاذ الحب والعطاء ، والصبر والرحمة . ان إنقاذ النفوس من الأهواء الفاسقة منوط بها وحدها ، ويا لشقاء العالم الذي لا تنهض فيه المرأة بهذه المسؤولية !)[١].

الإخلاص للمبادىء والإخلاص في العمل هما أبرز مزيتين في جورج صاند المرأة ، ، وجورج صاند الأم ، وجورج صاند الاديبة ، وبقدر ما كانت مخلصة لأفكارها التحرّرية ، ومتجرّدة في علاقاتها الغرامية نجدها مخلصة

---

(١) انطباعات أدبية — جورج صاند — ص : ٢٨٢ .

Twitter:@abdulllah1994

لآرائها وأصدقائها ، ومتجردة في الخدمات الجلى التي أسدتها لهم ولمنطقتها ووطنها حتى الرمق الاخير من حياتها . ارادت لابنتها ولسائر الشبان المساواة والحرية ضمن حدود المنطق، ولم تعر اي اهتمام لحقوق المرأة السياسية في يوم من الأيام اذ انحصر همها في توطيد دعائم سعادة المجتمع انطلاقاً من صيانة حقوق المرأة العاطفية والمدنية.

شيء واحد لم يطرؤ عليه اي تغيير في حياتها هو اعتقادها بان امتهان كرامة الزوجة باستعبادها ظلم فادح يحطم سعادة الأسرة لأن الشرط الاساسي لسعادتها هو الاحترام المتبادل بين أركانها ، والحرية المرفرفة على صرحها . قالوا لها مرة إن النساء لا ينقصهن شيء ، ولا يطالبن بشيء ما دمن ينعمن بحب الرجال في بيوتهن ، فاجابت تقول في مقالة نشرتها عام ١٨٤٤ في مجلة « تقويم الشهر – Almanach du mois »

(ولكن الرجال يسيئون معاملتهن ، يلقونهن في زنزانة البلاهة ويلومونهن عليها ... يحتقرون الجهل الذي يفرضونه عليهن ويزدرون كل بادرة حكمة أو معرفة تظهر عليهن . اما في الحب فانهم يعاملونهن كالمحظيات ، ويرفضون الإقرار لهن بحق الاستمتاع بشيء وحتى بالصداقة الزوجية . ومن هنا يتضح ان رجالنا لا يحبون زوجاتهم بل يستخدمونهن ويستغلونهن أبشع استغلال ، ثم يفرضون

Twitter:@abdulllah1994

عليهن الخضوع لقانون الامانة الزوجية !) [1].

واذا ما عدنا إلى ردّ فعل صولانج بعـــد تسلمها رسالة أمها نستجلي تاثرها العميق بها من جوابها السريع الذي كتبته في ٢٩ / ٤ ١٨٥٢ وقالت فيه (إنك على حق في كل ما قلته يا أمي ، وان زوجي رجل مجنون بلا شك ، وانا أوافق من كل قلبي على ان تحضني الطفلة ، فأنت وأنا انسان واحد، ولكنني لا أوافق على السماح له برعايتها مدة شهرين كل سنة في حال من الأحوال لأنني لا أثق به أبداً ... ما زالت « نيني » في حاجة إلى الكثير من العناية : ولسوف تتعرض للمخاطر اذا ما تنازلنا عنها لمثل هذا الرجل الأناني ، المهمل لواجباته كلها ... أما في المستقبل ، أي عندما تغدو شابة ، فقد نعيد النظر بالموضوع رغم أنه سيظل إنساناً فظاً ،وبذيئاً...)

كان لا بد لدعوى التفريق بين صولانج وزوجها من ان تأخذ مجراها الطبيعي في المحكمة ولكن كليزينجر قبل بتسليم ابنته الطفلة إلى جدتها ريثما تنتهي المفاوضات الجارية المتعلقة بتحديد العلاقات المالية كاسترداد المهر والتنازل عن بعض الممتلكات ... ففرحت جورج صاند بقدوم

---

(١) ليليا أو حياة جورج صاند – أندري موروا – ص : ٣٦٨ .

Twitter:@abdulllah1994

« نيني » إلى نوهان فرحاً عظيماً ، وأثبتت انها جدة رائعة !

عرفنا مما تقدم ان الميل للإغاثة والرعاية والحماية شعور غريزي عندها ، يغلب كل شعور آخر ، وان ولعها بالأطفال وبتعليمهم موهبة كبيرة فُطرت عليها . لقد برعت بإبداع وسائل التسلية والتعليم للصغيرة الحلوة ، فغرست لها حديقة صغيرة زينتّها بشلال وبركة ماء ، وصارت تقضي معظم أوقات فراغها معها تصنع لها الدمى وتلاعبها ، وتضحك وتغني كما تفعل الأمهات الصغيرات مع أولادهن ...

وانصرفت صولانج لمتابعة قضيتها في باريس آخذةً بنصائح أمها التي كانت تراسلها باستمرار وتدعوها لزيارة نوهان بين وقت وآخر زيارات قصيرة كي لا يتغير أسلوب تربية الصغيرة . في تلك الفترة ثابرت جوج صاند على الكتابة في الليل عندما كانت تنام « نيني » فكتبت رواية جديدة بعنوان : « قارعو الأجراس » جاءت آية في الرقة والصفاء والبساطة والجمال اذ انعكست عليها مشاعر الجدة السعيدة التي كانت تحسّ بأنها طفلة أكثر من حفيدتها ، كما كتبت تقول لابنتها ... ثم عكفت على تحويل روايتها « فرانسوا اللقيط» إلى مسرحية درامية عُرضت على مسرح « الأوديون » في

---

(١) انطباعات أدبية – جورج صاند – ص : ٢٨٢ .

Twitter:@abdulllah1994

باريس في ١٩ / ١٨٥٣/١١ بحضور المؤلفة وابنتها صولانج ، وموريس والحفيدة الصغيرة اذ اصطحبتها معها لأنها لم تكن قادرة على البعد عنها يوماً واحداً ! وفي العام التالي كتب « الكساندر مانصو » في مذكرته يقول : (الجو عاصف في نوهان اليوم ومع ذلك خرجت السيدة لتتنزه في الحديقة. لقد قطعت شوطاً بعيداً في تدوين مذكراتها « قصة حياتي » فبدأت بكتابة الفصل الرابع من الجزء السابع ... سوف نفاجئها بعد أيام بعرض مسرحية هزلية استوحيناها من مؤلفاتها ودعوناها « الإيمان والشك » ... اما الصغيرة «نيني» فانها حقاً لطيفة بفضل توجيه السيدة وعنايتها ، وبعد غد ستصل أمها السيدة صولانج لزيارتنا)[١].

من حق جورج صاند علينا أنه نشير إلى أن عنايتها لم تقتصر على حفيدتها فقط اذ تعدتها الى ابنتها صولانج نفسها. لقد انتهزت فرصة إقرارها بأخطاء الماضي وطلبت منها الاعتذار إلى « أوغوستين برول » ومصالحتها تكفيراً عن ذنوبها فعملت صولانج بنصيحة امها وأثبتت ان الحقد قد زال من قلبها. وكثيراً ما كانت الجدة والأم تقضيان أوقاتاً

---

(١) « ليليا أو حياة جورج صاند – أندري موروا – ص : ٤٣٢ .

ممتعة في نوهان بصحبة « نيني » التي جمعت شمل الأسرة، وأسرت قلوب أفرادها بذكائها، ورنين ضحكاتها البريئة، ونطقها اللذيذ وهي في مطلع عامها الخامس. غير ان الأيام لم تهادن تلك الاسرة طويلا لأن الصهر المنبوذ وصل الى نوهان فجأة في ربيع عام ١٨٥٤ بصحبة خفيرين من الشرطة وأخذ ابنته من جدتها عنوة ... ضبطت جورج صاند نفسها وحاولت تهدئته بمختلف الأساليب ولكنه لم يأبه لكلامها، بل خرج ساخطاً كما دخل وهو يعلن عن عزمه بالاحتفاظ بالطفلة وبمقاضاة زوجه لأنها اتخذت عشيقاً في باريس ... لم يكن حديثه عن صولانج افتراءً ولكن ما ذنب الطفلة في هذا؟ لقد تمزق قلب جورج صاند لحظة شاهدتها تبكي وتصرخ إحتجاجاً على انتزاعها منها، أما صولانج فقد لجأت الى أمها مرة أخرى تبكي وتنوح، وتطلب الصفح، وتعد بالتوبة، وتصرّح جادةً بانها ترغب في دخول الدير! وبينما كانت صولانج تقيم في أحد أديرة باريس تصوم وتصلي وتبتهل إلى الله ان يعيد لها ابنتها، قضت جورج صاند سبعة أشهر في كفاح مستمر من أجل استرجاع الصغيرة الى ان تكللت مساعيها بالنجاح إذ حكمت المحكمة بالتفريق بين الزوجين، وعهدت اليها بحضانه الطفلة نهائياً. في اليوم الذي تلى صدور الحكم كتبت جورج الى إبنتها تقول:

Twitter:@abdulllah1994

(يا للغبطة يا بنتاه! المعجزة التي حدثت حرية بترسيخ إيمانك! لقد أعاننا الله على اجتياز هذه المحنة وهو لا يبخل بالعون على أحد ، من أي دين كان ، اذا ما طلبه منه والتمسه. لا تتأخري بالمجيء إلى نوهان مع « جان » بل يجب ان تأتي معها في الحال !).

في وسعنا ان نتخيل جورج صاند وهي تنتظر عودة الطفلة الحبيبة اليها على أحر من الجمر ! انتظرت يوماً ، ثم أسبوعاً ، ثم أسبوعين دون جدوى ، فكتبت الرسائل إلى باريس ، الواحدة تلو الاخرى ، وأوفدت رسلها وهي في حال من الاضطراب المضني الذي يحرم العين من النوم، والقلب من الراحة . هيأت الثياب والألعاب للحفيدة الحلوة، ووضعت لعيدي الميلاد ورأس السنة برنامجاً عائلياً ترفيهياً، دعت اليه اطفال نوهان من أجل « نيني » ولكن هواجس السوء لم تكن تفارقها ابـدا . وأخيرا علمت ان صهرهـا لم يتبلغ الحكم بعد ، وانه غادر باريس للقيام برحلة صيد تاركاً الصغيرة في المدرسة الليلية التي وضعها فيها ، وانه قد يستأنف الحكم بعد عودته إلى العاصمة ! وعلمت ان صولانج تمكنت من زيارة ابنتها في المدرسة ، وقضاء بضع ساعات معها فقط في يوم الميـلاد ، وان الصغيرة كانت

Twitter:@abdulllah1994

تعود إلى مدرستها مريضة كلما كان أبوها يخرجها منها للتنزه... وهذا ما زاد من اضطرابها فكتبت إلى محامي الادعاء تسترحمه لكي يسلمها الطفلة قبل رجوع أبيها إلى باريس ما دام الحكم قضى بذلك ، ولكنها لم تتلق منه أي جواب ، إنما تلقت رسالة حزينة من صولانج في مطلع العام الجديد تعلمها بان زوجها أخرج نيني من المدرسة بعد رجوعه من رحلته بثياب صيفية ، وانها مصابة بالحمى القرمزية ومهددة بالموت بعد ان لفحها برد باريس القاسي في ذلك اليوم المشؤوم ! وبعد يومين فقط صدق حدس الجدة اذ بلغها نعي الطفلة ، فاعتزلت غرفتها وكتبت إلى أول شخص فكرت فيه تصف تفجعها عليها وتقول : (ان ما يروعني يا صديقي هو انهم قتلوا طفلتي المسكينة ... كنت انتظر رؤيتها وضمها إلى قلبي مجدداً بعد ان صدر الحكم بإعادتها الي ، ولكن أباها تباطأ عن سوء نية، وعبثاً كتبت الى وكيله أعلمه بأن الطفلة لا تلقى العناية الكافية في المدرسة. يبدو ان مديرة المدرسة استدعت الأم على جناح السرعة بعد ان تأكدت من ان الطفلة ميؤوس منها ، وان الصغيرة فارقت الحياة بين ذراعيها وهي تبتسم ، وقد خنقها ورم عمومي انتشر في جسمها كله . كما ان صولانج كتبت الي تقول ان نيني شعرت بأنها هالكة فقالت لها بصعوبة بالغة ، قبل ان تموت

Twitter:@abdulllah1994

بساعات قليلة : « لا يا أمي الصغيرة ، لن أذهب بعد اليوم الى نوهان لأنني لن أخرج من هنا ... اذهبي أنت وحدك و ... ولم تتمكن من تتمة الجملة !) [١]

وقد عثر الأديب الكبير أندرى موروا على مذكرات مقتضبة بقلم جورج صاند وأمين سرها « مانصو » في المكتبة الوطنية الفرنسية (قسم المخطوطات) تصف المأتم الذي أقامته الجدة الملتاعة في نوهان لحفيدتها الغالية ، وفجيعتها بها . كتب مانصو في السادس عشر من كانون الثاني عام ١٨٥٥ يقول : (وصلت صولانج هذا الصباح برفقة « لامبير » و « إميل » و ... نيني ! وضعوا نيني في الكنيسة ، وبعد الصلاة على روحها الطاهرة سرنا وراء نعشها الصغير مع اصدقاء الجدة المفجوعة وطبيب البلدة وسائر المستخدمين ، وفي الواحدة والنصف ظهراً حمل جثمانها « سيلفان — Silvain » سائق عربة السيدة صاند ، و « جان — Jean » البستاني ووضعاه في التراب ...) [٢].

أما مذكرة جورج صاند التي دونتها في اليوم التالي فقد جاء فيها قولها : (لقد غلبني النوم في آخر الليل بعد أن أفرغت

---

(١) و (٢) ليليا أو حياة جورج صاند – أندري موروا – ص : ٤٣٧ .

Twitter:@abdullah1994

كل ما أختزن من دموع. فكرت فيها طويلا ، وخُيّل إلي انه كانت تسمعني وتجيبني . صولانج مهدودة ايضا ، تبدو هادئة لفرط الإرهاق ، ولكنها تغلي من شدة الحرقة ، ومع ذلك وافقت على تناول عشاء خفيف مساء أمس بينما كنت منزوية في غرفتي أفكر بالصغيرة وأبكي، وأكتب عنها...).

كما أخبرنا « مانصو » في مذكرته بان الجدة والأم على حد سواء بدتا أسوأ حالا في الايام التالية ، وانهما وجدتا العزاء في الاشتراك بكتابة قصة حياة الطفلة الفقيدة ، على الرغم من الإعياء الشديد الذي كان ظاهراً عليهما . ولقد نشرت جورج صاند مقالا مؤثراً جداً رثت فيه حفيدتها رثاءً رقيقاً للغاية كان عنوانه : (بعد موت جان كليزينجر!) . اما في الاشهر الثلاثة التي عقبت موت الحفيدة فقد باءت جميع محاولات الكاتبة المحزونة لاستئناف العمل بالفشل. كانت تؤثر التحدث عنها أو ترتيب ألعابها وغرفتها ، والعناية بالحديقة التي غرست أزهارها معها على كل حديث أو عمل آخر ، وكثيراً ما رددت هذه الجملة : (ما أقسى القدر على الانسان! ولكن قسوته على المرأة أشد !) وبعد فترة وجيزة أدركت ان شدة الحزن لن تعيد اليها حفيدتها، ولا تليق بأي إنسان خلق ليكافح ويتطلع الى الأمام ، فكتبت

Twitter:@abdulllah1994

لأوغوستين تقول : (لا تحسبي انني مريضة يا بنتي العزيزة ولا تقلقي عليّ لأن الشجاعة لا تنقضي . اما الألم الذي يفتّت كبدي فلا أدري إلى متى سيستمر هكذا عميقاً ولكنني سأبذل كل ما في وسعي لكي لا يقضي عليّ ، فيجب ان أعيش من أجل موريس وصولانج ! [1]).

وكان للرحلة التي هيأها موريس ورفاقه لمواساتها أثر كبير في عودة العافية والنشاط اليها ، وهنالك في مدينة روما الجميلة ، وفي ربوع إيطاليا الساحرة قضت جورج صاند ستة أسابيع مع رهط الشباب ، رفاق ابنها ، الذين كانوا يحبونها ويقدرونها كثيراً ، وكتبت رواية جديدة « دانييلا — Daniella » اثارت سخط السلطـــة الفرنسية ! نشرت الرواية النقدية الجريئة جريـــدة « الصحافة — La Presse » الباريسية بشكل مسلسل فوجد فيها رجال القانون والكهنوت تنديداً لاذعاً بطغيانهم ، ولولا وساطة الامبراطورة بالذات لنابت جورج متاعب كبيرة ولأُقفلت الجريدة وأُلغي امتيازها ... وسّطت الكاتبة الثائرة الامبراطورة لتهدئة الخواطر فحمتها آخذة بعين الاعتبار لوعتها على حفيدتها ،

---

(١) ليليا أو حياة جورج صاند — أندري موروا . ص : ٤٣٨ .

وحقها في النقمة على المحاكم لأن تلكؤها بتنفيذ الاحكام إلى جانب تدخل رجال الكهنوت في الأمور العائلية أدّيا إلى موت الطفلة البريئة .

Twitter:@abdulllah1994

شيخوخة مخصبة مع رفاق المجد

ضاقت جورج صاند ذرعاً بالزوار والمعزين بعد رجوعها من ايطاليا ، ووجدت قصرها بعد موت زهرته الرائعة « نيني » كئيباً ، فبحثت عن مكان آخر لتتفرغ إلى الكتابة وتسلو ... زارت وادي نهر « الكروز – Lacreuse » الواقع في وسط فرنسا فسحرتها قرية جبلية ذكّرتها بالطبيعة السويسرية تدعى « غارغيليس – Gargilesse » باسم النهر الصغير الذي يحفها ، وكتبت تقول في مذكرتها : (اننا نحلم ، نحن الذين ليسوا مُرغمين على الإقامة في باريس ، بأن تكون لنا استراحة في قرية وادعة ، وما من فنان مولع بالطبيعة إلا ويتمنى ان يختم حياته في الريف حيث يجد السكون والراحة المنشودة، ويستمتع بعيش هانيء في غاية البساطة .) وسرعان ما وجدت بيتاً صغيراً على شاطيء النهر ابتاعه مرافقها وصديقها الأثير « مانصو » وأثثه على طراز ما تُجهّز به السفن الجميلة فجعلته الملجأ المفضل للهروب من الناس

Twitter:@abdullah1994

والضجيج ، ولم تُعلم به أحدا سوى ابنها موريس ، وبعض الذين كانت تصطفيهم من الأصدقاء . وقد خلّد فيكتور هوغو النهر الصغير بقصيدة بعث بها إلى جورج صاند ضمنها إعجابه بها وبعزلتها وقال :

« تذكّرني جورج صاند على شاطيء الغارغيليس
بهوارسيوس على ضفة نهر « الآنيو »

لأن الشاعر اللاتيني « هوراسيوس Horace » اختار لنفسه مسكناً متواضعاً على حافة فرع من فروع نهر « التيبر » الايطالي يدعى اليوم « الآنيين – Aniène » وكان له ملجأً ولوحيه مصدراً . ثم أرسل اليها من منفاه ديوانه الرائع « التأملات – Les Contemplations » بعد صدوره مباشرة في عام ١٨٥٦ ، فعكفت على مطالعته في ركنها الشاعري ورأت فيه أعظم أثر من آثاره الرائعة . قال هوغو في مقدمة رائعته : « انه ذكريات نفس متألمة ، حزينة ، تتحدث عن ماض وعن حاضر يفصل بينهما القبر » لأن موت ابنته الشابة « ليئوبولدين – Léopoldine » غرقاً في نهر السين كان الموضوع المهيمن على قصائد الديوان والعامل الأساسي في تفجير عبقرية الشاعر وتعبيره عن آلام الإنسانية في وجودها المشحون بالمآسي . وجدت جورج

Twitter:@abdulllah1994

صاند ان « هوغو » بلغ ذروة النضج في تأملاته المؤثرة لا كشاعر فحسب ، بل كرجل وفنان ومفكر ايضاً ، وشاطرته في مناجاته الحزينة لابنته وأوبته إلى الله شاكياً ومعتذراً. وبعد ان فرغت من مطالعة الديوان كثيراً ما كانت تجمع اللائذين بها حول الموقدة وتقرأ لهم مختارات منه .

كلما تقدمت السن بالانسان كلما أحس بهول منجل الزمن الذي يحصد الأحبة بلا رحمة، الواحد تلو الآخر ، وكلما فقد عزيزاً تُبعث في قلبه الذكريات العذبة والمؤلمة على حد سواء،ويقضي بقية العمر في اجترارها . عندما علمت جورج صاند بموت الحبيب القديم « ألفريد دى موسيه » عام ١٨٥٧ حزنت على ذلك القلب الفتي الذي أنهكه الإسراف في كل شيء فتوقف عن الخفقان وهو في السابعة والأربعين من العمر . ظل الشاعر دى موسيه يذكرها في قصائده حتى آخر حياته وبقي يحنّ إلى تينك العينين المخمليتين ، كما انه استلهم من حبها « لياليه » و« إعترافات فتى العصر » ومجّد فيهما جمالها وذكراها فأرادت ان تفيه حقه بعد موته بكتابة رواية تسرد فيها قصة حبهما القديم . استشارت ناشر كتبها « بولوز » فرحب بالفكرة متوقعاً لمأساة البندقية رواجاً كبيراً ، ولكنه ذُهل بعد الاطلاع على المخطوطة اذ وجد

Twitter:@abdulllah1994

فيها تحريفاً للواقع أملاه عليها ميلها لتبرئة نفسها بعد ان طرأ على فلسفتها في الحب ذلك التطور المغاير كلياً لمذهبها فيه يوم كانت في مستهل الشباب ... وقد تجرّأ ونصحها بتعديل بعض الفصول ، ولا سيما تلك التي صورت فيها البطلة « تيريز جـــاك – Thérèse Jacques » امرأة فاضلة ، خالية من العيوب ، تغلب على أحاديثها عبارات التقى والطهر! ولكنها رفضت اجراء أي تعديل ، ونشرت روايتهـــا (هي وهو – Elle et lui) بتسلسل في « مجلة العالمين » بعد انقطاع عن التحرير فيها استمر سبعة عشر عاماً . لاقى الكتاب رواجاً كسائر رواياتها غير انه أثار سخـــط الروائي « بول دى موسيه – Paul de Musset » شقيق الشاعر ، فردّ عليه بقصة عنوانها « هو وهي » فيها تحامل جائر على جورج صاند استهجنه الكتاب المعاصرون والنقاد والأصدقاء وأوعزوا اليها بنشر رسائل موسية التي كانت تحتفظ بها . فكرت ملياً بالأمر ووقعت في الحيرة: تُرى هل من المناسب نشر هـــذه الوثائق التي تدحض كل الشكوك في إخلاصها لحب موسية وغيرتها على صحته، وموقفها النبيل منه ؟ او ان الحكمة تقتضي التريث في نشرها ولما ينقض بعد على موته وقت طويل ؟ فعمدت الى استشارة صديقها القديم « سانت بوف » الذي كان شاهداً على ما لقياه من

Twitter:@abdulllah1994

عذاب في حبهما العنيف ، لا سيما وانه قال لإبنتها صولانج يوم دعاها إلى بيته في باريس عام ١٨٥٩ : (بلغي أملك العظيمة أسمى تحياتي وأعمق مودتي . صحيح انها غابت عن عيني منذ أمد طويل ، ولكني اذكرها دائماً ، واتابع نشاطها الأدبي باعجاب) . كانت صولانج تقيم في باريس وحدها ، وتخالط النبلاء والكتاب ، وجلهم من أصدقاء أمها بحثاً عن السلوان بعد فراقها عن زوجها وموت ابنتها ، وكانت تزوّد أمها بأخبار المجتمع الباريسي . وقد ساءها كثيراً صدور كتاب عنوانه « هو » بقلم كاتبة مغمورة تدعى « لويز كولى – Louise Colet » صبّت فيه حقدها على جورج صاند ، وهجتها هجاءً مرّاً ... تناول النقاد هذا الكتاب الصفيق بالهجوم على مؤلفته والدفاع عن الكاتبة العبقرية مؤكدين ان الأدب الفرنسي الرومنطيقي مدين لها ولألفريد دي موسيه بأنفس ما خطه يراع ، وأجمل ما جاد به خيال ، ولو لم يكن غرامهما نبيلاً وعظيماً لما خلعا عنه ثوب التكتّم ، واستشهدا العالم على ما في قلبيهما من أحلام وآمال وآلام ! فجمعت جورج رسائل دي موسيه اليها وبعثت بها إلى « سانت بوف » مع صديق مؤتمن ، وأرفقتها بكلمة شرحت فيها ملابسات القضية قالت في آخرها : (... وعلى هذا يا صديقي

Twitter:@abdulllah1994

العزيز آمل ان تعطيني ساعتين من وقتك الثمين تقرأ خلالهما جميع الوثائق ، وساعة تأمّل وتفكير عندما يصبح في وسعك ان تفعل لإصدار حكم نهائي سألتزم به دون تردد)[1] .

وبعد ان تبصّر « سانت بوف » في الموضوع استدعي رسول جورج اليه وكلفه إبلاغها بانه غير موافق على نشر الرسائل الرائعة في الوقت الحاضر ، وان رأيه في موضوعها جازم لأسباب متعددة شرحها له شفهياً . وقد أخذت جورج برأي صديقها الحصيف ، وكتبت اليه تقول في ٦ /١٨٦١/٢ :

(نقل إليّ صديقي « إميل » الحديث الذي دار بينكما ورأيك الأخير في موضوع رسائل « دي موسيه » المخطوطة ، لذا صرفت النظر عن نشرها ، فلن تنشر الا بعد موتي ، ولسوف تقيم الدليل ذات يوم على ان ثلاثة أشياء على الأقل لا تثقل ضمير صديقتك : التورط في حب جديد على مرأى من حبيب مريض يحتضر ، والتفكير في إدخاله مصح الأمراض العقلية ، والرغبة في الإستئثار به وجذبه من جديد بعد شفائه صحياً ونفسياً ... هذه هي الاتهامات الموجهة اليّ ، ولكن الرسائل تدحضها وتثبت ان وراء الروايتين : « إعترافات فتى العصر » و« هي وهو»

(١) « ليليا أو حياة جورج صاند » – أندري موروا – ص : ٤٤٧ .

Twitter:@abdulllah1994

قصة حقيقية بيّنت جنون أحد ابطالها ، ومحبة الثاني وحنانه ، او اذا شئت جنون الإثنين معاً ، وخلوّ قلبيهما من أي أثر للنذالة او الشناعة ، او مما يدنّس النفوس المخلصة ! ...) .

قرأ « سانت بوف » رسالة صديقته بتأثر بالغ مقدّراً صدقها وثقتها به ، وأخذ يبحث عن وسيلة لتكريمها فاقترح على « ألفريـــد دى فيني Alfred de Vigny » وبعض زملائه في المجمع العلمي الفرنسي (الأكاديمية الفرنسية) منحهـــا جائزة « غوبير — Gobert » الأدبية لسببين : أولهما لأنها روائية كبيرة تستحق الجائزة بما قدمت من أعمال ممتازة ، وثانيهما لأنها تعاني أزمة مالية لعلّ الجائزة التي تبلغ قيمتها عشرين ألف فرنك تساعدها على رتق العجز في ميزانيتها . أيد « ألفريد دى فيني » اقتراح « سانت بوف » ودعمه الأديب الكبير « بروسبير ميريمي » وثلاثة آخرون يوم جرى التصويت تحت قبة الأكاديمية غير انها لم تحظ بها لأن ثمانية عشر عضواً صوتوا ضدها . علمت جورج صاند بما دار في تلك الجلسة بالتفصيل، وبتهجم « المؤرخ « فرانسوا غيـــزو — François Guizot » على ما ورد في روايتها « هي وهو » من آراء عن الزواج والملكية الخاصة اعتبرها نابية فسكتت على مضض ولكن

Twitter:@abdullah1994

استياء القصر الملكي من حرمانها من الجائزة واسنادها إلى المؤرخ الكبير والسياسي المشهور « أدولف تيير – Adolphe Thiers » فاق استياءها. وبعد فترة وجيزة أوحت الامبراطورة الى ذوي النفوذ بترشيح جورج صاند للمجمع العلمي الفرنسي فهبّ المعجبون لمعاضدتها ولكنهم واجهوا مقاومة كبيرة من خصومها في داخل الأكاديمية وفي خارجها. لقد استكثر عليها هؤلاء احتلال مقعد فيها ، وحاربوا الإقتراح مدعين بان مثل هذا الشرف لا يناله الا الرجال! كان أعنفهم في رفض الاقتراح الأديب « جول صاندو » عشيقها الأول الذي نشرت بالاشتراك معه رواية « روز وبلانش » عام ١٨٣١ تحت الاسم المستعار : « ج . صاند – J. Sand » الذي انتحلته لنفسها بعد ان بدلت حرف (ج .) باسم (جورج) ... ظل جول صاندو ناقماً عليها حتى آخر حياته اذ لم يكن يتحلى بكرم النفس الذي يدعو إلى تجاوز الأحقاد ، ولم يترك في حياته فرصة الا وتحامل فيها بالحديث على جورج صاند « تلك التي خرّبت حداثته» حسب قوله ! ويوم صدر كتيّب لا يحمل توقيعاً بعنوان (النساء في الأكاديمية) يصف بتهكم كيف استقبل «الخالدون» في احتفال كبير أقيم تحت القبة أديبة انتخبت عضواً فيها أدركت جورج انه هو مؤلف الكتيّب فردّت عليه بآخر

Twitter:@abdulllah1994

نشرته بعنوان : (لماذا تدخل النساء الأكاديمية ؟) أعربت فيه عن احترامها لبعض ذوي المواهب العاملين فيها ، وصرحت بأنها لا تشعر بأية رغبة في الانتماء إلى مؤسسة جليلة وانما عتيقة ، تجاوزها الزمن ... وعندما بلغها ان بعضهم علق على كتابها بقوله : (العناقيد ما زالت حصرماً ...) أجابت تقول : (كلا ، ثم كلا ، لقد أينع العنب أكثر مما ينبغي ..) .

واذا كانت المعاصرة حرمان في كثير من الأحيان فانها لم تكن كذلك بالقياس إلى جورج صاند مع انها لم تحظ بدخول الأكاديمية . ولو بُعثت بيننا في اليوم الحاضر لوجدت ان الرجال في وطنها ما زالو يوصدون باب المجمع العلمي الفرنسي في وجه الأديبات المتفوقات ، وان الأديبة الكبيرة « كوليت » هي الوحيدة[4] التي حطمت جسر التحيّز والترمّت بعد أن انتُخبت عضواً في « أكاديمية غونكور — Goncourt » فلقد تربعت جورج على عرش المجد في حياتها ، وانتزعت من ألدّ أعدائها اعترافهم بنبوغها وتقديرهم لأعمالها الأدبية وخدماتها للفكر والمجتمع . وبقدر ما يكون الإنسان عظيماً بقدر ما يكثر عدد أعدائه إما عن جهلٍ ، أو عن غيرة، او لمآرب شخصية أخرى ، ولكن البون شاسع بين الذين

Twitter:@abdulllah1994

هاجموها في صباها واخذوا عليها إفراطها في الطيش، وبوحها بأسرار حياتها الخاصة ، وبين الذين تعمدوا المس بسمعتها بعد توبتها وبلوغها سن الشيخوخة . ان ما يُؤسف له حقاً في مثل هذه الاحوال إطلاق الأحكام الاعتباطية على ذلك الرجل او تلك المرأة دون التمييز بين حسناته ومساوئه ، حتى لكأن الذين ينصّبون أنفسهم حكاماً على الآخرين منزهون عن كل عيب ، يقطر الطهر من أنفاسهم وأذيالهم... واما عن تعمّد جورج صاند تبرئة نفسها من إغراء موسيه بحبها ، وإضفاء مسحة من التعفف في استجابتها لذلك الحب في كتابها « هي وهو » فانه ظاهرة إنسانية تتجلى عند أكثر الناس في شيخوختهم عندما يستعيدون ذكريات ماضيهم لأن البعد الزمني عامل مهمّ له أثر كبير في تجميل الماضي وذكرياته ونوازعه ولأن كل ما نفقده يكتسب جمالاً في خيالنا ، بل يزداد حسناً في مخيلتنا عندما تتقدم بنا السن . ان شدة الحنين لذلك الماضي ، ونزوعنا الفطري لتبرئة نفوسنا من الأخطاء التي ارتكبناها يدفعنا إلى تصويره وإظهاره بشكل مغاير للواقع ، وكثيراً ما يصبح في ظننا هو الواقع الذي عشناه، والذي نستعذب اجترار ذكرياته حتى آخر رمق من حياتنا .

Twitter:@abdulllah1994

في صيف عام ١٨٦١ دعت جورج صاند « الكساندر دوماس ـ الإبن » لقضاء أيام معها في نوهان ، وكانت تود كثيراً ذلك الشاب الذي كان يصغرها بعشرين عاماً ويحبها ويناديها « ماما » . كان كريم النفس واليد مثلها، يتذوق الآثار الأدبية التي تتذوقها ، ويدافع عن النساء والأطفال بحماسة لا تقل عن حماستها ، فأتى إليها بعد أن استأذنها بمصاحبة صديقته الروسية، وصديق خفيف الظل ، ثقيل الوزن ، هو الرسام الماهر : « مارشال ـ Marchal » ، فاستعاد القصر نشاطه الاجتماعي والمسرحي ، وجرت بين جورج صاند ودوماس مساجلات وجلسات عمل تركت أثراً عميقاً في أعمال الأديبين.

استلهم دوماس الإبن روايته « إبن السفاح ـ Le fils naturel » من موضوع روايتها « فرانسوا اللقيط» « واستوحى من روايتها « كلودي ـ Claudie » التي تحكي قصة فتاة أصبحت أما بلا زوج بعد أن غرر بها عابر سبيل وهجرها ، مسرحيتين الأولى : « أفكار السيدة أوبري Les idées de Mme Aubray » ، والثانية « دونيز Denise » لأنه كان يعتقد بأن مثل هذه الفتيات البائسات جديرات بالإنصاف والاحترام . ثم راجعا معاً مسرحية جورج القديمة « زواج فيكتورين » فأشار عليها دوماس بالتركيز على موضوعها الجميل الذي يصوّر مآسي

Twitter:@abdulllah1994

الزواج غير المتكافيء فانطلقت من الموضوع ذاته وكتبت رواية جديدة بعنوان : « الماركيز دي فيللومير Le Marquis de Villemer » وعندما فرغت منها ساعدها في بناء سيناريو وتحويلها الى مسرحيه إذ كان أمهر منها في فن كتابة المسرحيات . ولكن تفوقه في هذا الميدان لم يُنقص من إعجابه الشديد بها إذ كان يقول في كل مجلس يأتي على ذكرها : (ان جورج صاند تفكّر كما كان يفكر « مونتين — Montaigne » وتحلم كما كان يحلم الشاعر الغنائي البطولي « أوسيان Ossian » ، وتكتب كما كان يكتب « جان جاك روسو Jean-Jaques Rousseau » وان «ليئوناردو دا فنشي — Léonard de Vinci » يرسم جملتها ، و«موزارت — Mozart » يلحنها ، و « مدام دي سيفيني — Mme De Sevigné » تقبّل يديها ، و « مدام دي ستال » تركع أمامها عندما تعبر الطريق !)

ردت جورج الزيارة لصديقها دوماس الإبن في باريس في مطلع عام ١٨٦٢ حيث التقت بزملائها القدامى والجدد ، واطلعت على آخر مؤلفاتهم ، وبدت لهم في أوج تألقها الفكري على الرغم من الهالة الفضية التي كللّت جبهتها ووجهها ، وأضفت عليها جمالاً هادئاً ، وهيبةً كبيرة . ثم عادت إلى

Twitter:@abdullah1994

نوهان لتحتفل بزواج ابنها موريس الذي أصغى أخيراً إلى نصحها وقد شارف على الأربعين . فمنذ أن فقدت حفيدتها الأولى « نيني » وهي تلح عليه بالتفكير جدياً بالزواج شرط أن يختار فتاة ذكية تحبه ويحبها وأن تكون منتمية لأسرة شريفة ، فوقع اختياره على فتاة إيطالية في العشرين من العمر، ابنة فنان معروف يدعى « لويجي كالاماتا – Luigi Calamatta » كانت تربطه به روابط الصداقة والزمالة . لقد رحبت جورج بهذا الانتقاء ، وتوسمت في كنتها الخير كله ، فكتبت إليها تقول :

(نوهان في ١٨٦٢/٣/٢٣

يا عزيزتي لينا ، أرجو أن تؤمني بالحب وأن تثقي بنا وبموريس . إعلمي أن السعادة الوحيدة في دنيانا تتلخص في أن نحب ، وأن نشعر بأننا موضع محبة الآخرين ... أشعر بأنني سأكون أماً حقيقية لك لأنني في حاجة إلى بنت ولا يمكنني أن أجد أفضل منك ، أنت ابنة أفضل صديق لنا . أحبي وطنك إيطاليا يا ابنتي فهذا دليل على قلب نبيل ، وثقي بأننا نحبها نحن ، ولاسيما بعد أن استيقظت مؤخراً من غفوتها لتستعيد ماضيها البطولي ...[١])

---

(١) « مراسلات » – جورج صاند – الجزء الرابع – ص : ٣٢٤ .

Twitter:@abdullah1994

رفرفت أجنحة السعادة على قصر نوهان بقدوم الشابة الحلوة الذكية المرحة « لينا » إليه ، فانسجمت مع حماته بسرعة ، وأسهمت في تمثيل مسرحياتها المخصصة للدمى المتحركة مع « مانصو» الممثل البارع ، وصديق الأسرة المتطوع دائماً لخدمتها ، والملازم الأمين للكاتبة الكبيرة . ومع بعض شبان القرية الذين تدرّبوا على يديها للتمثيل . كانت « لينا » فتاة رائعة تفيض حياةً ورقة ، وقد وصفتها جورج في رسائلها تقول : (إنها ذات شخصية أصيلة ، وإن لها جاذبية لا تقاوم فهي تجيد الغناء بصوت رخيم ، وتجيد أيضاً صنع الحلويات وتنظيم الحفلات ، وتهيء لنا أجمل المفاجآت كل يوم في فترات الاستراحة التي تجمعنا في الحديقة . « لينا »بهجة للعين والقلب ، تضحك للشمس والفراشات ، وتسكب الدموع مدراراً عندما تشاهد فصلاً مؤثراً على مسرح العرائس! وقد اكتملت سعادة موريس وأمه في صيف عام ١٨٦٣ عندما هلّ على القصر الجميل طفل رائع أسمياه : « مارك انطوان دودوفان صانـد Marc-Antoine Dudevant Sand » فزفت الجـــدة بشرى ولادة « كوكوتون — Cocoton » إلى صديقيها الحميمين « ألكساندر دوماس — الإبن» « وغوستاف

(١) « مراسلات » — جورج صاند — الجزء الخامس — ص : ٢٣٨ .

Twitter:@abdulllah1994

فلوبير » الذي توطدت عرى الصداقة بينها وبينه عبر المراسلة منذ أن نشر رائعته « مدام بوفاري — Mme Bovary » عام ١٨٥٧ وأهداها إليها بعبارات تنمّ عن إعجابه الكبير بموهبتها وبشخصيتها . فكلاهما كان من ألمع وجوه المدرسة الرومنطيقية ، غير أن فلوبير كان شديد العناية بتنميق أسلوبه، وانتقاء ألفاظه ، وأبطأ منها في تأليف رواياته . أما هي فقد شبهها معاصروها بينبوع ثرّ لسيولة قلمها، وغزارة آثارها، وقال أحد النقاد معلقاً على تطور انتاجها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر إن اعمالها الجديدة جاءت دليلاً على مسايرتها للتطور الذي طرأ على المجتمع والعلم والأدب، وإنها كانت الصدى الرنان للأفكار الحديثة المتمخضّة عنه . ولعل أوضح مثال على ذلك مجاهرتها بمقاومة سلطة رجال الأكليروس في عهد صديقها الملك نابوليون الثالث خشية أن يضغط نفوذهم الآخذ بالازدياد على الحريات الشخصية والعامة . أعربت في رسائلها إذ ذاك ، وفي بعض المقالات ، عن تمسكها بالدين ، وإيمانها بالله على طريقة فيكتور هوغو ، واعترفت بأنها امتنعت عن ممارسة الطقوس الدينية التي كانت مولعة بها يوم كانت تلميذة للراهبات في باريس ، وهاجمت الكاثوليكية متمنيةً لها التحرر من بعض الطقوس لكي تحافظ الديانة المسيحية على نقاوتها ، وتلتزم بمثاليتها . وعندما تزوج ابنها موريس وأبدى

Twitter:@abdulllah1994

رغبته في اعتناق المذهب البروتستانتي مع زوجه « لينا كالاماتا» أجرت دراسة مستفيضة لذلك المذهب ، وباركت عقد زواجه وتعميد ابنه بعد ذلك على الطريقة البروتستانية .

كتبت جورج صاند يومئذ رواية أثارت ضجة كبيرة في فرنسا بعد نشر حلقاتها في « مجلة العالمين » بعنوان « الآنسة لاكينتيني — Mlle La Quintinie » ردّاً على رواية كاتب شاب يدعى « أوكتاف فويي — Octave Feuillet » كان قد نشرها في المجلة ذاتها بعنوان « سيبيل Sybille » عام ١٨٦٢ ، وتطرّق فيها إلى علاقات الفرد بالدين متحدثاً عن الهرطقة والتشكك بأسلوب سطحي وركيك . فلقد استفزها استهتار الكاتب بمعالجة أمور اجتماعية وانسانية مهمة وحساسة للغاية عندما أثار موضوع الدين بدون تعمق ولا دراية فوجدت أن افضل ردّ عليه هو العكوف على تأليف رواية اجتماعية ودينية تضمّنها خلاصة نظرتها للدين وفلسفتها الاجتماعية . فرغت من كتابة « الآنسة لاكينتيني » في غضون بضعة أشهر ، وقلبت فيها مواقف أبطال رواية « أوكتاف فويي » فأعطت لهذا الموضوع الخطير ما يستحق من دراسة وتحليل. تفيد رواية سيبل بأن فتاة متشككة تمردّت على الدين في مستهل صباها وعزفت عن ممارسة طقوسه ، ولكنها عادت للايمان فجأة بعد أن شاهدت كاهناً يلقي بنفسه

Twitter:@abdullah1994

في اليم إبان عاصفة عينفة لينقذ بعض البحارة ... ولم يكن صعباً أن يلحظ القارىء أن بطلة الرواية أصدرت حكمها على الديانات والصلات الاجتماعية والروحية ، ووصفت بعض الحالات النفسية وما يرافقها من انفعالات حاسمة في حياة الانسان بشكل اعتباطي ينمّ على جهل الكاتب وغروره. لقد كرست خاتمة الرواية إخفاق مؤلفها ، وجعلته موضع سخرية النقاد وإشفاق الكتاب وذلك عندما روى أن بطلة القصة هامت برجل ملحد ، بعد عودتها إلى التعبّد ، ثم تمكنت من هدايته إلى الدين في أثناء نزهة عاطفية قاما بها سوية في ليلة مقمرة !.. هذا ملخص سريع لرواية « سيبيل » التي وجدتها جورج صاند تافهة ومثيرة للسخط ، ووجدت فيها تطاولاً على موضوع جوهري في وجود الانسان له انعكاسات خطيرة على المجتمع برمته . أما روايتها : « الآنسة لا كينتيني »فقد كانت بطلتها « لوسي — Lucie » فتاة ورعة ، أحبت شاباً مؤمناً بادلها حباً بحب ، ولكنه كان واسع الأفق ،متحرراً من ممارسة طقوس المذهب الكاثوليكي لأنه كان يأخذ عليه أربعة أشياء : التخويف بالجحيم ، ورفض التقدم العلمي بحجة أن فيه خروجاً على العقيدة السماوية ، والدعوة إلى التقشف في العلاقات الجنسية ، والاعتراف ! فالاعتراف بشكل خاص كان في نظره أمراً مغايراً للمنطق لأنه يجعل من الكاهن المؤتمن الوحيد على أسرار المرأة ، أي قيماً عليها ، يتمتع بامتيازات

Twitter:@abdulllah1994

غير معقولة تضطرها للبوح بكل ما يحدث لها ويخامر فكرها، ناهيك إذا ما كان الكاهن موضع ارتياب في سلوكه الشخصي ، كما صورته جورج صاند في روايتها المثيرة . وقد ختمتها بنجاح الزوج في تحرير عقل زوجه من معتقدات ورثتها عن أجدادها وآمنت بها دونما تفكير ، وبتمكنه من إقناعها بالأخذ بالدين ككل دون التقيد بالجزئيات ، فوجد القراء في ذلك الزوج المتنوّر صورة صادقة لجورج صاند ولآرائها . لاقت رواية « الآنسة لاكنتيني » رواجاً كبيراً ، وتناولها النقاد بالتقريظ والتحليل في الصحف والمجلات، وعلقوا على موضوعها الذي أثار اهتمام كبار كتاب العصر ، وجيل الكتاب الناشئين ، فكان منهم من دافع عن رواية « سيبيل» وكاتبها ، وعن دعوته للتمسك بالدين تمسكاً أعمى ، ومنهم من هنأ جورج صاند على جرأتها في خوض مثل هذا الموضوع الدقيق الذي لم تصغ فيه إلا إلى صوت العقل وصوت الضمير[1].

وبعد أن احتدمت المعركة الفكرية في باريس كان لا بد من حكَم يضع لها حداً ، فكان القول الفصل للناقد الكبير « سانت بوف » إذ نشر مقالاً قال في آخره : (لقد أثار مؤلف رواية « سيبيل » قضايا كبيرة الأهمية أظن أنها لم

(١) ولكن الشاعر الكبير « بودلير Baudelaire » هاجم الكاتبة صاند بعنف ونعتها بالثقل والثرثرة وقال : « إن لجورج صاند أعذاراً شخصية تحدو بها إلى إلغاء الجحيم ... » . أنظر أعمال بودلير الكاملة ص : ١٢٨٠- ١٢٨١ . (يوميات خاصة) .

Twitter:@abdulllah1994

تخطر بباله عندما كتب قصته، وأعني بهـا القضايا الدينية والاجتماعية الوثيقة الاتصال بالحاضر والمستقبل . وعندما ثارت عليه جورج صاند الثورة التي نعلمها كانت كالنسر القوي الذي يهبّ في أول تحليق يقوم به . لقد انقضّت على الحمامة البيضاء ورفعتها إلى أعالي الفضاء ، وما زالت تقبض عليها حتى الساعة وهي متدلية من مخالبها فوق قمم جبال « السافوا – Savoie » . ولم نشهد بعد نزاعاً فكرياً بين نظرية لاهوتية وأخرى في إطار الرواية ، انه بحق لدرب شديد الوعورة ...)

وتلقى « سانت بوف » رسالة شكر من جورج صاند جاء فيها : (قرأت مقالتك الممتازة عن « أوكتاف فوبي » التي ختمتها بكلمة عني رائعة . ولكن أحب ان أشير الى انني غدوت نسراً طاعناً في السن ،وهذا ما يحول بينه وبين اختطاف المواهب الشابة ، وما يجعله يأبى التهامها كلقمة سائغة ..) (١)

اكتسبت جورج صاند شعبية كبيرة في صفوف الشباب الذين كانوا مستائين من سلطان القسس فالتفوا حولها ، وأخذوا يتمثلون فيها الزعيمة المعارضة التي تعبر عن مشاعرهم

(١) رسائل إلى ألفرد دي موسيه وسانت بوف – جورج صاند – تحقيق فيليكس ديكوري ص ٢٤٩ .

Twitter:@abdulllah1994

وآرائهم . لقد أضحت علماً تتوجه اليه الانظار بفرح وإجلال في كل مكان ، وعندما أعلنت صالة مسرح « الأوديون» عن دنوّ عرض مسرحيتها الجديدة « المركيز دي فيللومير» سرت شائعات في باريس تتحدث عن مؤامرة تحاك ضد الكاتبة الكبيرة فاستعد الطلاب والعمال لحمايتها وتأييدها مساء العرض الاول الذي جرى في ٢٩ / ٢ / ١٩٦٤ بحضور الامبراطور نابوليون الثالث والامبراطورة . بدت جورج صاند هادئة القسمات ، قبل العرض وبعده ، على الرغم مما وصل إلى سمعها من تهديد ووعيد . امتلأت القاعة بكبار الكتاب والنقاد ، وبعدد غفير من الطلاب والعمال الذين صفقوا للمسرحية ولمؤلفتها طويلاً اذ وجدوا فيها تمثيلية عاطفية مثيرة جداً ومؤثرة للغاية . لقد بيعت جميع التذاكر ليلتئذٍ ، وسجل صندوق المسرح رقماً قياسياً اذ بلغ ريع الحفلة خمسة آلاف فرنك في حين انه لم يكن يتجاوز ألفاً وخمسمئة فرنك في السابق . وعندما انتهت الحفلة أحاط بجورج صاند أصدقاؤها : « غوستاف فلوبير » الذي كان يبكي بفرح وهو يقبلها ، و « سانت بوف » و «تيوفيل غوتيير – Théophile Gautier » و « ارنست رونان – Ernest Renan » والأخوان « ادمون وجول غونكور – Edmond et Jules Goncourt » اللذان وصفاها في

Twitter:@abdulllah1994

مذكراتهما قـائلين : (تُذكرنا سُمرة جورج صاند الجذابة في شيخوختها الجميلة بالخلاسيين ذوي الهيبة والوقار ، ولعل اكثر ما يشد الانتباه اليها تلك الرقة في يديها الصغيرتين اللتين تكاد تحجبهما عن النظر أردان قميصها الابيض الهفهاف ...).

دوّنت جورج صاند في مذكراتها الكلمة التالية في أعقاب تلك الليلة : (باريس في ٢٩ شباط ١٩٦٤ – الحفلة الاولى لمسرحيتي : « دي فيللومير » . الأحوال الجوية في باريس ردئية . أمطار ووحول. ذهبت بالعربة مع المهندس « مايار – Maillard » لأبتاع زهوراً وقفازاً ، ثم قمنا بزيارة الأمير . قضيت ما تبقى من النهار مع الطلاب الذين توافدوا لزيارتي وطالبوني ببطاقات تخولهم الدخول إلى المسرح . شكرتهم وأرسلتهم إلى « الأوديون » حيث تجمعوا أمام بابه قبل العرض ببضع ساعات وهم يغنون ويهتفون . دُعيت ليلاً للجلوس في مقصورة الامبراطور والامبراطورة حيث لقيـــت « الأمـــير ةماتيلـد – La Princesse Mathilde » والأميرة كلوتيلد – La Princesse Clotilde » و « الأمير نابوليون » . نجاح خارق وحماسة جنونية . هتافات الاستحسان أدّت إلى رفع الستارة عدة مرات .

Twitter:@abdullah1994

مظاهرة صاخبة على باب المسرح ، بل ما يشبه الهياج الشعبي لان مئات التلاميــذ الذين لم يجدوا محلات فيه توجهوا إلى النادي الكاثوليكي ، ومن ثم إلى دير اليسوعيين حيث أخذوا ينشدون التراتيل ! ولكن رجال الأمن فرقوهم وقبضوا على بعضهم ... خرجت من المسرح لأواجه جمهوراً مغتبطاً ينادي : « عاشت جورج صاند ! عاشت لاكينتيني ! » تبعني الناس الى « مقهى فولتير – Café Voltaire » وهم يهتفون فاضطررت لمغادرتــه بسرعة مع صحبي. وجدت في البيت ما يقرب من مئتي شخص في انتظاري كان بينهم « الكسندر دوماس » ورهط من الزملاء الخ..الخ.)(١)

بعد هذا النجاح الكبير قضت جورج صاند في باريس بضعة أسابيع لتلبية حفلات التكريم التي أقامها الأصدقاء على شرفها ، وأسهمت في ندوات أدبية متعددة كانت فيها موضع احترام واكبار . ومع ان ميلها للسكوت كان أقوى من رغبتها في الكلام تناولت الحديث عن قضايا العصر ، وأجادت كل الاجادة في ندوة « الأميرة ماتيلد » ، وفي بيت « سانت بوف » ، وفي مطعم « ماني – Magny »

---

(١) ليليا أو حياة جورج صاند – أندري موروا – ص : ٤٥٩ ، نقلا عن دائرة المخطوطات في المكتبة الوطنية الفرنسية .

Twitter:@abdullah1994

الذي كان يومئذ ملتقى كبار الكتاب والشعراء. أطنب عظماء عصرها بذكرها إبان تلك المرحلة المخصبة من حياتها وكان أجمل ما قيل فيها ما جاء على لسان الأديب « تيثوفيل غوتيه» حين كتب عنها العبارة التالية : (ينبغي ان ينظر الانسان الى جورج صاند باكبار كما كان ينظر الفيلسوف «هيجل Hegel » الى الجبال) .

استمتعت الكاتبة الكبيرة بإقامتها الطويلة في باريس ، وكتبت إلى « أوغوستين دي بيرتولدي » بعد العودة إلى نوهـان رسالة أعربت فيها عن عزمهـا على مغادرة قصرها الريفي من جديـد لاسترداد حريتها . شكت لهـا متاعب الحياة في نوهـان ، واضطرارها لاستقبال المراجعين والزوار كل يوم تقريباً مما كان يعطلها عن العمل في النهار ، وشكت لها كذلك وطأة النفقات الباهظة التي يتطلبها القصر الذي كان يظل مفتوحاً لاستقبال الوافدين اليه ، واستضافة الاصدقاء ما دامت موجودة فيه . كما نوّهت لها بان ابنهـا موريس وزوجه لم يعودا في حاجة إلى قربها منهما على الدوام ؛ بيد أن السبب الحقيقي الذي دعاها للتفكير بمغادرة بلدتها كان تدهور العلاقات بين ابنها ومرافقها الخاص « مانصو » . هذا ما أورده « اندري موروا » في كتابه عنها وما أيدته « فلاديمير كارينين »

(١) فلاديمير كارينين هو الاسم المستعار للكاتبة السيدة « فارفارا كوماروي. Varvara Komarow »

Twitter:@abdulllah1994

في دراستها عنها ايضاً اذ ظهرت على موريس بوادر الغيرة من « مانصو » لإيثارها هذا الشاب الغريب عليه ، سواء في الشؤون الخاصة ، او في الشؤون العامة ! . لقد تشاجرا أكثر من مرة بعد مضي سنوات طويلة على تعايش سلمي ممتع في نوهان ، وبلغت غيرة موريس منه حداً دفعه إلى انذار أمه بقوله : « عليك ان تختاري أحدنا ! إما هو أو أنا ! ...

كانت الدوافع لهذا السخط متعددة ، وربما كان من أهمها تفوّق « مانصو » عليه في الفن ، وسعي جورج الحثيث لإظهار مواهبه في النحت وفي الكتابة خلال إقامتها الطويلة معه في باريس حيث شجعته على تأليف مسرحية شعرية تمكن من عرضها على مسرح « الأوديون » بفضل مساعيها.

لقد أضحى مانصو مشهوراً ينظر اليه الناس بعطف شديد وكأنه ولدها المدلّل ! فكرت ملياً وحبذت في بادىء الأمر إقصاءه عن نوهان ، ولكن سرعان ما عدلت عن ذلك ليقينها بانه لا يستحق ان يُطرد بعد تفانيه في خدمتها مدة خمسة عشر عاماً ، وانه لا يجوز مطلقاً ان تتخلى عنه وقد بدت عليه عوارض السل في الآونة الاخيرة . أما موريس فقد رأت ان بوسعه الاستغناء عنها وعن حاشيتها ما دام قد تزوج ورُزق ابناً ، وأسس لنفسه أسرة وكياناً مستقلاً ، وعلى هذا اختارت مغادرة نوهان مع مانصو لفترة ، قد تطول أو تقصر ، ولكنها ظلّت على وفاق مع ابنها .

Twitter:@abdulllah1994

الهجرة إلى ضواحي باريس مع "مانصو"

كان «مانصو» رجلا مرهف الحس ، حي الضمير ، رقيق الحاشية إلى درجة جعلته عرضة لصراع نفسي حاد خشية ان يكون قد انتزع « سيدته » من نعيم حياتها العائلية فكتب في مذكرته يقول: (يُخيل الي ان « السيدة » مرهقة فكرياً ومتعبة صحياً في هذه الأيام .. ما زالت تخيط ثياب الدمى لمسرحيتها بحماسة كبيرة ، ترُى ماذا سيحدث عندما تبتعد عن نوهان وتُحرم من مسرح العرائس ؟) وكتبت جورج في مذكرتها تقول ليلة رأس السنة : (البرد قارس هذا النهار يمنعني من الخروج للنزهة . تحدثت طويلا مع « موريس » عن صنع تمثال من الثلج غداً ثم تناولنا عشاء فاخراً : حجل محشو بالكستناء ، وبازيلا ، وحلوى من صنع « لينا » . لقد دخنا في السهرة ولعبنا « الدومينو » : وفي منتصف الليل نهضت لينا وغنت لنا أغنيات رائعة فصحا « كوكوتون » من نومه على صوتها . أحضروه لنا

Twitter:@abdulllah1994

وهو يضحك كالملائكة ، وتبادلنا الهدايا ثم انسحب كل منا إلى حجرته) .

سرت في مقاطعة « البيري » وقرية نوهان شائعة غريبة تفيد بان « سيدة نوهان » عزمت على مغادرتها نهائياً فكتبت جورج في مذكرتها كلمة سجلت فيها استغرابها لهذا النبأ مؤكدة بأن رحيلها حلّ مؤقت فرضته حاجتها إلى الهدوء ورغبة ابنها بالاستقلال عنها ، وقالت في آخرها تخاطب مانصو : (انا لا أشعر بالحزن ، ولِمَ الحزن ما دام الجميع متفقين؟ لم لا يستمتع كل واحد بحريته؟ لنبتعد قليلا ما دام كل منا راغب في هذا التغيير الآني ، لا سيما واني تواقة للابتعاد عن كل ما يقلق البال ويتعب القلب . لنذهب بعيداً بدون مرارة ، ولا حقد ولا استياء . لنذهب يا صديقي ونترك كل شيء لهم الا كرامتنا ... كلا ! لن يمسوها بسوء أبداً أبداً ! أبداً !) [1] .

أقامت جورج مع مانصو في شقة في باريس في بادىء الأمر وخذت تبحث عن مكان في الضاحية

---

(١) « ليليا أو حياة جورج صاند – أندري موروا – ص ٤٦٥ ، نقلا عن دائرة المخطوطات في المكتبة الوطنية الفرنسية .

Twitter:@abdulllah1994

تأوي اليه معه للتفرغ إلى عملها والعناية بصحته بعيداً عن العاصمة وضوضائها وهوائها الملوث، وقريباً منها في آنٍ واحد. كانت تملك عشرين لوحة من رسوم الفنان الكبير «ديلاكروا» الذي كان قد توفي عام ١٨٦٣ فباعت ثماني عشرة لوحة بأسعار جيدة ، كي تبتاع بيتاً ريفياً وقع عليه اختيارها في بلدة « بليزو — Plaiseau » بالقرب من « فرساي Versailles » وفي مطلع الربيع عـادت إلى نوهان لزيارة ابنها وكنتها ولإهدائهما مورداً جيداً من عائدات المبلغ الكبير الذي فاض عن ثمن لوحات « دولاكروا » وعن ثمـن الدارة التي اشترتهـا . قضت مع موريس وأسرته أياماً ممتعة ولكنه فاجأها بعزمه على مغادرة القصر (تهرّباً من المسؤولية) وعلى الإقامة في بيت ابيه « كازمير » للتقرب منه . اما « صولانج » ، ابنتها الأرملة الشابة ، فقد كانت تقيم في باريس مع عشرائها ، وتتنقّل بين عواصم أوروبا على نفقتهم ... ولعل الشيء الوحيد الذي كان يعكر صفو جورج صاند كونها فقدت السيطرة عليها نهائياً ومع ذلك كانت تراسلها بين وقت وآخر وتنصحها بالاعتـدال في المسلك ، وبالعناية بصحتها .

وجدت الكاتبة الجوالة في » بليزو « السحر كله والراحة التي كانت تنشدها فكتبت في مذكرتها تقول : (بليزو في

Twitter:@abdullah1994

١٢ حزيران ١٨٦٤ : انني مفتونة بكل ما يحيط بي : البلدة الحديقة الصغيرة ، المطل ، البيت ، العشاء الأول فيه السكون الرائع ، حتى الخادمة الجديدة ! شيء ساحر حقاً ! لقد فكر مانصو بكل كبيرة وصغيرة وبلغ درجة الكمال، ما أروعه من انسان !).

بليزو ١٣ حزيران ١٨٦٤ – نمت البارحة ملء الاجفان . يبدو ان السماء رعدت كثيراً وأمطرت طوال الليل ، وان الرياح هبت عند الفجر ولكنني لم ألحظ شيئاً لاستغراقي بالنوم الهنيء . قضينا هذا النهار منهمكين بفك الامتعة التي أحضرناها وبترتيبها . ما ألذ وضع الثياب والأشياء الخاصة في خزُنٍ جديدة وبيت نظيف . « لوسي » طهت لنا عشاءً فاخراً وقدمته بأسلوب يجلب الشهية . أكلنا من ثمرة حديقتنا فاكهة لذيذة بعد ان تناولنا السمك والبيض وسلطة الخضار الطازجة . لقد انتصر « مانصو » على خصومه أخيراً ، وتحررت من أعباء الماضي ومرارته ! ...

بليزو ١٤ حزيران ١٨٦٤ – كتبتُ الى موريس ما يلي : ان هذا المكان جنة خضراء نضرة يتوسطها نهر ماسي في إطار رائع وكأنه من صنع خيال « رافائيل » ... إنك تنام هنا براحة ، وتصحو بنشاط . الكم تذكرني السكينة

Twitter:@abdulllah1994

المهيمنه على هذه الضاحية بسكينة « غارغيليس » ليل نهار ! الأشجار بديعة ، والحقول وسنابل القمح زاهية ، والنباتات الجميلة تحف بالسواقي والدروب المتعرجة . قمت بجولة هذا الصباح رجعت منها مبهورة أحمل باقة من الأزهار الليلكية والزرقاء والوردية التي لا تنبت في منطقتنا . أود ان أرسل لكم غرسة من « ملكة المروج » التي تنوّر حديقتي الصغيرة بلونها الزهري ، والتي تنمو بسرعة فتصبح شجيرة بعد فترة قصيرة ...)(١).

لم يكن قد انقضى شهر على إقامتها الهانئة في « بليزو » حتى بلغها نبأ مروع تسلمته برقياً: (مارك انطوان «كوكوتون» مريض جداً ، الامل في شفائه ضئيل) فحزمت جورج صاند أمتعتها وتوجهت الى محطة القطار في باريس مع مانصو ، ولكن قطار « بوردو » الذي كان ينبغي ان تستقله لبلوغ « غيوري » فاتها فباتت في باريس على أحرّ من الجمر. وعندما وصلت في ظهيرة اليوم الثاني مع طبيب للأطفال وجدت الحفيد الصغير ميتاً ! استقبلها « كازمير » و « موزيس» و « لينا » بالدموع فقضت معهم يوماً حزيناً رجعت بعده إلى « بليزو » مفجوعة ، عاجزة عن الافصاح عن

(١) جورج صاند « فلاديمير كارينين – الجزء الرابع – ص : – ٤٧٨

Twitter:@abdulllah1994

مشاعرها وعن مجاملة الناس ، غير أنها حرصت على نصح ابنها وكنتها بإنجاب عدة أولاد بسرعة عندمـــا همت بوداعهما وقالت لهما بصوت تخنقه العبرات : **(أعلم أن المصاب جلل والألم كبير ولكنني أريد لكما أولاداً كثيرين . ولا تنسيا أنه لا مفر لنا في هذه الحياة من أن ننجب ، ونتألم ، ونبكي ، ونأمل ، ونعطي ...) .**

عقب موت حفيدها الحبيب ألقت جورج صاند بنفسها في تيار الحياة الباريسية الصاخبة فتابعت المسرحيات المعروضة، والتقت بالخلّص من أصدقائها ، وعندما كانت تشعر بالتعب كانت تعتزل في « بليزو » مع مانصو وتتلهى بلعب الورق . اما الكتابة فلم تكن قـــادرة في تلك الفترة الا على متابعة تدوين مذكراتها الشخصية . وكانت ثالثـــة الأثافي اشتداد المرض على مانصو الذي لازمته الحمى وأخذ يبصق الدم كاما كانت تعاوده نوبات السعال اللعين . كان مانصو أخلص رجل عرفته ، وأصدق إنسان عاشرته ، بل الإنسان الوحيد الذي جعلها ترضى عن الجنس البشري . لقد أقلقها مرضه كثيراً ففكرت بكتابة رواية بالاشتراك معه أملا في ان يجد فيها السلوى وينسى أوجاعه، ويطرد الوساوس من ذهنه! طرحت الفكرة عليه فرحب بها ، وباشرا بكتابة رواية طويلة عنوانها » السعادة « ولكن جورج هي التي كانت تكتب

Twitter:@abdulllah1994

أكثر فصولها . كرست نفسها للسهر على صحته فانقطعت عن المجتمع وهي في أشد حالات التشاؤم ليقينها بأن الردى سوف لن يوفره . تفانت في خدمته تفاني الراهبات فكانت تدلكه بيديها ، وتعطيه الادوية اللازمة ، وتعد له الطعام المغذي ، وتكتب مذكراتها كل مساء متجنبة إبداء خوفها عليه لان مانصو كان يطلع على ما كانت تكتب ليلاً في في صبيحة اليوم التالي . وفي ٣٠ أيار ١٨٦٥ عقّب مانصو على ماجاء في مذكرتها قائلا : (« السيدة العزيزة » منهمكة في إعداد روايتنا ... مشاهدتي في هذه الحالة الصحية المتردية تحزنها كثيراً مع انها تحاول إخفاء حزنها عني وهذا ما يجعلني مضطراً لتكلّف المرح بعد زوال نوبات السعال والحمى عني) .

إن من يقرأ مذكرات جورج صاند في شهري تموز وآب من ذلك العام يقف على حقيقة معاناتها وقدرتها على التموية عن المريض المحكوم عليه بالموت . أحضرت أمهر الاطباء لمعالجته ، ولكنه أسلم الروح في ٢١ من شهر آب ، فكتبت تقول : (مات مانصو هذا الصباح بعد ليلة هادئة في الظاهر ... فقد صحا قليلا بعد منتصفها وحدثني عن نوهان بصوت متقطع ، متهدّج ، ينذر بالموت ... كان يتصبب بالعرق

Twitter:@abdulllah1994

البادر فبدّلت ثيابه وأغطية السرير بينما كان غائباً عن الوعي. أرجو ان لا يكون قد تألم كثيراً ... أغمضت عينيه في الصباح الباكر بعد ان انقطعت أنفاسه ووضعت الزهور الى جانبه. لله ما أجمله! كان يبدو فتى صغيراً في غاية الصفاء والوداعة. يا الهي! أرى انك قضيت بألا أسهر عليه بعد اليوم ... جلست إلى جانبه دونما فزع إذ لا شيء تغيّر فيه الا اللون، لن اسمع انفاسه بعد الآن، ولسوف اقضي الليلة القادمة وحدي! الوحدة قدري في الحاضر وفي المستقبل والى الابد! ...) [1]

وكتبت الى ابنها موريس في اليوم ذاته تقول:

(انتهت الآم صديقنا المسكين. غلبه النوم في منتصف الليل فكان آخر رقاد له على الارض. أشعر بانني محطمة كلياً ولكن دموعي محبوسة حتى الآن. كونوا على ثقة بانني لن أمرض إذ لا أريد ان أمرض، انما أرغب بالالتحاق بكم في أقرب فرصة بعد ان أفرغ من مراسم الدفن، وأنظم الأمور الخاصة بأمتعته وأمتعتي ...) [2].

ان أكثر ما يسترعي الانتباه في سلوك مانصو الذي عاش

(١ و ٢) ليليا او حياة جورج صاند – اندري موروا – ص – ٤٧٢ – عن دائرة المخطوطات في المكتبة الوطنية الفرنسية.

Twitter:@abdullah1994

عزباً ، وما يبرهن على إخلاصه العظيم لسيدة نوهان انه وهب في وصيته كل ما كان يملك إلى ابنها موريس اعترافاً بالجميل للأسرة التي رعته وكرمته ، وللسيدة العظيمة التي ائتمنته على أعز ما تملك ! والغريب في الأمر ان موريس حزن عليه حزناً شديداً قبل ان يعلم شيئاً عن الوصية ، وانه أتى إلى « بليزو » على جناح السرعة ليشارك في تشييعه ويواسي أمه . بكاه طويلاً وأحاط أمه بعناية فائقة ، ثم أصرَّ على اصطحابها إلى نوهان بعد أن أكد لها بان نوهان بدونها لا تساوي شيئاً ، وان زوجه تنتظر مولوداً جديداً ، وأقسم لها بانه لن يفارق نوهان بعد اليوم ابداً ! .

سوف نرى فيما يتبع كيف ان القدر كان رحيماً بجورج صاند التي كانت أماً رؤوماً لا لأولادها فحسب بل للذين أحبتهم كافةً . لقد وجدت في رجوع ابنها اليها عزاءً كبيراً وراحةً نفسية كانت في أمس الحاجة اليها فكتبت في مذكراتها تقول : (ان ابني هو روحي ، بل أعز علي منها ! سأعيش من أجله وأقاوم الحزن في سبيل إسعاده ومن يلوذ به ، ولسوف أظل مشغوفة بالقلوب النبيلة الشجاعة ، والنفوس الكبيرة الطيبة . اما أنت ... أنت يامن أحببتني كثيراً ، بل أكثر مما يمكن لإبن ان يحب أمه ، فكن

Twitter:@abdullah1994

مطمئناً في مثواك لان نصيبك من حبي سيبقى عظيماً ؛ وذكراك في قلبي ستبقى حيةً ما دام يخفق بالحياة)[1].

أقامت جورج صاند بضعة أسابيع في نوهان بذلت خلالها قصارى جهدها للتغلب على حزنها العميق . استأنست بصحبة ابنها و « لينا » ، تلك الكنة المخلصة والرقيقة ، واستأنفت العمل في كتابة رواية « السعادة » التي أصبحت بعدئذ روايتين : « السيد سيلفستر — Monsieur Sylvestre » و « الحب الاخـــير — Le Dernier Amour » ثم عادت إلى بيتها الصغير في « بليزو » لقربه من باريس كي تتابع نشاط الموسم المسرحي والأدبي في مطلع الخريف .

لا ريب في أن الأديب والفنان يترجمان في أعمالهما أعمق الأحاسيس التي يكابدانها ، ولا نخطىء عندما نقول إن الأديبة جورج صاند كانت أصـــدق الكاتبات في تصوير مشاعرها والتعبير عن أفراحها وأحزانها . ولكن الفضيلة ليست بالاسترسال مع الحزن إنما هي في التغلب عليـــه ، والنهوض بالعزيمة مجدداً لمتابعة الكفاح بشجاعة وإيمان .

---

(١) ليليا أو حياة جورج صاند — أندري موروا — ص : ٤٧٣ .

Twitter:@abdullah1994

ولقد أبت هذه السيدة العظيمة ان تقدم نفسها قرباناً للحزن لانها كانت تعي خطر المغالات بالتفجع ، وتدرك ناموس الكون حيث كل شيء سائر إلى زوال . ففي الرواية الاخيرة التي أشرنا اليها كتبت تقول في انتقاد أم ثكلى أسرفت في الحزن : **(انها تقضي الساعات الطوال كل يوم جالسة أمام قبر ابنها لا لتصلي على روحه ، أو لتفكر في خلود الأرواح ، بل لتمعن في تأمل تلك الزاوية من الأرض حيث لا يوجد سوى الهيكل الفاني الذي يحتوي الجوهر الذي لا يفنى ... لكم تزيد مثل هذه الزيارات للقبور من حدة التوجع ! إنها تغتال عزائم النفس ، وتخنق فيها نداء الواجب)** [1].

(١) ليليا أو حياة جورج صاند – أندري موروا – ص : ٤٧٣ .

Twitter:@abdulllah1994

حبان جديدان:
"غوستاف فلوبير" و"أورور الرابعة"

من « بليزو » ، ركن عزلتهـا الذي كانت تجترّ فيه ذكريات الماضي وتستنبط الحكمة من الوجود ، كتبت جورج صاند إلى صديقها الكبير فلوبير في ٢٢ تشرين الثاني ١٨٦٥ تقول : (ها أنا وحيدة في بيتي الصغير لا أخفي عنك بانني حزينة في هذه الوحدة المطلقة التي لم تكن يوماً مطلقة بفضل رفيق وأنيس وصديق أصبح اليوم في عداد الاموات بعد انطفاء شعلته ، غير انني اشعر بانه ما زال مقيماً معي . لا أحسبه تعيساً في موطنه الجديد، ولكن يخيل إلي ان ظله الذي يحوم حول هذا المكان يتذمر لاستحالة تمكنه من التحدث معي . الحزن ياصديقي ليس مضراً بالانسان ، فهو على عكس ما نظن مفيد بل ضروري لانه يمنعنا من أن نقسو وأن نجف ! ! وانت مـاذا تفعل في هذه الساعة ؟ لا ريب في انك تعمل بجد ونشاط ، وحدك ايضاً ، لان السيدة والدتك موجودة في مدينة « روان » .

Twitter:@abdulllah1994

هل تفكر أحياناً بالشاعر الجوال الذي ما برحت أغانيه تصدح من ساعة البهو في النزل القديم ، وتمجّد الحب الكامل كلما أعلنت الوقت ؟ أظن انك تذكره بوضوح ، واذا لم تكن من أنصار العفة ياسيدي فهذا شأنك وحدك،... اما أنا فاقول بان للعفة فضائلها ... وعلى هذا أقبّلك من أعماق القلب وأستودعك الله لأنصرف الى محاورة أناس يتحابون على الطريقة القديمة . لست مضطراً لمراسلتي حين لا تشعر بحاجة اليها اذ لا يمكن لصداقة حقيقية ان تعيش وتنمو الا في رحاب الحرية المطلقة . لسوف نلتقي في الأسبوع المقبل أولا في باريس ، ثم في « بليزو » ، وبعدها في نوهان) [1] .

من يتابع حياة جورج صاند يلحظ أن إيمانها قد ازداد في تلك المرحلة من عمرها ، وانها أخذت تهتم بازدهار العلم وتطور المجتمع وآثارهما في عالم الغد. أضحى همها الأكبر ، ككل مفكر وأديب يبلغ سن الشيخوخة ، الإحاطة بكل ما يجري حولها وخارج حدود بلادها لاستجلاء صورة واضحة عن المستقبل الذي ينتظر الأجيال الصاعدة . أعربت عن قلقها على مستقبل العالم والإنسانية،وكانت لها نبوءات

(١) جيورج صاند – مراسلات – الجزء الخامس – ص : ٩٩ – ١٠١ .

Twitter:@abdulllah1994

صحيحه فكتبت تقول في مذكراتها : (« بليزو » في ٢٥ أيار ١٨٦٦ : ان عصرنا الحاضر عاجز عن إثبات حقائق كثيرة غير أنني آمل أن يتمكن الغد من جلائها . لنؤمن بالتقدم وبالله منذ الآن إيماناً صلباً لأن مشاعرنا تدعونا إلى ذلك . الإيمان حماسة ، حالة من السمو الفكري ينبغي أن نحتفظ بها كما نحتفظ بكنز ثمين ، وأن لا نهدرها عندما نعبر سبل الحياة بكلام نلقيه على عواهنه ، أو عبارات فخمة ومغلوطة نتفوه بها ... لندع الزمن والعلم يشقان طريق المستقبل ، لنكن مؤمنين ونقول : لا أمل بدون إيمان ، ولنتضامن في إطار هذا المبدأ فالإحسان لا يصدر إلا عن قلب يرفل بالأمل والإيمان ، كما أننا لا نحصل على الحرية والمساواة إلا بتحقيق الإخاء) .

الروايتان اللتان انبثقتا عن مشروع رواية « السعادة » عكستا للقراء والباحثين تطور أفكـــار الكاتبة ومشاعرها في شيخوختها . عزفت عن كتابة القصص العاطفية التي امتاز بها إنتاجها الرومنطيقي في الماضي وتحولت إلى معالجة قضايا العصر والفكر في « السيد سلفستر » التي تناولها النقاد بالتقريظ بعد صدورها عـــام ١٨٦٦ . نجد في هذه الرواية حواراً مستفيضاً بين جورج صاند ونفسها عبر

Twitter:@abdulllah1994

محاورة بين بطليهـــا : « السيد سلفستر – Mr. Sylvestre »
و « بير صوريـــد – Pierre Sorède » فالأول كان رجلاً ساخطاً على المجتمع ، تنسك في آخر حياته النشيطة لأنه يئس من إصلاح الانظمة والناس ، وكان الثاني رجلاً في مستهل الشباب يرفض انهزامية صاحبه وارتيابه بصلاح الأفراد ، وقدرتهم على بناء صرح أفضل للحياة ، ويدعم نظريته المتفائلة بحجج قوية من وحي المنطق الذي لا يجيز إطلاق الاحكام العامة على الناس من خلال إخفاق زيد أو عمرو منهم في تحقيق العدالة ... كما انه يطرح على محاوره أسئلة مجردة اذ يقول له : (لماذا تفترض يا سيدي ان بوسعك ، او بوسع أحد ما ، ان يفرض على الشعب قوانين مثالية ؟ وكيف يمكن لنا ان ننقل الجنـــة التي نحن موعودون بها في الحياة الآخرة الى هذه الارض المشحونة بالمتاعب والمعارك على مختلف أنواعها ، والتي قُدّر علينا ان نجري فيها تجارب متواصلة بحثـــاً عن الأفضل ، والأعـــدل ، والأسمى ؟ انك تعتنق مذهب الإرهاب حين تقول بعنـــاد : إمـــا الإخاء او الموت ؛ وهذا ما يذكرني بعقلية رجال محاكم التفتيش وعنادهم اذ كانوا لا يرون النجاة الا في حجر الكنيسة ! ونحن عندما نحوّل الايمان والفضيلة إلى قوانين نصبّها في مراسيم ننزع عن الايمان وعن الفضيلة خصائصهما

Twitter:@abdulllah1994

وجوهرهما . ينبغي ان نطلق للأفراد حرية التفكير والاختيار .
وان نوجههم لإدراك محاسن التضامن لكي يمارسوا هذا حتى
بأنفسهم عندما يحين الوقت الملائم) .

وفي رواية أخرى نشرتها جورج صاند بعد « السيد سلفستر
بعنوان : « فالفيدر Valvèdre » رسمت لوحة لعالم
جليل ،وأطنبت بذكر فضل العلماء على تقدم المجتمع الانساني .
وضرورة انطلاق مواهب الأفراد لتحقيق الازدهار والإبداع
فسايرت بذلك موجة النزوع إلى تشجيع التطور العلمي .
واحترام العلماء ، كما كان يفعل صديقها الفيلسوف « ارنست
رونان » . وهكذا نرى انها اهتمت بتأليف روايات من
نوع جديد تترجم عقائد عصرها المتجسدة في طبقة من
المفكرين والفلاسفة ، وتدعو الى الأخذ بالأفكار الجديدة
بغية إرساء قواعد مجتمع أفضل . لعل أكبر مزية اتصفت
بها جورج صاند في حياتها انها لم تكتب شيئاً الا وكانت
مؤمنة فيه وصادقة فضمنت بذلك النجاح لمؤلفاتها ، واحترام
زملائها وتقديرهم . أما إعجابهم بها فكان يزداد عاماً بعد
عام لأنها أثبتت للجميع في شيخوختها الجميلة انها امرأة نبيلة
في مواقفها وكاتبة منسجمة مع عصرها ومع نفسها . كان حبها
لوطنها أقوى من مودتها للامبراطور نابليون الثالث لذا لم

Twitter:@abdulllah1994

تتوان عن إظهار تشككها في قدرته على تثبيت دعائم الحرية السياسية والاقتصادية في وطنها على الرغم من تكريمه الشخصي لها في أكثر من مناسبة . فالمجاهرة بالحق واجب مقدس ، لا سيما بالقياس الى الكتاب الذين يتحملون تبعة أقوالهم وأعمالهم ، وهذا ما جرت عليه جورج صاند وكان سبباً رئيسياً من أسباب سعادتها ورضاها عن نفسها . اننا نجد توضيحاً لدوافع رضاها عن نفسها في الرسالة المهمة التي بعثت بها آنذاك لصديقها القديم الشاعر الشعبي شارل بونسي إذ قالت فيها : (**لا يمكن لإنسان أن يستمد السعادة إلا من نفسه ولكن عليه أن يهتدي إلى الطريقة الفضلى لبلوغها وهي تتلخص بأن يكون صادقاً ، شجاعاً ، محباً للعمل وللناس ، وأن يتحلى بإنكار الذات وبضمير حيّ قبل كل شيء . فالسعادة ليست خرافة ، هذا ما ثبت لي مؤخراً ، وإذا ما استعنا بالخبرة التي كسبناها في الحياة ، وتبصرنا بمعطياتها ، نستطيع أن نستخرج من ذواتنا أشياء كثيرة ، وأن نبرأ من كثير من الأمراض الصحية والنفسية بفضل الإرادة والصبر ... لنعش حياتنا التي وهبها لنا الله بلا جحود ولا عقوق**)[١] .

---

(١) مراسلات جورج صاند – الجزء الخامس – ص ١٠٦ .

Twitter:@abdulllah1994

كان للناقد الكبير « سانت بوف » ولنصائحه القديمة لها يوم كانت في سن الشباب أثر بعيد في تطور افكارها فأهدته روايتها : « السيد سلفستر » بهذه العبارات : (الى سانت بوف ، شعلة النور التي أضاءت حياتي) .

في كل مرة كانت تعود فيها جورج صاند الى نوهان كان القصر يضيق ، على رحبه ، بالزوار ، وكثيراً ما كان بعض الأصدقاء يقيمون فيه فترات طويلة مما دعا أبناء المنطقة لتسميته اذا ما توجهوا اليه ، أو سئلوا عنه : « بيت الله » ! لم يتغير شيء في القصر على مدى السنين إنما تغير رواده في الآونة الاخيرة اذ خلف الذين قضوا رهط جديد من المقربين ، وكانوا يجدون فيه المحبة ، والانس ، والكرم ، والرعاية ، فيلجأون اليه وكأنهم يؤمون بيوتهم الخاصة . غلبت النكتة على جورج صاند يوم أتى الرسام « لامبير — Lambert » الذي عرفته يوم كان شاباً صغيراً لقضاء أسبوع عندها . كان قد نال شهرة كبيرة ووساماً رفيعاً ، وجمع ثروة كبيرة ، فقالت له عشيّة وصوله : (لكم يسعدني أن أراك في أعلى مراتب الشهرة والمجد ! لقد فاقت ثروتك ثروتي ، وأصبحت ترتدي ثياباً أفخر من التي ألبسها ، وهذا ليس

Twitter:@abdulllah1994

بمستغرب ياصديقي لانك تدخل رحاب الحياة في حين أنني أتهيأ لمغادرتها ...)

التأم شمل الرواد القدامى بعودة الرحـــالة المشهور « ادمون بلوشو Edmond Plauchut » الذي كـــان على اتصال دائم بالسيدة صاند عبر المراسلة ، فأخبرها بأنه مدين لها بحياته لأنه تعرض للغرق في شواطىء أفريقيا قبل عامين فاسره البرتغاليون مشتبهين به ولكن زعيمهم أفرج عنه بعد ان اطلع على رسالة كان يحملها من جورج صاند ! وقد سرها ان تعلم بان شهرتها تجاوزت حدود فرنسا ، وان اسمها وخطها كانا بمثابة تميمة درأت عنه خطر الاعتقال والموت ! اما الأصدقاء الجدد فكان منهم « شارل ادمون Charles Edmond » رئيس مجـــلس ادارة جريـــدة « الزمن — Le Temps » و « هنري هاريس — Henry Harrisse » الثري الاميركي الذي كان يعيش في باريس ويخالط عليّة القوم فيها . وجدير بنا ان نشير إلى ان الروائي الكبير « غوستاف فلوبير » أصبح الرفيق الدائم لها بعد موت « مانصو » اذ توثقت عرى الصداقة بينه وبينها بشكل جعل كل واحد منهما لا يأنس الا بالآخر . لقد أضفت عليها صداقته سعادة كبيرة لشد ما أحبته وارتاحت اليه، وكثيراً ما

Twitter:@abdulllah1994

كانت تداعبه في الحديث وتدعوه : « يا شاعري الجوال»
كان « فلوبير » يصغرها بخمسة عشر عاماً ويحمل لها من المحبة والتقدير الشيء الكثير ، فعندما مات « مانصو » أتى بنفسه لتعزيتها في « بليزو » وأقام معها بضعة ايام ثم حملها على مغادرة ذلك المكان المثير للذكريات المؤلمة إلى باريس . ويوم دعاها الى مقره الدائم في « كرواسي — Croisset » القريب من مدينة « روان— Rouen » في صيف عام ١٨٦٦ لبّت دعوته بسرعة ووجدته بانتظارها في محطة القطار . وقد وصفت لنا في مذكراتها مقدار اهتمامه بكل صغيرة وكبيرة لإضفاء البهجة على قلبها إبان تلك الزيارة .
كان « فلوبير » عزباً يقيم مع أمه في بيت جميل مبني في وسط مزرعة كبيرة فاكرمها كثيراً وصحبها لزيارة معالم مدينة « روان » ، وللتنزه في ضواحي « كراوسى » حيث تبادلا أحاديث ممتعة. بعد انتهاء تلك الزيارة كتبت اليه تقول:
(لقد تأثرت كثيراً بما أحطتني به من عناية وتكريم انت والسيدة والدتك في صومعتك الرائعة . كنت أخشى ان يكون وجود مخلوق تائه مثلي موضع إزعاج ولكنني لقيت عندك ما بدّد أوهامي ، وشعرت بأنني عضو من اعضاء الأسرة رجع اليها بعد غياب طويل فاستُقبل بالترحيب، وأُحيط بالودّ، وهذا ما يدلّ على كبر قلبك وجودك وعطفك

Twitter:@abdulllah1994

العظيم . أرجو ياصديقي ان تبلّغ تحياتي للسيدة الوالدة، والسيدات اللواتي سعدت بالتعرف اليهن في بيتك ، أما أنت فإنك إنسان نبيل أحبه وأجله ولا أملّ مجلسه) .

علّق أندري موروا على هذه الرسالة قائلا بانها نُشرت في الجزء الخامس من مراسلات جورج صاند بتاريخ مغلوط هو العاشر من شهر آب عام ١٨٦٦ ذلك لأنها زارت فاوبير في « كرواسي » في ٢٨ آب من الصيف ذاته. وقد تبيّن له بعد التحقيق في مذكراتها التي دونتها من عام ١٨٥٢ حتى عام ١٨٧٦ انها قامت بزيارتين له كانت الأولى في ٢٨ / ١٨٦٦/٨ ، والثانية في ٣ / ١١ / ١٨٦٦ ، وعزا هذا الخطأ إلى إهمال جورج صاند تسجيل تواريخ أكثر رسائلها ، ولجوء ابنها موريس إلى وضعها يوم سلّم للناشر « كالمان ليفي – Calman-Lévy » تلك الرسائل عام عام ١٨٨٢ حيث صدرت في ستة أجزاء.

أما زيارتها الثانية للزميل الصديق الذي كان يدعوها: « أستاذي العزيز » فقد استغرقت اسبوعاً كان ممتعاً اذ روت لنا جورج صاند برنامجها والمسامرات التي جرت بينها وبين « فلوبير » في هدأة الليل ، والتي كانت تمتد أحياناً إلى ساعات الفجر . ومنذ ذلك التاريخ استمرت المراسلة

Twitter:@abdulllah1994

بينهما لتبادل الرأي ، والإعراب عن المشاعر الخاصة .
فأولى المؤرخون اهتماماً خاصاً لتلك الرسائل مستغربين ولادة تلك الصداقة الحميمة بين كاتبين متناقضيين . لقد اهتموا بها لأنها زوّدت الأدب الفرنسي بصفحات رائعة،واستغربوها لان الفارق بين مزاج « فلوبير » ومزاج جورج صاند كان كبيراً إذ عُرف عن « فلوبير » انه رجل هادىء لا يؤثر شيئاً على عيشه المنظّم في بيته وبين كتبه ، وعلى وحدته ، في حين ان جورج اشتهرت بمزاجها البوهيمي ، وشغفها بمعاشرة الناس والتنقل . ولكن استغراب هؤلاء المؤرخين لم يكن في محله لان من يسبر غور شخصية « فلوبير » الذي أضناه الحب في حياته،وكتب عنه أروع الروايات يرى أن ترحيبه بصداقة جورج صاند كان شيئاً طبيعياً لأنها كانت تمثل نقيضه في كل شيء (وكثيراً ما تتجاذب الأضداد) ولأنها كانت لذيذة المعشّر ، تقدّس حرية الصديق ، وتعرف حدودها معه . فارتاح اليها وفتح قلبه لها مع انه اشتهر بالإنطواء على نفسه ، وارتاحت اليه جورج كثيراً فكان كل واحد منهما يبتهج بإطلالة صديقه عليه . يضاف الى ما تقدم ان الفارق في السن بينهما كان عاملاً مهماً في توطيد تلك الصداقة لأنه شجع فلوبير على مصارحتها في الحديث ، وممازحتها بحرية ، وإطلاق نفسه معها على

Twitter:@abdulllah1994

سجيتها . إن أمتن الصداقات التي تنشأ بين رجل وامرأة هي التي تقوم على أساس الاستلطاف والانسجام عندما تتقدم بهما السن ، أي عندما ينحسر عن الذهن كل تفكير بالعواطف الجامحة والمطامع الشخصية . فعندما يتجاوز الرجل أو المرأة مرحلة البحث عن الشريك والرغبة في في الاستئثار به يتحرّر من كل تكلّف ، ويستمتع بصفاء العشرة الطيبة . فلا جورج صاند كانت تطمع باستمالة « فلوبير » لإرضاء شهوة بنفسها أو غرور أنثوي مستبدّ بها بعد ان تجاوزت الرابعة والستين من العمر ، ولا « فلوبير » كان ينظر اليها نظرته إلى سيدة من الجنس الآخر في سنّ ووضع اجتماعي يدعوانها لعقد الآمال على إيقاعه بحبّها ، أو ترجمة مشاعره نحوها على غير حقيقتها ...

قرأت جورج على صديقها روايتها الجديدة « كاديو — Cadio » إبان إقامتها الثانية في صومعته فأُعجب بها كثيراً وناقشها بعض وجهات النظر وهو مأخوذ بقدرتها على الانتاج بسرعة فائقة لانه كان نقيضها في التأليف يكتب ببطء زائد، ويتروّى في صياغة عبارته إلى درجة الإسراف في التروّي. ولم لا يعترف لصديقته بالتفوق عليه في الانتـــاج الغزير ! ألم يكن صديقاً صدوقاً ، ومحباً يسعد بالجهر بإعجابه ،

Twitter:@abdulllah1994

ولا يتورّع عن إبداء بعض الملحوظات على آرائها ؟ من بعض رسائلها اليه نلحظ أيضاً انها لم تتوان هي أيضاً عن انتقاده اذ كتبت إليه تقول :(إني استغرب حقاً تحمّلك كل هذه المشقة في الكتابة. هل هذا يعود إلى تأنقك ؟ لا أحسب ... أما عن الاسلوب فاني لا أعطيه كل هذه الأهمية لأن الهواء يحرك أوتار قيثارتي العتيقة كما يحلو له ان يفعل فأُطلق له العنان، كما أن الانفعال الصادق الذي يدفعني إلى الكتابة هو الأهمّ. وهكذا تنطلق الألحان من حنجرة (الآخر) تارةً جيدة، وتارة رديئة، إلى ان يتوقف القلم بتوقف الهواء عن الحركة، فأنظر إلى ما كتبت مذهولةً ومتأكدةً من أنني لا شيء ... دع الهواء يعبث في أوتارك أيها الناسك الغالي لأنني ارى انك تكبّد نفسك مشاق تتجاوز حدّ المعقول، ودع (الآخر) يقوم بمهمته بحرية، وانزع من طريقه العقبات لكي يجري كل شيء على ما يُرام وبدون عناء ...)[1].

وفي رسالة أخرى حدثته عن خشيتها من ان تكون رواياتها بالية بسبب سهولة تدبيجها فأجابها يقول: (لا يا أستاذي المحبوب، ان افكارك تتدفّق بسرعة كما تتدفق الأنهار الكبيرة، أما أفكاري فإنها خيط رفيع من

---

(١) مراسلات جورج صاند – الجزء الخامس، ص ١٥٤.

لماء يتطلب مني أن أبذل جهوداً فنية كبيرة لأجعل منه شلالاً !) .

في تلك الأثناء كان فلوبير منكباً على تأليف روايته « التربية العاطفية » التي باشر بإعدادها منذ سنوات طويلة قبل ان ينشرها عام ١٨٦٦ في إثر خمس سنوات مع الدأب والتعب . معروف أنه نشأ في مناخ الرومنطقية ولكنه امتاز من معاصريه بتزويد رواياته الواقعية بدراسات مستفيضة عن أبطالها ، والبيئة التي نشأوا فيها ، وتكوينهم الفيزيولوجي ، فلقد اشتهر بصقل أسلوبه حتى أضحى سيد النثر الجميل في القرن التاسع عشر . كان طبيعياً ان يُطلع صديقته الكبيرة على مشاريعه الأدبية وأن يطرح عليها بعض الأسئلة قبل أن ينشر « التربية العاطفية » للاسترشاد برأيها في ثورة عام ١٨٤٨ التي خاضتها بشكل سافر . جعل فلوبير من ملابسات تلك الثورة منطلقاً لروايته الجديدة وإطاراً لها فجنحت جورج صاند إلى الظن بأنه سيقسو في الحكم على رفاقها رجال تلك الثورة وكتبت اليه تقول : (لقد أقلقتني عندما أشرت الى أنك ستحمّل رجال الثورة مسؤولية كل ما نجم عنها من أضرار ، هل هذا صحيح ؟ ألا يكفي ان يدفع الفرد ثمن خطيئته ؟ وهل يجوز أن نحمّلهم وِزر جميع

Twitter:@abdulllah1994

أخطائنا دفعةً واحدة ؟ كن رحيماً بهم أرجوك لأن أكثرهم تحلّوا بنفوس كبيرة ! هل تعتقد حقاً بأننا تعثّرنا في الوحل منذ عام ٤٨ فقط ؟ ألم نكن نتخبّط في الظلام قبل ذلك التاريخ ؟ أو لم يكن تعثرنا آنئـــذ ضرورياً للخروج من الظلمات إلى النور ؟ ...)[1] .

إلى جانب مثل هذه الخلافات في الآراء كان يجمع بين الكاتبين المرموقين تفاهم تام في أمور هامة ، وتوافق كلي في بعض النظريات : كلاهما كان مشغوفاً بالحب والفن والجمال ، وكلاهما كان يغذّي شعلته بزيت المثالية والخير والسموّ . كانا شاعرين جوالين يغنيان في عصر ضاعت في جلبته أصوات الغناء ومع ذلك نرى انهما طبعا ذلك العصر بطابع أناشيدهما الداعية إلى تقديس الفن وإضفاء الجمال عليه لان الجمال كان في نظرهما غاية الفن الأولى . لقد كتبت له جورج ذات يوم تقول : (**كنا يا عزيزي وما زلنا شباب هذا الجيل الثائرين والمجانين ، أرى أن الذين سيخلفوننا قد تعهدوا بأن يشيخوا بسرعة ، ويضجروا ويرتابوا في كل شيء ...**)[2] **فأجابها فلوبير قائلاً : (كم أنتِ**

---

(١) مراسلات – جورج صاند – الجزء الخامس – ص ١٤٥ .

(٢) مراسلات – جورج ساند – الجزء الخامس ص ١٦٤ .

Twitter:@abdullah1994

محققة في نبوءتك يا أستاذتي العزيزة ! آه كم أتمنى اللحاق بك إلى كوكب آخر لأن المال سيجعل من كوكبنا مكاناً غير قابل للسكنى في المستقبل القريب . سوف يتعذّر على الناس ان يعيشوا فيه دون ان يكرّسوا الجهد والوقت كل يوم للتفكير برؤوس أموالهم وبسبل مضاعفة ثرواتهم بأية وسيلة ... يا لها من حياة مرعبة !) [1] .

كان من أعذب رسائله اليها تلك التي بعث بها في أعقاب إقامتها الثانية عنده حيث قال : (لقد افتقدناك كثيراً يا صديقتي المحبوبة لانك أسرت قلوبنا جميعاً بسهولة ... قولي لي أرجوك ما هو الكوكب الذي بارك ولادتك وجعلك تستأثرين بكل هذه المزايا النادرة ! اني لا أستطيع تحديد نوع العاطفة التي أحملها لك ولكني أحس بنوع خاص من الحنو لم يحركه إنسان في أعماق قلبي حتى غاية اليوم .. كنا على أحسن ما يرام من التفاهم ، أليس كذلك ؟ هذا شيء رائع جداً ! ولكنني ما زلت أتساءل لماذا أحبك بهذا المقدار ! ألأنك رجل عظيم ، أم لانك شخصية أخاذة؟ لا أدري... ما كان أعذب مسامراتنا الليلية يا جورج ! لا أخفي عنك انني ردعت نفسي في إحدى اللحظات عن لثمك

(١) ليليا أو حياة جورج صاند – أندريموروا ، ص ٤٨٧ ..

Twitter:@abdulllah1994

كما يلثم الإنسان طفلاً سميناً رائعاً ...[1])

كانت مداعبتهما من أطرف ما تضمنته تلك المراسلة ، وكانت الصراحة التي هيمنت على علاقاتهما الودية السبب الجوهري في كشف اللثام عن شخصية كل واحد منهما الحقيقية . والأجمل من هذا أن فلوبير كان يتقبل النقد من صديقته ويجد لديها صدراً رحباً لتقبل ملاحظاته ونقده . كتبت اليه ذات يوم تقول : (ليس لك يا صديقي قدم دائمة الحركة مثل قدمي، ترحّب بالرحيل في كل آن .. انك تعيش متدثراً بثوب غرفة النوم ، العدو اللدود للحرية والنشاط ... [2]) وفي رسالة ثانية قالت له : (ليس « قدس الاقداس الأدبي » كما تسميه انت الا شيئاً ثانوياً في حياتي. اني أكتب لاكسب معيشتي واعترف لك باني كنت أوثر على الأدب إنساناً أحبه شرط الا يطغى حبي له على حبي لأولادي !) [3] .

اشتهر فلوبير بأنه كان يتمنّع عن كتابة سيرته عبر روايات ملتزمة بمذهب معين ، واشتهرت جورج صاند

---

(١) ليليا أو حياة جورج صاند – أندري موروا – ص : ٤٨٣ .
(٢) مراسلات – جورج صاند – الجزء الخامس – ص : ٢٢٩ .
(٣) مراسلات – جورج صاند – الجزء الخامس – ص : ٣٧١ .

Twitter:@abdulllah1994

بأنها كانت تستمد موضوعات رواياتها من تجاربها الشخصية ومغامراتها العاطفية ، فكتب اليها فلوبير يوماً يقول : (لا يحق للروائي أن يبدي رأيه في أي موضوع أو أي شيء في الوجود ، فهل أبدى الله رأيه في شيء ؟) وتلقى الجواب التالي في غضون أيام : (اعتقد بان من واجبات الفنان ، ولا سيما الروائي أن يعيش حياته بكل ثوانيها ، وان يترجمها بامانة ![1]) ويتضح لنا من هذه الرسائل أن جورج صاند كانت تجل فلوبير لدرجة جعلتها تتهيّب الخوض معه في بعض المواضيع شفهياً فكتبت اليه تقول : بدون حرج (... هذا عن تحركاتي ، أما أنت يا شاعري الجوال فإنك قابع في ديرك وحدك تعمل وتعمل ، ولا تغادره أبداً ... إنك إنسان غامض جداً مع انك وديع كالخروف . هممت أكثر من مرة بطرح بعض الأسئلة عليك لدى لقائنا الأخير ، ولكن احترامي العميق لك منعني من ذلك . أنا مخلوق لا يحسن التحدث إلا عن معاناته ، أما معاناة وتجارب إنسان كبير مثلك فان لها من القدسية ما يمنعني من التحدث عنها أو التعليق عليها . يدعي سانت بوف بانك ماجن متكتم مع أنه يحبك ويقدرك ، ولكنه ربما يكون قد حدّق بك بعيون مدنّسة . واني أعتقد بانه يحق للأديب أو الفنان

(١) مراسلات – جورج صاند – الجزء الخامس ، ص : ٢٥٣ .

Twitter:@abdulllah1994

ما لا يحق لغيره ، ولا استغرب نزوعه الى اختبار الملذات كلها ، أما أنا فثق بأنني جهلت منها الكثير في حياتي لأن الشجاعة . كانت تخونني [١] .)

ويوم قست جورج صاند في حكمها على « سانت بوف » لكونه أخذ يعاشر الكواعب بعد أن تقدم به العمر دافع عنه فلوبير وقال لها إنها تظلمه اذ لوتبصرت قليـــلاً بالطبيعة الإنسانية ، ولا سيما طبيعة الرجل ، لتفهمت حاجته إلى إرضاء شهواته . فأجابت صديقها تقول : (كلا يا عزيزي ، أنا لست كاثوليكية ولكني استهجن مثل هذه البشاعـــة ولا أجد لها مبرراً . ان هذا العجوز القبيح الذي يخدع الفتيات يخدش بعمله هذا الذوق السليم،ويُجرم بحق الحب والجمال . اني لا أرى في تهتكه حباً ولا رجولة إنما أرى استغلالاً لغضاريف ساذجة باسم الحب الرخيص،والمجون الذي لا يُغتفر ! إنه تآمر فاضح على الطبيعة المقدسة[٢] !).

حب التنقل في سنوات عمر جورج صاند الاخيرة حدا بها الى الاحتفاظ بأربعة مقرات مختلفـــة : قصر نوهان الذي كان أحب البيوت إليها ، وملجأ « غارغيليس » ،

---

(١) مراسلات – جورج صاند – الجزء الخامس – ص ١٣٥ .

(٢) مراسلات – جورج صاند – الجزء الخامس – ص : ١٨١ .

Twitter:@abdulllah1994

ودارة « بليزو » والشقة في باريس . ولكن كفة نوهان كانت الراجحة ، ولا سيما بعد ولادة الحفيدة الجديدة التي رزق بها ابنها موريس ولينا زوجه عام ١٨٦٦ وأسمياها « أورور » تيمناً باسم جورج الأصلي ، فأضحت أورور الرابعة في الأسرة . لم يتعارض اهتمام الكاتبة الكبير بنوهان مجدداً مع مشاغلها الكثيرة لانها كانت تجد وقتاً لكل شيء ، وتسهر على تنظيم كل شيء ، حتى ان الفوضى في حياتها أضحت منظمة ! كانت حريصةً على إشاعة المرح والسعادة من حولها ، وبقدر ما كانت تقدّر نعمة الشباب عند الآخرين كانت راضية عن شيخوختها التي وصفتها بـ : (السن السعيدة التي لا تُلزم المرأة بشيء ، اللهم إلا ان تكون صديقة للجميع ، وأماً وجدة .)

عندما بلغت أورور عامها الثاني باشرت الجدة السعيدة بتدريبها على النطق ، وقص الحكايات عليها لكي تتفتح مداركها وتتعلم الضحك والمرح . كانت تقول : **« المرح قاعدة أساسية من قواعد صحة الجسم والفكر والروح ، وإن من لا يعرف كيف يمرح يكون معتلاً ، ولا يستطيع أن ينجح في شيء . »** ولا ريب في أن استئثارها بقلوب الشباب والأطفال كان يعود إلى روحها المرحة ونفسها

Twitter:@abdulllah1994

الطيبة ، وميلها الفطري للمزاح مع أصدقائها ، وتفننها بإعداد المقالب لهم بين الحين والآخر . وبعد أن بلغت أورور عامها الثالث أنجب موريس ولينا بنتاً ثانية أسمياها: « غبريان صاند — Gabrielle Sand » ، ويلاحظ هنا أن ابنهـا استغنى عن كنيته الأصلية « دودوفان » اذ سجل بنتيه على اسم أمه المستعار الذي اشتهرت به والذي كان موضع فخره واعتزازه !

حظيت جورج صاند في تلك الفترة بصداقة أديبة ناشئة تدعى « جوليت آدم — Juliette Adam » جاءت لزيارتها في باريس بعد أن سمعت عنها أقوالاً متناقضة وقدحاً وذماً من « الكونتسة داغول » ، خليلة الموسيقار « ليست » ، والصديقة القديمة التي ناصبتها العداء بدافع الغيرة والحقد ، كما رأينا في السابق . كانت « الكونتسة داغول » تجمع في بيتها في باريس بعض الكتاب والفنانين ، وتنشر مقالات تحت اسم « دانيل ستيرن — Daniel Stern » المستعار حباً بالشهرة ورغبةً في تقليد جورج صاند . ومنذ ان تعرفت بالشابة الجميلة الموهوبة جوليت آدم عام ١٨٦٠ أحاطتها برعاية خاصة ، ونهتها عن مقابلة جورج قائلةً لها إنها مخلوق شاذ ، أناني ، مجرّد من كل فضيلة ... غير أن

Twitter:@abdulllah1994

جوليت كانت معجبة بالكتابة صاند وبشخصيتهـــا إعجاباً بالغاً فتريثت في زيارتها إلى أن سنحت الفرصة عام ١٨٦٨ بعد مشادة جرت بينها وبين الكونتسة أدت إلى قطع الصلة بينهما . كانت جوليت متزوجة من رجل لا تحبه ، وأما لبنت صغيرة يوم توفي زوجها فرغبت في الزواج مجدداً من صحفي وسياسي شاب يدعى « ادمون آدم — Edmond Adam » ، غير أن « الكونتسة داغول » فرضت سيطرتها عليها ، وأخذت تقنعها بالعدول عن الزواج مدعيةً بان إقدام المرأة الذكية على الزواج حماقة لا تغتفر ... ويوم عقدت جوليت خطبتها على ادمون آدم غضبت الكونتيسة داغول عليها غضباً جنونياً ، وقذفتها بابشع الشتائم دون أن يكون لها أي حق في التدخل بأمورها الشخصية .

كانت المقابلة الأولى التي جرت بين جوليت وجورج مؤثرة للغاية اذ ما أن دخلت الأديبة الشابة على جورج صاند حتى رمت نفسها بين زراعيها تقبلها وتروي لها قصتها ! لقد وجدت فيها أماً حقيقية وموجهةً ممتازة فأحبتهـــا وازدادت إعجاباً بها ، كما شاطرها زوجها هذه المحبة وهذا الإعجاب مما جعلهما من أقرب أصدقاء الكاتبة الكبيرة ، وآثرهم لديها . قضى العروسان الشتاء في دارة كبيرة كانا

Twitter:@abdulllah1994

يملكانها على الشاطىء الجنوبي ودعَوا جورج صاند بإصرار لقضاء فترة استجمام عندهما مع من تحب فلبت الدعوة مع ابنها موريس وصديقيه : الكاتب « ماكسيم بلانت — Maxime Plante » والفنان الرحالة : « ادمون بلوشو » اللذين كانا من ضمن حاشيتها . وقد حفظت جورج صاند أطيب الذكرى لإقامتها في مشتى صديقيها الشابين فدعتهما لقضاء شهر من صيف عام ١٨٦٨ في نوهان حيث التقيا بمشاهير العصر أمثال « غوستاف فلوبير » و « الكسندر دوماس الابن » و « تيوفيل غوتيه » و « إيفان تورغينيف — Ivan Tourgueniev » والمغنية الشهيرة « بولين فياردو — Pauline Viardot » أجمع الصحاب على أن نوهان في شاعريتها ، وجمال طبيعتها ، هي المكان الوحيد الذي تتألّق فيه شخصية جورج صاند وتتجلى على حقيقتها ، بل هي المكان الملائم لتلك الشخصية المتعددة المواهب . لقد كتب كل من « تيوفيل غوتيه » و جوليت آدم » ، و « غوستاف فلوبير » صفحات جميلة وصفوا فيها الجو الأدبي والفني الذي استمتعوا به ، وشاركوا في احيائه ، والنزهات الرائعة التي أعدتها لهم سيدة القصر مع ابنها وكنتها مما جعل إقامتهم عندها فترة سعيدة من فترات العمر . ونشرت « جوليت آدم » كتاباً قيماً بعنوان : « مشاعري

Twitter:@abdulllah1994

وآراؤنا قبل عام ١٨٧٠ » وصفت فيه استضافة جورج صاند تلك الشلة من الأصدقاء ، ونقلت الأحاديث التي دارت بينهم ، والمساجلات الطريفة التي كانت تمتد حتى ساعات الصباح الأولى . كما ذكرت بأن جورج كانت تعزف على البيانو في الصالون الازرق ألحاناً لموزارت وشوبان تمهيداً لدعوة المغنية العظيمة بولين فياردو للغناء . وبفضل كتاب « جوليت آدم » علمنا بأن فرقة مسرح الأديون الباريسية التي كانت تقوم بجولة فنية على الأرياف لبّت دعوة جورج صاند الى العشاء وعرضت رواية هزلية على مسرح القصر في حضور ضيوفها إبان ذلك الصيف التاريخي . ولعل أجمل ما جاء في كتاب « جوليت آدم » وصفها للمفاجأة التي أعدها موريس لأمه يوم عيد ميلادها حيث قالت : (صحونا على طلقات المدفع الذي أحضره موريس خصيصاً لتكريم أمه العظيمة في عيد ميلادها الرابع والستين فتحلقنا حول مائدة مزينة بالورد ، ثم سرحنا في الحديقة فاستحمت جورج معنا في مياه النهر الصغير الذي يجتاز المزرعة . وبعد القيلولة تناولنا الشاي والمرطبات على أنغام الموسيقى ، وقدمنا لها الهدايا كل واحد بدوره ، في جو يفيض بالانس والمرح . اما في الليل فقد ارتدينا ثياب السهرة استعداداً لحضور مسرحية قدمتها لنا فرقة الدمى بعنوان « قطاع الطرق

Twitter:@abdulllah1994

في جبال اسبانيا » بالاشتراك مع موريس الذي قضى عشرين يوماً في تدريب الفرقة المحلية عليها لتسلية أمه الغالية وضيوفها العظام ! أذكر اننا التزمنا بالبروتوكول الذي وضعه موريس فأخذ كل منا المقعد الذي أُعِدّ له في قاعة منوّرة أجمل تنوير ، في حين ان جورج احتلت مع فلوبير ودوماس وغوتيه وتورغينيف وفياردو مقاعد الصف الأول . اشتركت « لينا » في التمثيل فكانت ممثلة ماهرة ، كسائر الممثلين الذين كان التحدث إليهم مسموحاً إبان العرض شرط ان يكون منسجماً مع موضوع المسرحية ، وان يكون غزلياً وهزلياً ... وأذكر ايضاً أن اختياري وقع على عروس من عرائس الدمى يُدعى : « ديك الخشب » لانه لم يكن قد أحب أحداً ... فبحت له بعواطفي واذا به يستجيب بفرح وبأعذب الكلام ، فصاحت لينا تقول : (أرى انكَ أُغرمت بهذه السيدة ، مع أنك كنت وفياً لاسمك حتى الآن ايها الديك الخشبي ... !) فأجابها بصوت مرتعد : (وما حيلتي اذا كانت جوليت نجحت في تحريك مشاعري وفي دفع الدم في عروقي ؟ ...) فاحتج زوجي قائلاً : (لم يكن ينقصنا إلا هذا في آخر الليل ! ...) عندئذ تعالت رنات الضحك في القاعة وكانت السيدة صاند متهللة الأسارير ، سعيدة بأصدقائها وبنجاح التمثيلية بفضل

Twitter:@abdulllah1994

جهود ابنها وكنتها ، والفرقة المؤلفة من أصدقاء ذلك البيت العريق في الفن[1] .)

أما عن السباحة في النهر الصغير فقد كتبت جورج لصديقها فلوبير بعد عودته إلى « كرواسيه » تقول : (اشتدّ الحر بعد سفرك يا عزيزي الغالي ولم أعد اغادر النهر في ساعات الظهيرة . إني أعشق مياهه العذبة الباردة ، وظلال الاشجار النابتة على جوانبه والتي أسترد بفضلها قواي عقب الساعات الطويلة التي أقضيها وجهاً لوجه مع الريشة والمحبرة[2] !) من هذا الكلام نلحظ أن جورج صاند ظلت نشيطـــة تريض وتتابع الكتابة كسابق عهدها ، وقد أكدت بنفسها هذا القول في إحدى رسائلها : (أصبحت الكتابة عادة مستبدة فأدمنت عليها وبت انظر إلى هذه الظاهرة وكأنها واجب عسكري لا مفر من النهوض به... يجب أن اسير باتجاه النار دون أن أفكر بالعاقبة فسيان عندي ان كنت سألاقي حتفي أو سأصاب بجروح ... اني اسير قدماً بعناد لا يضاهيه الا عناد أبناء منطقتي ، وبغباوة متناهية ... قـــد لا يكون ما أنتجه ممتازاً ولكن المغني الذي ينسحب من

---

(١) مشاعري وآراؤنا قبل عام ١٨٧٠ – جوليت آدم – ص ٢٦٩ – ٢٧٣ .
(٢) مراسلات – جورج صاند – الجزء الخامس – ص : ٢١٩ .

Twitter:@abdullah1994

خشبة المسرح ينغّم لنفسه ألحاناً تدور في رأسه ، لا فرق عنده اذا كانت جيدة او رديئة [1]) .

لقدْ ظلت جورج صاند تستقي موضوعات رواياتها من الحياة نفسها ولما كانت ابنتها صولانج نموذجاً للمرأة الفارغة المتعجرفة ، التي تتجسم فيها المتناقضات بشكل مذهل ، فقد صورتها في رواية نشرتها بعنوان : (الآنسة ميركم — Mlle Merquem » أدق تصوير ، وحللت شخصيتها وهي على مشارف الاربعين تحليلاً رائعاً ، غاصت فيه إلى أعماق الطبيعة الانثوية، ومفارقاتها ، ونوازعها. كتبت تلك الرواية وهي متربعة على مقعد وثير نصبته على شاطىء الأمان، تنظر إلى الأمواج الصاخبة المتكسرة على الصخور وإلى حماسة الشباب لإلقاء أنفسهم في خضمها مستغربة تحسّر الشيوخ على ركود تلك العواصف في حياتهم ... لقد وضّحت لنا هذه الفكرة في يومياتها الخاصة إذ قالت : **(أرى أن شقاء أكثر المعاصرين ناجم عن رغبتهم في استرداد الشباب ... ليتهم يدركون أن ما فاتهم لن يعود ، وأن البكاء على أطلال تدمر لا جدوى منه ولا طائل تحته ! كل واحد منا يعبر طريق**

---

(١) مراسلات — جورج صاند — الجزء الخامس — ص : ٢٧٧ — ٣٠٠ .

Twitter:@abdullah1994

الحياة عبور الماء الذي يترقرق ويسري متابعاً دربه إلى البحار ... أو لم يكفهم ما عانوا في طريقهم ؟ أو لم يتعبوا من الانفعالات ؟ أو لم يرضهم ما عكسوا على الدرب من أضواء جميلة ، وما ذاقوا من مشاعر الحب وأذاقوا ؟ لا شك في أن الديمومة تدعو إلى الملل ، وان تكرار التجارب يدعو إلى شيء مفزع ، وأننا نشيخ وحدنا سواء أكنا حزانى أم فرحين . المهم أن نشيخ بهدوء ، والمؤكد هو أن الشعور بالسكينة يتزايد في أعماقنا بقدر ما تتقدم به السن [١]) .

وفي رسالة بعثت بها إلى كاتب ناشىء في ٥ / ٧ / ١٨٦٨ قالت : (بلغت اليوم ربيعي الرابع والستين من غير أن أشعر بوطأة السنين . ما زلت قادرة على المشي كالسابق ، وقادرة على العمل كالسابق . إنني أنام جيداً ، وليس ما أشكو منه سوى ضعف في البصر يضطرني إلى استعمال نظارات ، إنها قضية أرقام فقط ! آمل أن أفقد الرغبة في الحركة عندما أعجز عن الحركة ، وأستغرب خوف الناس من الشيخوخة في صباهم وكأنهم متأكدون من بلوغها ! ما من أحد يفكر بحجر القرميد المعرّض للسقوط في كل

---

(١) ليليا أو حياة جورج صاند – أندري موروا – ص ٥٠٠ – عن دائرة المخطوطات في المكتبة الوطنية الفرنسية .

Twitter:@abdulllah1994

لحظة ، ولكم نفرّط بالحياة وبالوقت ونحن في ربيعنا العشرين ! أرى أن أيام شتائنا ثمينة جداً ، انها التعويض عما فات ، فلندرك هذا لنقدرها ونعطيها الأهمية التي تستحقها !)[1].

أشادت جورج صاند بذكر الشيخوخة في آثارها ، ولعل أروع ما قالته عنها هو ما ورد في يومياتها الخاصة : **(هل تُرى سأعيش طويلاً ؟ هل هذه الشيخوخة المذهلة التي داهمتني بترفّق من غير أن تصطحب معها أية عاهة ، أو أي سأم ، الدليل الراهن على أنني سأعمّر كثيراً ؟ هل سأسقط مرةً واحدة ؟ وما الفائدة من هذه الأسئلة ما دام الانسان معرضاً للموت في كل ساعة ؟ تُرى هل ستبقى حياتي مجدية ؟ هذا سؤال معقول ، وأغلب الظن أنها ستبقى كذلك اذ أعتقد بأنني سأنفع الناس ما حييت ، بل وأكثر مما فعلت في السابق بفضل ما اكتسبت من حكمة ، لا أدري كيف ظفرت بها . إنني قادرة اليوم على تربية الأطفال بمهارة وصبر كنت أفتقدهما في شبابي ، وما زلت مؤمنة بالله ، وبخلود الروح ، وبأن العلم سيقضي**

---

(١) مراسلات – جورج صاند – الجزء الخامس – ص ٢٦٧ .

Twitter:@abdullah1994

على كثير من الأمراض إذا ما واكب تطوّره الحب، أجل الحب! أما الشعارات، والعبادات، فانها خزعبلات قديمة تجاوزتُها جميعاً، وتحرّرت منها. لكم يخطىء من يظن أن الشيخوخة منحدر ننزلق فيه حتمياً فتهبط مداركنا بهبوطه! انها عكس ذلك تماماً لأننا نتسلق في الشيخوخة هضبة رائعة فينضج تفكيرنا، وتصفو رؤانا، وتسكن روحنا. هذا لا يعني بأننا لا ندنو من نهاية العمر ولكن الفارق كبير بين أن ندنو منها ونحن نعتبرها قدَراً لا بد من بلوغه، وأن ندنو منها ونحن نراها مقلعاً للحجارة سنرتطم به رغماً عن إرادتنا ...)

عندما مات الناقد الكبير «سانت بوف» تلقت جورج صاند رسالة محزنة من صديقها «فلوبير» جاء فيها: (كرواسية ١٤/١٠/١٨٦٩ - شوقي إليك كبير، وحزني على سانت بوف لا يقل عنه. سنلتقي غداً في مأتمه. أواه! كم تضاءل عدد أفراد شلتنا! وما أسرع ما يقضون، الواحد تلو الآخر، وكأنهم ضحايا كارثة بحرية لم يسلم منها الا النزر اليسير ...)

---

(١) يوميات خاصة - جورج صاند - ص: ٢٣١ - ٢٣٢.

Twitter:@abdullah1994

حَربُ عَام ١٨٧٠ وَالسَّنوات الأخيرة

استقبلت جورج صاند عام ١٨٧٠ بتفاؤل ، وروح عالية ، وهمة شماء يعجز عن التحلي بمثلها الشبان . كانت ترقب من بعيد تصرفات زوجها القديم الذي كان يقيم في مزرعة « غيوري – Guillery » فبلغها أنه عازم على تسجيلها لابنته غير الشرعية التي كانت تعيش في كنفه مع أمها ... أعلمت ولديها موريس وصولانج بالأمر فأقاما عليه دعوى جزائية مطالبين بتوضيح وصية جدتهما البارونة « دودوفان » وتثبيتها ... أحزنت هذه الاجراءات القانونية كازمير كثيراً ، وأدرك ان زوجته السابقة جورج كانت وراء تحريك الدعوى ، وتحريض ولديه ، وأدرك في الوقت ذاته انه خاسر لا محالة اذا ما حاول إقامة دعوى متقابلة ، فقبل بالتفاوض مع محامي موريس وصولانج الذي اقترح بيع « غيوري » ، وتوزيع ثمنها على ولديه وعليه طبقاً لنص الوصية . كثيرون من أصدقاء جورج

Twitter:@abdulllah1994

صاند لاموها على ما فعلت ولكنها أقدمت على الأمر لحماية مصالح ولديها بوصفها مسؤولة عن رعاية حقوقهما وإرثهما. كان لها ما أرادت وقُضي على كازمير أن ينتقل إلى قرية مجاورة لـ« غيوري» حيث أقام فيها مقهوراً مع خليلته وابنته غير الشرعية إلى أن وافته المنية في عام ١٨٧١. كان قد روي عن كازمير انه أجاب على سؤال وُجّه اليه عشية لقائه بجورج صاند يوم مات حفيدهما الصغير « مارك انطوان » يتعلق برأيه فيها بعد غيابها الطويل عنه فقال : (يا الله ! لقد أبيت أن أدعوها « أورور » [1] باسمها لأني لم أر فيها سوى شمس على وشك الغروب ...) وليس بمستغرب ان يكون الدكتور « سيلسيس — Selsis » الذي طرح السؤال وسمع الجواب الحاقد قد رواه للناس فبلغ مسامع جورج صاند، ودفعها إلى تحريض ولديها على أبيهما للثأر منه بعد أن طعن كبرياءها وكرامتها بكلامه الجارح.

شهدت فرنسا صيفاً محرقاً عام ١٨٧٠ لم يسبق له مثيل في تاريخها ، وبلغت درجة الحرارة في نوهان خمساً وأربعين درجة في الظل ، فالتهم الحر الشديد الاخضر

---

(١) « أرورو » اسم علم فرنسي معناه : الفجر .

Twitter:@abdulllah1994

واليابس ، وشبّت الحرائق في كل مكان، كما شحّت المياه، وانقرضت الثمار .فكتبت جورج صاند تقول : (لم أر في حياتي صيفاً كئيباً كهذا الصيف وقد طفح الكيل بإعلان الحرب على بروسيا وبحصار باريس !) كانت الحرب التي خاضها الامبراطور نابوليون الثالث مع بروسيا كارثة كبيرة لم يكن لها مـــبرر سوى نزقه وقصر نظره فدفعت فرنسا ثمنها غالياً بدماء أبنائها ، وبانتزاع العصب الحي منها إذ فقدت في إثرها أغنى مقاطعتين من مقاطعاتها وهما : « الألزاس l'Alsace » و «اللورين La Lorraine » . لقد كان اهتمامها بالأحداث الجارية كبيراً فشهد لها المؤرخون بوضوح الرؤية والحكم الصائب على الأمور إبان تلك الحرب . كتب اليها « ادمون بلوشو » يُعرب عن ابتهاجه وفرح الباريسيين بنشوب الحرب ظناً منه أنها ستدمّر عنجهية البروسيين ، فأجابته تقول : (إن مشاعرنا في المقاطعات مختلفة عن مشاعركم في باريس . إننا هنا واجمون ، مذعورون ، لا نرى في هذه الحرب سوى لعبة خطيرة يمارسها الامراء...[١]) وكتبت إلى فلوبير تقول : (أرى في هذه الحرب خيانة للوطن ، واستهتاراً بمقدراته ، كمـــا

---

(١) مرسلات – جورج صاند – الجزء السادس – ص : ٣

Twitter:@abdulllah1994

أرى فيها درساً بليغاً للشعوب التي ترضى بحكام مستبدين ، وتطلق لهم الصلاحيات [١] .) وكتبت إلى جوليت آدم تصف لها سخط الفلاحين على الامبراطور ، ووعيهم المدهش لتبعاتهم في اختيار من يمثلهم لأنهم أخذوا يعدون العدة لتدارك الأمر في الانتخابات المقبلة . وفي خاتمة الرسالة قالت لها : (يجب علينا أن نقلع من أرضنا جذور البروسيين والامبراطورية دفعة واحدة[٢] !)

وعندما أسر الالمان نابليون الثالث دوّنت في مذكرتها ما يلي : (نوهان ٤ ايلول عام ١٨٧٠ – وأخيراً تلقينا أنباء رسمية ! أنباء مفجعة ! ... ولكن العزاء الوحيد هو أسر الامبراطور . ما أفدح الخطب علينا وعلى جنودنا المساكين ! كم قتلوا منهم يا إلهي إذا كان عدد الذين استسلموا قد فاق اربعين ألفاً ؟ إنها نهاية الامبراطورية ولكنها جاءت في أحلك الظروف ! ...) وفي اليوم التالي دونت ما يلي : (أيقظني موريس ليعلمني بان الامبراطور تنحى عن الحكم ، وان الجمهورية أُعلنت في باريس بدون مقاومة ، إنه لحدث جسيم ، فريد في تاريخ الأمم . نسأل الله أن يحمي فرنسا التي برهنت على أنها جديرة بأن

---

(١) و (٢) – مراسلات – جورج صاند – الجزء السادس – ص : ٤ – ٥ – ١٣ .

Twitter:@abdulllah1994

تكون قدوة ، وأن تظل قبلة للأنظار [1] . كما بعثت الى صديقها المتهوّر « ادمون بلوشو » بالعبارة التالية فقط : (ومع ذلك ... عاشت الجمهورية !)

استند المؤرخون في حكمهم على حصافة رأي جورج صاند ، وتمجيدهم لوطنيتها وموقفها الثابت من الأحداث على ما جاء في رسائلها ومذكراتها التي حُفظت جميعاً ، فنُشر منها ما نُشر في أواخر القرن الماضي ، وصُنف منها ما تبقى في دائرة المخطوطات التابعة للمكتبة الوطنية في باريس . لقد دفعها هول الكارثة إلى الكتابة ليل نهار وزودها التألم لما كان يجري في وطنها بنشاط كبير ، فاسهمت في توعية الناس عبر مقالات سياسية واجتماعية مهمة أخذت تنشرها في مجلة العالمين » بعنوان : « مذكرات مسافر خلال الحرب » وقد صدرت تلك المقالات عام ١٨٧١ في كتاب يُعدّ من أجود ما كتبت عن عصرها وأزماته، وعن الحروب والصفات المميّزة للشعوب . لقد ضمنته وصفاً للألمان وتحليلاً دقيقاً لطباعهم وعقليتهم بعد أن شاهدتهم يجتاحون فرنسا منتصرين، وسمعت روايات عن سلوكهم

---

(١) ليليا أو حياة جورج صاند – أندري موروا – ص ٥٠٦ ، عن دائرة المخطوطات في المكتبة الوطنية الفرنسية .

Twitter:@abdulllah1994

فكتبت تقول : (إنهم يفدون علينا بقسوة وبرودة لا يشبههما شيء سوى العواصف الثلجية ! انهم شرسون في عنادهم ، متوحشون عند الحاجة ، مع انهم أرق أهل الارض في الحالات الطبيعية . اما في الحرب فانهم لا يفكرون إلا بالواجب الذي تمليه عليهم اذ لا مجال للتفكير في شيء آخر ! التأمل ، والشفقة ، وتأنيب الضمير مشاعر يعرفونها ولكنها تنتظر عودتهم إلى بيوتهم لكي تداهمهم . وهــذا ما يجعلهم آلات حربية تسير بنظام مذهل في الوحدات العسكرية والفرق ، بدون إحساس ، فتلقي الذعر في كل مكان [١] ...)

ولما انتشر وباء الجدري في مقاطعة « البيري » اضطرت إلى النزوح عن نوهان مؤقتاً مع أسرتها لإبعاد الحفيدتين « أورور » و غابرييل » عن خطر التقاطه . نقلت معها أوراقها الشخصية الى منطقة نهر « الكروز – La Creuse » حيث قضت حوالي شهرين ، وأخذت تناشد المسؤولين الجدد بالإسراع في عقد الهدنة لتحرير فرنسا وباريس من الغزاة ، وتجنّب المزيد من الخسائر فبلغها آنذاك ان

(١) مذكرات مسافر خلال الحرب – جورج صاند – ص : ١٥ .

Twitter:@abdulllah1994

الجمهوريين أطلقوا من باريس منطادين يحملان نواباً وخطباء ورسلاً إلى بعض المقاطعات وأنهم أسموا أحدهما « جورج صاند » والثاني « ارمـــان باربيس Armand Barbés » !

كانت جورج صاند ميالة للسلم وللتفاوض مع الألمان قبل أن تستشري الكارثة لأن احتمالات النصر في متابعة القتال كانت أضعف بكثير من احتمالات الهزيمة ... وقد نشرت في أحـــد فصول كتابهـــا عن الحرب كلمة جريئة جاء فيها : (كان الخطأ الفادح الذي ارتكبه المسؤولون نتيجة معادلة خاطئة : لقد حسبوا أن الشجاعة سلاح ماضٍ ، يوم كان التعقّل في محاكمة الأمور هو أمضى سلاح ... يا لتعاسة فرنسا ! ومع ذلك ينبغي أن تتفتّح الأبصار لإنقاذ ما تبقى منها ! ...[1])

وعندما تسلمت حكومة باريس زمام الأمر أخذت تحثّ الزعماء والثوار الجمهوريين ، وفي طليعتهم ليون « غامبيتا — Léon Gambetta » الذي كان يعـــارض الصلح ، على القبول بالهدنة والإسراع بالانتخابات . هاجمته بضراوة في مقالاتها المتتابعة على الرغم من نفوذه الذي كان يقوى، يوماً بعد يوم في مدينة « بوردو — Bordeaux » حيث أصبح

(١) مذكرات مسافر خلال الحرب — جورج صاند — ص ٤١٨ .

Twitter:@abdullah1994

زعيماً ورمزاً خطيراً للصمود . وإذا ما تابعنا مذكراتها نقرأ فيها ما يجلو لنا عمق الكارثة التي حلّت بفرنسا ، فقد كتبت تقول في آخر كانون الثاني عام ١٨٧١ : (وأخيراً تم التوقيع على الهدنة حمداً لله ! هدنة واحد وعشرين يوماً تُدعى خلالها الجمعيةالوطنية للاجتماع في«بوردو»ويحضرها مندوب عن حكومة باريس . يقولون إن « غامبيتا » ساخط لأنه لم يتمكن من ممارسة الديكتاتورية إلا على نفسه ... تُرى هل ستصل المؤن إلى باريس المحاصرة ؟ وهل سينجم االصلح عن إلقاء السلاح ؟ لقد أبلغنا الحاكم قبل قليل بأنه تلقى برقية تشير إلى استعداد « غامبيتا » للمقاومة ، الا يعني ذلك نشوب حرب أهلية ؟ أظن أنه يؤثر اندلاعها على التنازل عن السلطة !) وعندما جرت الانتخابات في الربيع وفاز في باريس زميلها القديم الاشتراكي الثائر « لويس بلان » ، وفي المقاطعات المؤرخ الكبير « أدولف تيير – Adolphe Thiers » بقيت جورج صاند مؤيدة لعقد الصلح مع العدو ، على الرغم من حزنها بسبب الظروف المؤلمة التي تواكبه ، فكتبت إلى « أدمون بلوشو » تقول مواسيةً (لا تحزن يا صديقي ، لا تدع الغم يغزو قلبك فقد قمتم بواجبكم جميعاً ، ولم يكن المصاب لوثة في حياة الشعوب ، في يوم

---

(٢) ليليا أو حياة جورج صاند – أندري موروا – ص ٥٠٩ ، نقلا عن وثائق المكتبة الوطنية الفرنسية .

Twitter:@abdullah1994

من الأيام ! كما أن فرنسا ليست غارقة في الوحل وإن تكن غارقة في الدم ... لا بد من عقد الصلح في الوقت الحاضر ، ومن الحصول عليه بأفضل الشروط إذ لا يجوز مطلقاً أن يسوقنا العناد إلى الحرب ، وأن يعمي الغضب أبصارنا حباً بالثأر للنكبات التي حلّت بنا [1] ...)

في غمرة تلك البلبلة في الأفكار أندلعت الفتنة في باريس ومزّقت الأحزاب والتضامن الشعبي قبل أن يحبطها « أدولف تيير » في حزيران حيث أصبح رئيساً قوياً للجمهورية الجديدة. لقد آذت تلك الفتنة جميع المواطنين المعتدلين، ولاسيما جورج صاند التي كانت تعلم أن العنف يجرّ العنف ، وأن قمع الفتن لا يصح إلا بالزجر ، والردع ، والقصاص . ونظراً لأنها لم تكن من أنصار العنف لم تكن راضيةً عما جرى في باريس، ولا عن أصدقائها الذين لجأوا إليه لفرض هيبةالحكم وبلوغ الاستقرار . يجد القارىء في مقالاتها ورسائلهـــا ومذكراتها سجلاً أميناً لتلك الأحداث ، وتصويراً لاستيائها من العديد من أصدقائها القدامى أمثال « الكسندر دوماس الإبن »، و « فيكتور هوغو» الذي عاد إلى باريس من منفاه وقد ألهبت روحه الحمـــاسة الوطنية ، وحتى « غوستاف

---

(١) مراسلات – جورج صاند – الجزء السادس – ص : ٧٣ .

Twitter:@abdullah1994

فلوبير » الذي كتب يقول : (أرى أن على الرومنطقيين أن يقدموا حساباً عسيراً عن الإفراط في عواطفهم ... انهم يرأفون بالكلاب المصابة بداء الكلب ، ولا يرقّون للذين عضّتهم تلك الكلاب ...) فناشدته التعقل والاعتدال في رسالة وجهتها إليه قالت فيها : (لا ينبغي أن تمرض يا شاعري الجوال ، ولا يصحّ أن تتذمر ، بل يجب أن تقول إن فرنسا مجنونة ، والبشرية غبيّة ، وإننا حيوانات مشوّهة ، ولكن يجب أن نحب بعضنا بعضاً على الرغم من كل ذلك ، وأن نحب الإنسانية كلها ، وأصدقاءنا خاصةً ... ربما تكون نقمتك المزمنة حاجة ماسة لجهازك العضوي ، أما أنا فإن النقمة تقتلني ... قد تقول : « كيف يمكن أن نعيش هادئين والجنس البشري من حولنا غبيّ وفوضوي ؟ » فأجيب بأنني أقمع أهوائي ، وأرضى بالواقع قائلةً لنفسي انني قد لا أقلّ حماقة عنه ، ولا فوضوية ، وإن الوقت قد حان لكي أفكر بالتخلّص من عيوبي ، وبإصلاح أخطائي [1] ....)

ولكن « فلوبير » لم يقتنع ولم يعتدل ، ظلّ ساخطاً على أبناء وطنه وعلى غباوة الجماهير ، متشائماً لا يرى في الأفق سوى الغيوم الدكناء ... فامتنعت جورج عن نصحه ، ولكنها بقيت

---

(١) مراسلات – جورج صاند – الجزء السادس ، ص : ٢٩٦ .

Twitter:@abdullah1994

على تفاؤلها بالنجاة من المأزق، مشاطرةً زميلها الأديب «ارنست رونان» في رأيه إذ كان يقول إن الانتخابات العامة صمام أمان، وإن فرنسا ستنهض من كبوتها بسرعة بفضل همم ابنائها وتضامنهم. ويقول «أندري موروا» في كتابه عنها إن موقفها المعتدل من حرب السبعين بعيد الشبه بموقفها الثائر من فتنة عام ١٨٤٨، وإن وراء هذا التعقل عاملين: السن أولا، ثم الابتهاج بإعلان الجمهورية الثالثة، وقد ختم فصله في هذا الصدد بالعبارات التالية: (إن ما كتبته جورج صاند في حرب السبعين هو الحكمة بعينها ولو قام كل واحد منا بتنظيف عتبة داره لأصبح الشارع نظيفاً كله، ولكان إسهامه بالبناء أليق به من ملامة عصره وزمنه [١]).

ازدادت جورج شغفاً بحفيدتيها في أعقاب الحرب، وكرست أوقاتاً طويلة لتعليمهما القراءة والجغرافيا والتاريخ، وصبّت اهتمامها على «أورور الرابعة» بشكل خاص لأنها تميزت بذكاء حاد، وسرعة بديهة، وسهولة في التقاط الدروس، وروح مرحة مما جعلها الحفيدة المفضلة. لقد وصفتها فقالت: (إنها تفهم كل شيء بسرعة مدهشة، وكثيراً ما اضطر للعدو كي ألحق بها ... وبقدر ما يستهويها الاطلاع على كل جديد

(١) ايليا أو حياة جورج صاند – أندري موروا – ص: ٥١٣.

Twitter:@abdulllah1994

ينفرّها حفظ النصوص . أرى أن مشهد العالم يبدو بكامل روعته عندما نكتشفه عبر عيون الأطفال وحركاتهم . لله كم تبدو الحياة طيبة عندما نرى الذين نحبهم يزخرون بالحياة والحركة!) سعادتها بصحبة الحفيدتين الجميلتين أرجعتها إلى الطفولـة فنعمت بصحبتهما ، وغدت الرفيقة المثالية لهما في الرحلات والنزهات دون أن تتخلى عن دور المعلمة المثالية . لم يسبق أن حملها شيء في حياتها الطويلة على إهمال الكتابة ، ولم يُقصِها إنسان عن الورق والحبر والخلوة بهما سوى هاتين الغزالتين . لقد استغنت عن كتابة الروايات برضاها ، وانصرفت إلى تدبيج الحكايات لهما ، ومشاركتهما في اكتشاف روائع الكون ، وتبجيلها بالأناشيد البسيطة الرائعة ! وكان بديهياً أن تهيم بهـا الفتاتان ، وأن تبادلاها حباً بحب ، وفرحاً بفرح . ومـع ذلك كله كانت تجـد الوقت الكافي لقراءة الأدبـاء الناشئين أمثال « اميل زولا — Emile Zola » و « ألفونس دودي — Alphonse Daudet » استجابـةً لطلـب صديقها فلوبير ، ورغبةً منها في التعرف إلى المواهب الجديدة ، وتقييمها بعد الاطلاع عليها . وعندما طلب إليها ناشرها الجديـد « شارل إدمون — Charles Edmond » ، الذي تعاقدت معه دون التخلي عن ناشرها القـديم « بولوز » ، أن توافيه بأعمال جديدة عكفت على التأليف ، وفي أقل من عامين

Twitter:@abdulllah1994

زودته بثلاث روايات كانت الأولى بعنوان : « ماريان شيفروز — Marianne Chévreuse » والثانية بعنوان : « الشقيقان — Les deux frères » والثالثة بعنوان : « فلاماندر وحاشيتها — Flamandre et sa suite » وكانت سعيدة برجوعها إلى التأليف وبما درّ عليها من مال لحاجتها إليه ، لا لتسديد نفقات الأسرة فحسب ، بل لمساعدة أصدقائها المحتاجين إلى المعونة . استقبل النقاد القدامى رواياتها الجديدة بشيء من الفتور فلم تعتب عليهم إذ وجدت تعويضاً عن تقصيرهم باهتمام كتاب الجيل الجديد بإنتاجها الأخير الذين أخذوا يقرظونه ويثنون عليه . دعا الأديب « أناطول فرانس — Anatole France » (الذي كان ناشئاً يومئذ) إلى تكريم عبقريتها ، وتمجيد الحب الذي يتمثل في شخصيتها بكامل سموه وسحره لأنها العاشقة الدائمة للحياة والناس والأشياء ، على حدّ تعبيره ! أما الأديب والفيلسوف « هيبوليت تين — Hippolyte Taine » فقد أبدى رأيه فيها عام ١٨٧٢ بقوله إن الفرنسيين ينتظرون منها الكثير ، وإنهم في حاجة إليها أكثر مما مضى لتقوم بدورها في توعيتهم وتوجيههم ، وترغيبهم بالتمسك بالايمان ، والتحلي بالأمل والعطاء . لقد بعث إليها بالرسالة المفتوحة التالية : (باريس في ٣٠ آذار ١٩٧٢ — نرجو يا سيدتي أن تبقي لنا ذخراً وقدوة

Twitter:@abdulllah1994

حسنة أعواماً مديدة ، أعطنا مزيــداً من الروايات الشعبية والمآثر الأدبية لأن المتألمين البائسين سيجدون فيها الإرشاد والعظة، ولأنها الدعوة إلى التفاؤل والشجاعة ينتظرها سائر القراء. إنهم لا يرغبون في قراءة أطروحات اجتماعية واخلاقية ، بل يريدون سماع أصوات نبيلة وصادقة كاصوات « المعلم فافيللا » و« فرنسوا اللقيط » و« الماركيز دي فيللومير » لكي يوقنوا بأن البطولة ما زالت موجودة في العالم ، وأن بوسع كل واحد منهم أن يرقى إلى بلوغها ، أو يتشبّه بأعلا مها ...)

عزّ على جورج كثيراً ألا يلقي « فلوبير » في حياته ما يستحق من تبجيل وتكريم ، وأن يُسرف في التشاؤم فكتبت إليه ترجوه أن يأتي إلى نوهان للترويح عن نفسه في جوهـــا الودي المرح ، وختمت دعوتها بقولها : (ماذا يهم يا صديقي إذا كان للواحد منا مئة ألف عدو ما دام محبوباً من شخصين أو ثلاثة طيبين !)

فاستجاب فلوبير للدعوة في ربيع ۱۸۷۳ والتقى عندها « بإيفان تورغينيف » الذي كان يُذهَل ويحمر خجلاً عندما كانت جورج تقول له : « أنت كاتب عظيم يا إيفان ، وفنان أصيل . » وهنالك ، في كنف سيدة نوهان المسنة التي كانت تلهب حماسة أصدقائها ، وتثير المرح الطفولي الكامن في قلوبهم

Twitter:@abdulllah1994

استمتع « فلوبير » بصحبة الزملاء الأصدقاء ، وبصوت المغنية « بولين فياردو » الذهبي الذي كان يصدح في الصالون الأزرق كل مساء ، ويغمر نفوس المدعوين بالنشوة . تمكنت جورج بمهارتها الفائقة من إقناع فلوبير بالمشاركة في حفلة مقنّعة أقامتها تكريماً لاصدقائها ، فارتدى ملابس فتاة أندلسية ، وأدى رقصة إسبانية أثارت الإعجاب والتعليقات المرحة ، وقد وصفت لنا ليالي السمر والمرح التي هيأتها لاصدقائها آنذاك في مذكرتها تقول : (١٧ نيسان ١٨٧٣ ، إسهام جميع من في البيت في إحياء برنامج السمر هو سر نجاح السهرات . كان على كل واحد من الزوار أن يغني ، أو يرقص أو يقلّد، أو ينشد شعراً ، أو يعزف على البيانو إذا شاء . وقد تآمرنا على صديقي « فلوبير » وظفرنا به ، غير أنه يتعب من الرقص في غضون خمس دقائق . إنه يصغرني بخمسة عشر عاماً ولكنه يبدو أكبر مني سناً بكثير ... أما « تورغينيف » فإنه طفل مثلنا يحب الصخب واللعب والضحك ويجيد رقصة « الفالس»، ويستطيع ممارستها وقتاً طويلاً دونما إرهاق . ما أطيب هذا العبقري، وما أكرمه ! وبعد الفراغ من الرقص قرأ علينا موريس قصيدة موسية : « أنشودة الليل » بشكل رائع ، وحاز على إعجاب جميع الحاضرين ! وفي الليلة التالية كتبت تقول : (١٨ نيسان ١٩٧٣ ــ استمعنا إلى « فلوبير » هذا النهار في

Twitter:@abdulllah1994

حديث عن الأدب والحياة تخللته بعض النكات الطريفة ، ولكن « تورغينيف » لم ينبس ببنت شفة . فقد وفرّ نفسه للمساء حيث امتدت السهرة حتى الواحدة صباحاً . أعتقد بأن طبع الإنسان هو الذي يملي عليه سلوكه ، لا ذكاؤه، ولا ثقافته ولا عبقريته ...

سوف يرحل الأصدقاء بعد غد ويتركون فراغاً كبيراً ، ولا سيما « فلوبير » و« تورغينيف » . إن هذا الأخير يأسر القلب بتواضعه وبساطته وبراءة قلبه !) [1] .

يوم رحيل الأصدقاء وضعت جورج عربتها الجميلة بخيولها المطهّمة تحت تصرّف« فلوبير » و« تورغينيف »لنقلهما إلى باريس ، وتلقت من « فلوبير » الرسالة التالية : (لم ينقض على افتراقنا سوى خمسة أيام ولكني أحسّ بشوق زائد إليك يا صديقتي يشبه شوق الحيوانات الأليفة لأصحابها . إنني مشتاق أيضاً لأورور الرائعة ، ولكل من في بيتك ، وحتى لكلبكم الصغير . أجل ! هذا ما أشعر به بقوة لأن الإنسان يرفل في النعيم عندكم . إنكم أفراد أسرة طيبة جـــداً ،

---

(١) ليليا أو حياة جورج صاند – أندري موروا – ص ٥١٨ ، عن دائرة المخطوطات في المكتبة الوطنية الفرنسية .

Twitter:@abdullah1994

ومرحة حقاً ، وقد تحدثنا عنكم طويلاً ونحن في عربتك المريحة حيث كان وقع حوافر خيولها الإيقاع الملاءم لاجترار الذكريات الحلوة .[1])

وفي صيف ذلك العام اصطحبت جورج أسرتها كلها ، ما عدا صولانج التي كانت تعيش على هواها بعيداً عنهم ، في رحلة استجمام إلى شواطىء المحيط الاطلسي حيث استمتعت بحمامات البحر مع الحفيدتين الغاليتين : (منذ أن بدأنا بإعداد العدة للسفر غمرني شعور بالفرح يفوق فرح الصغيرتين فهيأت معهما كل شيء وأنا ثملة مثلهما من شدة الغبطة !) ثم عادت إلى مقرها المفضل لتتابع تعليمهما ، وتؤلف مجموعة من الأساطير وحكايات المغامرات للاطفال . بعد ذلك بقليل وضعت رواية جديدة بعنوان : « ألبين فيوري — Albine Fiori » وقد استوحت وقائعها من حياة إحدى جداتها التي كانت بنت سِفاح لجدها : « المارشال دي ساكس — Maréchal De Saxe » وجعلتها في رسائل متتابعة . لم تعد تعير أي اهتمام للاحداث السياسية ما دامت دعائم الجمهورية قد ترسخت في فرنسا ، كما أنه لم يسؤها أن تمنع السلطات الباريسية عرض مسرحيتها : « الآنسة لاكينتيني » عام ١٨٧٣ بحجة أنها تثير

(١) ليليا أو حياة جورج صاند — أندري موروا — ص : ٥١٩ .

Twitter:@abdulllah1994

موضوعاً خطيراً قد يعكّر صفو الأمن في العاصمة ... ويوم ابتاعت ابنتها صولانج دارة بالقرب من قصر نوهان ،وزجت أنفها من جديد بما لا يعنيها وضعتها أمها في مكانها بكل هدوء وحزم ، وحذرت كنتها المسالمة الطيبة من الانخداع بكلامها المعسول ، ولطفها المزيّف ، وأخذت تسميها « البومة »إذ كانت تنكّد عيش الأسرة في أعقاب كل زيارة كانت تقوم بها ... ولم يكن يخفى على أم مثل جورج صاند تحجّرُ قلب ابنتها ، وعبادتها للمال ، بل كانت متأكدة من أن تلك البنت العاقة تنتظر موتها بفارغ الصبر للتمتع بنصيبها من الإرث الذي ستتركه لها !

في ربيع عام ١٨٧٦ عاودت جورج صاند بعض الآلام في الكبد والإمعاء ، وتلك كانت العلة الوحيدة التي عرفتها في حياتها . كانت تعالجها بالحمية والراحة ، وترفض استشارة الأطباء ، وتناول الأدوية ، فكتبت تقول في مذكرتها في ١٩/٤/من ذلك الربيع : (ان ما يشغل بالي هذه الأيام هو موريس لأنه يشكو من إلتهاب في الأعصاب يشتدّ عليه بين حين وآخر . لقد أصابته نوبة ألم حادة هذا النهار استمرت ساعتين ونصف الساعة، والغريب أن الألم لم يوفرني أنا أيضاً، ولكني درّست أورور مع ذلك . وكتبت بضع رسائل ،

Twitter:@abdulllah1994

وفرغت من قراءة كتاب « رونان » النفيس الذي أهداني إياه مؤخراً : « حوار ومقتطفات فلسفية » [1]) وعندما لاحظ ابنها وزوجه توعّك صحتها استدعيا طبيب مدينة « لاشاتر » بحجة أنه قادم لفحص موريس ، وتوسلا إليها أن تصف له أوجاعها ففعلت وهي تجزم بأنها في صحة جيدة ، وأن ما بها لا يدعو إلى القلق إطلاقاً . ثم كتبت إلى طبيبها في باريس في ١٨٧٦/٤/٣٠ تشرح له ما يضايقها فقالت : (على الرغم من تقدمي في السن فإني لا أشعر بوطأة الشيخوخة . ان جسمي قوي ، وبصري أفضل مما كان عليه قبل عشرين عاماً ، كما ان نومي هادىء وما زالت يداي حازمتين وثابتتين كالسابق . أما بعض الآلام التي تنتابني بين وقت وآخر فانها لا تدوم طويلاً . لقد كنت عرضةً لنوبات ربو خفيفة قبل بضعة أعوام فشفيت منها بلا علاج ، أما الآن فإن ما أشكو منه هو توقف بعض وظائف الحياة في جسمي منذ حوالي أسبوعين ، وهذا ما يجعلني أتساءل : إلى اين المصير ؟ وهل ينبغي أن أتوقع الرحيل في يوم قريب ؟[2] ...)

---

(١) ليليا أو حياة جورج صاند – أندريه موروا – ص ؛ ٥٢٣ .

(٢) جورج صاند – فلاديمير كارينين – الجزء الرابع – ص : ٥٩٨ .

Twitter:@abdulllah1994

لقد عنت جورج صاند بتوقّف بعض وظائف الحياة في جسمها إصابتها بإمساك شديد أخطأت بإهماله لأنه سبب لها تسمماً داخلياً عجز الأطباء عن إزالته . انتابتها آلام مبرحة في أيامها الأخيرة ، واسلمت الروح في فجر ١٨٧٦/٦/٨ محاطة بولديها وكنتها وحفيدتيها وبعض الأصدقاء وهي في كامل وعيها، تردّد هـذه العبارات : (وداعاً يا موريس ، وداعاً يا لينا ، وداعاً يا أورورا ، اتركوني ... أرى خضرة زاهية.)

فما هي تُرى تلك الرؤى الخضراء الزاهية التي أبصرتها جورج صاند على فراش الموت ؟ أحسب أن في وسعنا إدراكها إذا ما أمعنا النظر في هذا المقطع الرائع من رسالة وجهتها إلى « الكساندر دوماس الإبن » عرضت فيها رأيها في الموت قائلة:

(إن لي آراءً مبهجة في الموت على خلاف الناس ، وأعتقد بأن مصيري في الحياة الأخرى سيكون طيباً لأنني أستحقه. لا أطلب الجلوس في السماء السابعة بجوار الملائكة ، ولا الاستمتاع بتأمل وجه الخالق في كل لحظة لأنني لا أحسب بأن للخالق وجهاً يُرى ، كما أن الجلوس في الصفوف الأمامية لا يغريني مع أن احتلالها متعة كبيرة في نظر بعض الناس... أنا امرأة متفائلة على الرغم من المصائب التي فتّتت كبدي ، وقد يكون التفاؤل مزيّتي الوحيدة . سوف تدركه يا صديقي

Twitter:@abdulllah1994

لأنني كنت معذبة مثلك ، وعليلة صحياً ونفسياً وأنا في مثل سنك ، ولكنني نهضت ذات صباح ، بعد أن مللت من نفسي ، ومن سبر أغوارها وأغوار نفوس الآخرين ، نهضت ذات صباح وأنا أردد العبارات التاليــة : « إن الكون كبير ورائع ، وكل ما نظنه مهماً زائــل لا جدوى من التفكير فيه والبحث عن كنهــه . وليس في الحيــاة سوى بعض الحقــائق والقيم الثابتة ، ولكنني تجاهلتها واستهزأت بها ، والذنب في هذا ذنبي وحدي ! لقد دفعت ثمن رعونتي وبلاهتي غالياً . وعانيت كثيراً وتألمت ، فلا بد من أن أحظى بالمغفرة بعد أن كفّرت عن ذنوبي بمقاساة أشدّ أنواع العذاب ! فلنتصاف مع الله لأنه غفور ورحيم ! »[1] .

---

(١) جورج صاند – فلاديمير كارينين – الجزء الرابع – ص : ٤٠٨ .

Twitter:@abdulllah1994

الموتُ والخُلود

جرت مراسم دفن جورج صاند في العاشر من شهر حزيران في مقبرة الأسرة المجاورة لقصرها في نوهان ، حيث رقدت بسلام بجوار جدتها وأبيها وأمها . شيّعها سكان المنطقة ووفد مؤلف من أعز أصدقائها الذين حضروا من باريس لهذا الغرض ، وكان من أبرزهم « الأمير نابوليون» والفيلسوف « ارنست رونان » والأديبان « غوستاف فلوبير» و « ألكساندر دوماس الإبن » ، والناشر « كالمان ليفي » وبعض الصحفيين أمثال « فيكتور بوري » و « لامبير» ، والخطيب « بول موريس – Paul Meurisse » الذي أتى مندوباً عن فيكتور هوغو لتأبينها بإسمه . وبعد ان ووريت التراب وقف « بول موريس » على ضريحها وقرأ كلمة شاعر فرنسا العظيم التالية :

(إني أبكي سيدةً ماتت ، وأحيي شخصيةً خالدة

أحببتها وأُعجبت بها واحترمتها ، وها انا اليوم استغرق في تأمل سكينة الموت بكل جلالها .

إني أهنئها لانهـا حقـّقت في حياتها عملاً طيبـاً وعظيماً ، وأغبطها على ما قدمت ، واكرّر ما قلت لها في رسالة قديمة : « أشكرك يا جورج لانك إنسان كبير وروح سامية » .

تـُرى هل فقدناها حقاً ؟ كلا ! لأن مثل هذه الشخصيات العظيمة لا تزول وإن غابت عن الأنظار . أحرى بنا ان نقول إنها تتحقق بعد الموت لأنها تتوضح في بصائرنا بعد غيابها عن أبصارنا ، وهذا هو التجلي في أرفع درجاته .

إن صورة الانسان قناع يخفي وراءه الوجه الحقيقي القدسي الذي هو الروح ، وجورج صاند كانت روحاً فتحررت اليوم بانعتاقها من الجسد ، وهذا ما يحدوني إلى القول بانها ما زالت حية على الرغم من انها ماتت . إن لها مكانة فريدة في عصرنا إذ كانت فيـه المرأة العظيمة الى جانب رجاله العظماء . كان وجود امرأة مثلها ضرورياً في عصر قـُدّر له ان يفرغ من الثورة الفرنسية ويبدأ الثورة الإنسانية لان المساواة بين الجنسين جزء من المساواة العامة .

Twitter:@abdulllah1994

وكان ضرورياً ان تثبت لنا المرأة ان مواهبها لا تقل عن مواهب الرجال دون ان تتخلى عن خصائصها الملائكية ، وأعني بذلك ان تكون قوية ورقيقة في آن واحد كما كانت جورج صاند في حياتها !

لكم نحن في حاجة للذين يشرفون فرنسا ما دام هنالك كثيرون لا يشرفونها . ولسوف تظل جورج صاند فخراً من مفاخر وطننا وعصرنا . لم تفتقر هذه المرأة المجيدة الى شيء : كانت قلباً كبيراً كقلب « باربيس — Barbés » وفكراً عظيماً كفكر « بالزاك » ، وروحاً نبيلة كروح « لامارتين » . كانت العبقرية الشعرية كامنة في أعماق شخصيتها فأبدعت الروائع في هذا العصر الذي حقق فيه « غاليباردي — Garibaldi » المعجزات . أرى ان تعداد هذه الروائع لا يجدي لانها حاضرة في ذهن الجمهور ، ولكن لا بد من الإقرار بان ما يميز روائع جورج صاند من غيرها ، وما يجعلها قوية التأثير في الناس شيئان : عذوبتها ودعوتها إلى الخير . لقد كانت جورج صاند طيبة فأصابتها سهام المبغضين والحاقدين لأن من يبلغ مدارك التفوق يصبح عرضةً للكراهية ، ومن يستحق الإعجاب يصبح هدفاً للقدح والذم ... ان كراهية الناس للعظيم وذمهم له لا

Twitter:@abdulllah1994

ينقصان من عظمته شيئاً بل يكرسانها ، ولا بد لمن يتوّج من ان يُرجم ...

يُخيل الينا اننا نسمع صوتاً كرفيف الاجنحة يُنذر بان شيئاً ما قضى ، وشيئاً آخر حدث كلما يموت انسان عظيم . فالكسوف الذي يحدث في السماء يحدث أيضا في الأرض ، وكل ما يغيب يظهر من جديد سواء في السماء او على الأرض ، فالمشعل الذي يتجسد في رجل أو في امرأة يظهر مضيئاً في شكل الروح ، فتبدو لنا أنواره أكثر إشعاعاً من ذي قبل ، ويصبح جزءاً من الحضارة ، بل قبساً جديداً يُرسل ضياءه على الإنسانية . وهذا هو النور بعينه الذي تحركه رياح الثورات وتنميه لان النفثات الخفية التي تغذي الشعلة الحقيقية هي نفسها التي تطفىء الشعلة المزيفه .

لقد ذهب العامل ولكن العمل قد أُنجز . مات « جول ميشيلة – Jules Michelet » بعد ان رسم للتاريخ معالم درب المستقبل ، وماتت جورج صاند فورثنا منها حق المرأة الذي جلته عبقرية المرأة . هكذا تكتمل الثورات ، فلنبك الأموات ، ولنسجل شوطاً في التقدم ، فالمنجزات الرائعة لا تتحقق الا بفضل مثل هؤلاء الرواد الأباة .

Twitter:@abdulllah1994

وما علينا إلا أن ننحني أمام الإرث السخيّ الذي يخلفه لنا مشاهير أمواتنا ، وان نتطلع الى المستقبل بتأمل وصفاء لنحيّي ما بشّرنا بقدومه هؤلاء الراحلون العظماء ! [(١)])

كان لا بدّ للأدباء الذين اجتمعوا في نوهان لتكريم ذكرى زميلتهم العظيمة من التعليق على رسالة « فيكتور هوغو» في تأبينها ، جرياً على عادة الأدباء عقب الإصغاء لخطبة شاعر أو أديب ، أو قراءة أثر من آثاره .. فبينما أعجب « فلوبير » بخطاب « هوغو» نقده « رونان » ولم يجد فيه سوى كلام معاد ... كان الرذاذ ينتثر على الارض ساعة التشييع ويرطب عناقيد الزهر المتدلية فوق أضرحة المقبرة بحنان ، وكان « فلوبير » عاجزاً عن إخفاء عبراته لشدة حزنه على صديقته الكبيرة ، وقد قال في رسالة بعث بها إلى صديقه وصديقها الكاتب الروسي الكبير «تورغينيف» (لقد غلبني البكاء يوم جنازتها مرتين ، عندما هممت بتقبيل حفيدتها « أورور » اذ شاهــدت في عينيها عيني جدتها الجميلتين ، وعندما رأيت نعشها يسير باتجاه المثوى الأخير بكل جلال ...).

اما ابنتها صولانج فقد أثارت دهشة أقرباءها والمشيّعين واستغرابهم ببلادة حسها في حين كان موريس وزوجه

(١) من المنفى – فيكتور هوغو – الجزء الأول ، ص ٣٨٩ حتى ٣٩٢

Twitter:@abdulllah1994

مفجوعين على فقد تلك الأم العظيمة ، يختنقان بالدموع ... لقد استدعاها أخوها على جناح السرعة عندما اشتدّ المرض على أمه وتأكد من دنوّ أجلهـا ، فاحتلت مقعدها على مائدة الطعام بعـد التشييع مباشرةً ، وأخـذت تُطلق الأوامر الى الخدم بشكل مستهجن ، كما يفعل الضعفاء عندما يهزل القدر ويسمح لهم باحتلال مقام العظماء ! ..

واليوم، وبعد ان حاولنا التعرّف إلى جورج صاند الكاتبة النابغة ، والشخصية الفذة، واستعرضنا سيرة حياتها كاملة، وقوّمنا آثارها قدر المستطاع ، لا بد من توضيح الأثر الذي تركته في تاريخ الأدب ، وفي المجتمع ، ومن معرفة ما بقي حياً من مؤلفاتها الغزيرة بعد مضي أكثر من مائة عام على وفاتها . لقد اجمع النقاد والمؤرخون على ان قسماً كبيراً من تلك الآثار ما زال متداولا بين القراء وكانه وليد الساعة كرواية « كونسويللو » و « أنديانا » و « مستنقع الشيطان » و « فرنسوا اللقيط » وعـدد كبير من الروايات الريفية والحكايات الشعبية ، الى جانب مذكراتها وذلك الكنز الثمين من الرسائل التي تبادلتها مع كبار معاصريها . أما دفاعها عن حقوق المرأة ، ومطالبتها بالمساواة لإرساء قواعد العدالة

Twitter:@abdulllah1994

الاجتماعية ، ودعوتها إلى الإخاء والتمسك بالديمقراطية قبل قرن ونيّف من الزمن فقد جعلها رائدة من كبار الرواد لان هذه المبادىء ما زالت الهدف الاسمى الذي ترنو لبلوغ الكمال فيه كثير من الامم المتقدمة ، والذي تسعى إلى بلوغه الامم النامية .

بقيت كلمة أخيرة أودّ أن أختم بها هذا الكتاب هي التأكيد على ان محاربة الناس لكل عظيم وعبقري شيء طبيعي ، غالباً ما يواجهه المصلحون والمجددون ، والثوار والمتفوقون سواء أكانوا أنبياء أو مخترعين ، أدباء أو فنانين. كنا قد اطلعنا على موجة الاستنكار التي تعرضت لها جورج صاند في إبان ثورتها الداعية إلى التحرر عام ١٨٣٠ ، واليوم وقد هدأت العاصفة وانجلت السحب المغبّرة عن آفاق مقاطعة « البيري » ، مسقط رأس الكاتبة الكبيرة ، يجد الزائر في وسط عاصمتها « لاشاتر » تمثالاً جميلاً لجورج صاند أقيم تمجيداً لنبوغها ومآثرها[١] . وعندما يمرّ اليوم سكان تلك

---

(١) لقد تم تدشين تمثال جورج صاند المشار اليه في العاشر من شهر آب عام ١٨٨٤ ، وألقى الخطيب (بول موريس) في الاحتفال كلمة بعث بها الشاعر العظيم « فيكتور هوغو » للإسهام في تكريم الأديبة الراحلة . ويجد القارىء تلك الكلمة الرائعة منشورة في الجزء الثاني من كتاب «هوغو» « من المنفى » ص : ٢٥٦ .

Twitter:@abdullah1994

المدينة أمام هذا التمثال يقفون باحترام وإعجاب مفاخرين بتلك المواطنة العظيمة التي عاداها أجدادهم واعتبروها امرأة شاذة ، تستحق ان تُنبذ وان تُرجم ! ولعل الأغرب من ذلك ان بلدة « نوهـان » التي كانت مهداً لحبها الكبير لـ « فريدريك شوبان » أقامت احتفالا شعبياً ورسمياً عام ١٩٤٩ بمناسبة مرور مئة عام على وفاة الموسيقار الكبير ، حضره عشرات المعجبين بها وبحبيبها العظيم . فلقد توافدوا الى بلدتها يومئذٍ ففتح لهم آل صاند قصرها حيث بقي كل شيء في مكانه : مسرح العرائس ، وبيانو شوبان ، ومكتبتها ، ومرسم « دولاكورا » . كما زار المحتفلون بتلك الذكرى المئوية حديقة القصر ومقبرته التي ترقد فيها رفات سيدة عظيمة وأديبة عبقرية ناضلت وأحبت ، تألمت وفرحت ، وأعطت لوطنها وللأدب وللإنسانية ذوب قلبها وخلاصة فكرها فأصبحت من الخالدين .

• • •

Twitter:@abdulllah1994

مصادر الدراسة

١ – قصة حياتي – جورج ضاند

٢ – مراسلات – » »

٣ – يوميات خاصة – » »

٤ – رسائل مسافر – » »

٥ – يوميات مسافر خلال الحرب – جورج صاند

٦ – انطباعات أدبية – » »

٧ – شتاء في ميورقة – » »

٨ – أنديانا – رواية – » »

٩ – ليليا – » » »

١٠ – فرانسوا اللقيط – رواية – » »

١١ – مستنقع الشيطان – رواية – » »

١٢ – فاديت الصغيرة – » » »

١٣ – لوكريسيا فلورياني – » » »

١٤ – الآنسة لا كينتيني – » » »

Twitter:@abdulllah1994

١٥ – المعلم فافيلا – جورج صاند
١٦ – السيد سيلفستر – » »
١٧ – الماركيز دي فيللومير – رواية ومسرحية – جورج صاند
١٨ – زواج فيكتورين – » » » »
١٩ – رسائل إلى سانت بوف وألفرد دي موسيه – جورج صاند
٢٠ – ذكريات عام ١٨٤٨ – جورج صاند
٢١ – ليليا او حياة جورج صاند – أندري موروا
٢٢ – جورج صاند ، حياتها وآثارها – فلاديمير كارينين
٢٣ – شوبان وجورج صاند في ميورقة – بارتوميئو فيزا
٢٤ – شوبان – كميل بورنيكيل
٢٥ – جورج صاند ومقاطعة « البيرى » – لويز فنسان
٢٦ – اعترافات فتى العصر – ألفرد دي موسيه
٢٧ – لا مزاح في الحب – » »
٢٨ – يوميات شاعر – » »
٢٩ – رسائل عامة – سانت بوف
٣٠ – رسائل الى الغريبة – هونوري دي بالزاك
٣١ – عشاق البندقية – شارل موراس
٣٢ – من ألمانيا – هنري هايني
٣٣ – مشاعري وآراؤنا قبل عام ١٨٧٠ – جوليت آدم
٣٤ – من المنفى – فيكتور هوغو – جزآن .
٣٥ – يوميات خاصة – بودلير .
٣٦ – دائرة المعارف الكبيرة « لاروس » الجزء السابع عشر – طبعة عام ١٩٧٢.

Twitter:@abdullah1994

الفهرس

	صفحة
المقدمة	٧
ولادة سعيدة بين الورد والألحان	١٩
طفولتها و يفاعتها	٢٦
زواج غير متكافىء	٣٦
حياتها الزوجية والعاطفية	٤٤
ولادة الكاتبة « جورج صاند» في باريس	٥٩
« أنديانا » و « فالنتين» و « ليليا»	٦٦
عاشقا البندقية : جورج صاند و « الفريد دي موسيه »	٧٧
صداقات جديدة ودعوى التفريق	٨٧
الحرية صنعتي	٩٩
تجديد الصداقة مع بلزاك	١٠٩
شتاء في ميورقة مع « فريدريك شوبان»	١١٤
سبع سنوات مع الحب والإبداع والشقاء	١٥٦

Twitter:@abdulllah1994

بين السياسة والأدب ١٨٧
أعمال مسرحية وخدمات إنسانية ٢١١
جورج صاند : الام القاسية والجدة الرقيقة . . . ٢٢٧
شيخوخة مخصبة مع رفاق المجد ٢٥١
الهجرة إلى ضواحي باريس مع « مانصو » ٢٧٥
حبان جديدان : « غوستاف فلوبير » وأورور « الرابعة » ٢٨٦
حرب عام ١٨٧٠ والسنوات الأخيرة ٣١٦
الموت والخلود ٣٣٧
مصادر الدراسة ٣٤٥
الفهرس ٣٤٧
للمؤلفة ٣٤٩

Twitter:@abdullah1994

للمؤلفة

١ ـ يوميات هالة ـ ١٩٥٠ دار العلم للملايين ـ بيروت
٢ ـ حرمان ـ قصص ١٩٥٢ دار المعارف بمصر
٣ ـ زوايا ـ قصص ١٩٥٥ دار المعارف بمصر
٤ ـ الوردة المنفردة ـ شعر بالفرنسية ـ بوينس آيرس ـ الأرجنتين ١٩٥٨ .
٥ ـ نساء متفوقات ١٩٦١ دار العلم للملايين ـ بيروت
٦ ـ عينان من اشبيلية ـ رواية ١٩٦٥ دار الكاتب العربي ـ بيروت
٧ ـ نفحات الأمس ـ ديوان شعر بالفرنسية ـ مقطوعات باريس الأدبية ١٩٦٦ .
٨ ـ الغريبة ـ قصص ١٩٦٦ ـ مكتبة أطلس ـ دمشق
٩ ـ عنبر ورماد ـ سيرة ذاتية ـ ١٩٧٠ ـ دار بيروت للنشر
١٠ ـ في ظلال الأندلس ـ محاضرات ـ ١٩٧١ ـ مطابع ألف باء ـ الأديب ـ دمشق.

Twitter:@abdulllah1994

١١ البرتقال المر – رواية – ١٩٧٥ – دار النهار للنشر – بيروت

١٢ الشعلة الزرقاء – رسائل جبران خليل جبران إلى مي زيادة من عام ١٩١٤ حتى عام ١٩٣١ ، وزارة الثقافة والارشاد القومي – دمشق – ١٩٧٩

* * *

Twitter:@abdulllah1994

Twitter:@abdulllah1994

هذا الكتاب

... من قلم الأديبة السيدة سلمى الحفار الكزبري إلى قراء العربية، وهواة السيرة لإحدى شهيرات الحب والأدب: هذه الصفحات المشوقة المشرقة.

... بلغة ناصعة وأسلوب يستند إلى أهم المراجع والدراسات، ويوفق بين السرد القصصي والوقائع التاريخية في معادلة دقيقة ممتازة. تنسج سلمى الحفار الكزبري سيرة الأديبة [illegible] [illegible] راسمة رحلتها الخالدة بين الخالدين من أهل الفن والعبقرية العالمية، ومصورة من خلالهم حلقة مزدهرة من تاريخ الأدب والحياة.

... كتاب لا بدّ منه لكلّ أديب ومتأدب، ولكلّ قارئ متطلع إلى بهجة المطالعة ولذة الفائدة.

الناشر

[redacted]
أو ما يعادله

مؤسسة نوفل
[illegible] ص.ب ١١-٢١٦١ بيروت، لبنان